" نصل إلى أماكن مختلفة ، برغم انطلاقنا من نفس الآلام"

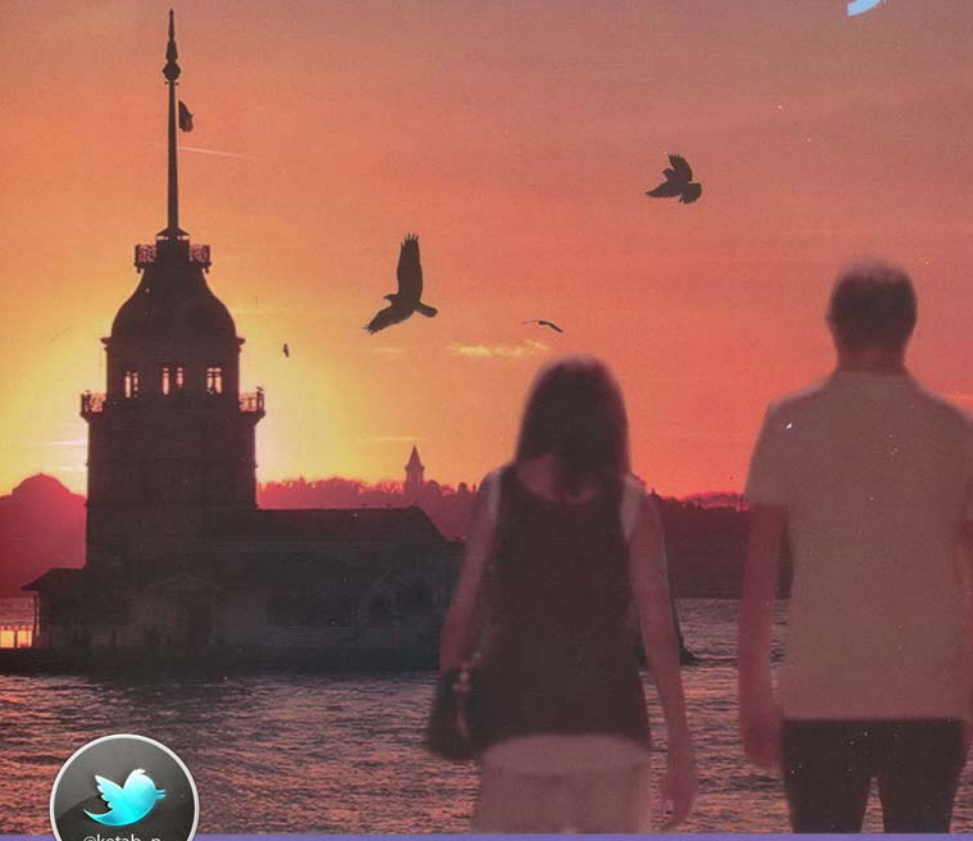

@ketab_n
Follow Me

22.4.2016

امرأة صديقي

((طريق الوحدة))

تونا كيرميتشي

ترجمة: خالد مكاوي

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

تونا كيرميتشي

امرأة صديقي

(طريق الوحدة)

رواية

ترجمة: خالد مكاوي

العربي
للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

امرأة صديقي
(طريق الوحدة)
تونا كيرميتشي
ترجمة: خالد مكاوي

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع:20607/2015
الترقيم الدولي: 9789773192129

الغلاف: مروة فتحى
مراجعة لغوية: محمد حامد
تحرير: علي حامد

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

© Tuna Kiremitci / KALEM
Bu İşte Bir Yalnızlık Var
by Tuna Kiremitçi
Published 2003 by Doğan Kitap

Twitter: @ketab_n

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

This book has been translated with the assistance of the Sharjah International Book Fair Translation Grant Fund

This book has been published with the support of the Ministry of Culture and Tourism of Republic of Turkey in the framework of TEDA Project

بطاقة فهرسة

كيرميتشي ، تونا

امرأة صديقي (طريق الوحدة) / تونا كيرميتشي ؛ ترجمها خالد مكاوي.– ط ١ .

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع 2015

- ص؛ سم. تدمك 9789773192129

1- القصص التركية أ- خالد مكاوي (مترجم)

ب- العنوان 894,353

1

وقفت "عائشة" في منتصف الغرفة، مرتديةً "أوفرول" البستاني المضحك الذي اشتراه لها "أورهان" في عيد ميلادها منذ ثلاثة أعوام، وشعرها القصير البُنِّي ملفوف بالبِنَسْ وكأنها نَهَضَتْ لتوِّها من السرير. على الرغم من مرور عدة دقائق على قدومها، إلا أن عينيها كانتا محتقنتين بسبب البكاء.

فقدتُ الأمل في إدخال المسمار في فتحته؛ فتركتُه، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا. وسألتها:

- ها يا حبيبتي، ماذا حدث هذه المرة؟

- لا فائدة... لا يمكن التحدث مع هذا الرجل. لقد انفجر قبل أن نتكلم كلمتين معًا، ألقى بالطبق على الأرض، وكسره، وصفعت أنا الباب ومشيت. لقد فعلت الأمر الصواب، أليس كذلك؟

أجبتها:

- نعم، بالتأكيد، هناك شاي على النار، اجلسي واستريحي.

كان زوجها بلا وظيفة لما يقرب من عام، قبل أن يستدعوه إلى مكتب مديره؛ حيث كان يعمل مُدَرِّسًا خصوصيًّا للرياضيات.

Twitter: @ketab_n

وأعتقد أنه يجب أن أذكر أن "عائشة" و"أورهان" دخلا حياتي كصديقيّ زوجتي المقربين، وعندما انفصلتُ أنا وزوجتي، حكم القاضي بأن تأخذ زوجتي "نازلي" ابنتي، واختارا هما جانبي.

أعتقد أنهما وجدا موقف زوجتي قاسيًا بعض الشيء، فـ"نازلي" تلومهما على وقوفهما بجانبي بعد الطلاق، ولا أعرف إن كان هذا بالقرار الحكيم، فلو كنت مكانهما لما اخترتني.

لم تكن بالغرفة، ناديتُ عليها:

- ما أخبار عملك؟

كانت تبحث في المطبخ عن أكواب للشاي.

فأجابت وقد بدأ صوتها يعود لطبيعته:

- ليس سيئًا جدًا.

ثم سألتْ:

- ألا توجد أي أكواب نظيفة في هذا المنزل؟ متى تأتي خادمة التنظيف؟

- طالبتْ بزيادة الأجرة، فأخبرتُها بألا تأتي بعد ذلك.

- هذا أحسن لك، ستموت وسط قذارتك.

حاولتُ وضع أسلاك الكهرباء في مكانها ولكنها رفضت، وخفت أن تؤثر على الجيتار إذا ما أدخلتها عنوة، فقلت لها:

- اخبريني.

ورفعتُ من صوتي قليلاً حتى تسمعني:

- كيف حال المطعم؟

Twitter: @ketab_n

- جيد جدًا.

- هل يكون مُمتلئًا بالكامل في وقت الغداء؟

- نعم.

- هل يحبون طعامكم؟

- أعتقد هذا.

- حسنًا.

عادتْ ومشتْ خطوات قليلة، ثم وضعت صندوق المعدات الخشبي على الأرض، ووضعت كوب الشاي عليه. ابتسمتْ، واستنشقتْ الشاي قائلة:

- وسيكون من الجيد أن نستثمره.

- سيحدث هذا أيضًا...

أجبتها، ثم تابعتُ:

- أعتقد أن "أورهان" سيأتي حالاً أيضًا.

- إذا جاء، سأريه.

تركتُ الجيتار لمصيره ونهضت:

- سأغسل كوبًا من أجله.

- لا تهتم، دعه يشرب من الكوب القذر!

عندما دخلت المطبخ، غضبت من نفسي، فالمطبخ سيئ جدًا، فصحت حتى لا أُعطي "عائشة" فرصة للتفكير في الأمر:

- أتعلمين ما الجيد في الموضوع؟

- أي موضوع؟

Twitter: @ketab_n

- موضوعكما... الجيد به هو أنكما قادران على الاستمرار في المشاجرة..

- نعم...

قالتها بعصبية، فاستدركتُ قائلاً:

- ألستِ سعيدة بذلك، يومًا بعد يوم.

رفعتُ إسفنجة غسيل المواعين، وظهر صرصار من تحتها. أنا لا أتحمل الحشرات، فبحثت عن شيء لأضربه به، وفي هذه اللحظة ظهرت "عائشة" عند باب المطبخ:

- ألم تتشاجر مع زوجتك؟

- لا يا عزيزتي، لقد كنا في مرحلة الحرب الباردة.

- إلى ماذا تنظر هكذا؟

اقتربت مني فرأت الصرصار تحت الإسفنجة، قالت:

- نعم، أحسنت صُنعًا بطرد خادمة التنظيف.

- سأتدبر هذا الأمر غدًا، الآن افعلي شيئًا بخصوص ذلك الكائن.

- اخبطه على رأسه.

- فكرة جيدة، بماذا أخبطه على رأسه؟

ضحكتْ بنعومة وقالت:

- "محمد" أنت علاج جيد للاكتئاب.

- "عائشة" اعطني إذن تلك الجريدة من فوق الثلاجة.

لففت الجريدة بنفس حماس تعمير مسدسي أثناء تأدية الخدمة العسكرية، ورفعت ذراعي، وارتكزت بكل وزني على كعب قدمي، وفي لحظة ضربي له، أمسكت "عائشة" ذراعي:

Twitter: @ketab_n

- انظر إليه يا "محمد"، انظر ماذا يفعل؟

انحنينا تجاه الحوض، فرأيناه يشرب من الماء من نقطة قرب فتحة الصرف. تقريبًا كل المخلوقات تشرب الماء بالطريقة نفسها. كانت تلك هي أول مرة أرى فيها حشرة تفعل شيئًا يُعتبر طبيعيًّا.

قالت عائشة:

- اتركه يرحل.

ثم سكتت قليلاً وأكملت:

- إنه مسكين.

ألقيت بالإسفنجة إلى صندوق القمامة، وغسلت الكوب الذي أخذته من الجانب الآخر بمياه ساخنة، وهرب السيد صرصار مذعورًا من المياه الجارية.

شَغَّلتُ شريطًا تحبه "عائشة"، كان فريق " أوتش هورال" أو "ثلاثي هورال" يغني: "حب مرة تموت ألف مرة".

أخذت "عائشة" الجيتار الأبيض المسنود على الحائط. وكنت قد خلعت أوتاره لأقوم بإعادة ضبط العنق. أمسكتْ بالجيتار، وأخذت تقلد حركات العزف وهي تستمع إلى إيقاع الموسيقى.

- إذن، أصبح جيتارًا جيدًا الآن؟

- نعم، سيصبح كذلك.

- جيتار من هذا؟

- شاب من سوق البورصة، أعطته له زوجته كهدية عيد ميلاده.

- يا لها من زوجة... ما مشكلته؟

- العنق يحتاج إلى إعادة ضبط.

Twitter: @ketab_n

- ثم سيعزف عليه، أليس كذلك؟ هل يُقَدِّم حفلات في سوق البورصة؟

- لا أعلم، أعتقد أنه سيعزف عليه في المنزل.

- أهو صديقك؟

- زبون.

أشعلت سيجارتها، وفتحت أنا الشباك، وتسربت برودة ليل نوفمبر إلى الحجرة. أمطرت الدنيا كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية، وكان ذلك سبب الرائحة الزكية لأرضية الحديقة.

سألتها:

- لماذا لا تتكسبون من عملكما؟

- إننا من البُلهاء، نبيع بالسعر نفسه الذي نشتري به، يا له من توقيت جيد لافتتاح مطعم جديد!

- وماذا يُزعج "أورهان" إذن؟

- أشياء تعلمها، لدينا مشاكل كثيرة على أي حال.

- أعطه وقتًا أطول.

- لا أعلم حقيقةً، لقد تحول عقله إلى إسفنجة، من كثرة الشرب.

- أعتقد أن هذا أمر مؤقت، هناك كثير من الناس في نفس حالته.

- لا تدافع عن صديقك.

- حسنًا.

قلتها وأنا لا أستطيع منع نفسي من الابتسام.

- لن أدافع عنه.

Twitter: @ketab_n

عدتُ إلى عملي حتى تشعر هي بالراحة. لم أستطع تركيب الجيتار بشكل صحيح. إذا ما كانت آلة أخرى بين يديّ، لكنت حاولت بقوة أكبر قليلاً، ولكنه جيتار الفنان "نهاد آبي"، وبالتالي عليَّ أن أعامله بلطف. جلست "عائشة" وظهرها لي، ووجهها للشباك. أستطيع رؤية صورتها المنعكسة في زجاج الشباك. كنتُ أبحث عن مفكي، فهو موجود في مكان ما هنا.

قالت لي:

- اعزف لي أي شيء، فأنا لا أشعر بتلك الموسيقى على الإطلاق.

أجبتها:

- إنها شَغَّالة بالفعل.

- ليست تلك، اعزف أنت لي شيئًا.

- هل جاءك هذا الخاطر فجأة؟

- واخبرني، لماذا لم تعد تعزف موسيقى؟

- لا أعلم... أعتقد أنني خائف.

- هذه الأيام أي شخص وإخوته يصبحون موسيقيين. كنت موسيقيًّا جيدًا جدًا، أتعلم هذا.

وجدتُ أخيرًا المفك، كان قد وقع في إحدى الحقائب البلاستيكية، مع الأوتار الاحتياطية. أجبتها:

- أسهل جزء هو تأليف الموسيقى.

دوَّرتُ المفك بحذر:

- الباقي هو الأصعب.

- أتقصد إيجاد مكان للعزف؟

Twitter: @ketab_n

- حسنًا، فلنقل إننا وجدناه، مع من ستعزفين؟ إذا كان أي زوجين يلاقيان صعوبات كثيرة معًا، كيف ستتعاملين مع فرقة موسيقية؟

- وكيف كنت تتعامل في الماضي؟

- لا أعلم، أعتقد أنني كبرت.

- أتقصد أنك لن تعزف لي الآن؟

- لا.

- ولا حتى لأجل خاطري؟

- لا، اذهبي صُبِّي لنا بعض الشاي، وتأكدي أن الصرصار بحالة جيدة وإن كان يريد شيئًا أم لا؟

- ها ها ها!

- ها ها ها عليكِ أنتِ! وأغلقي النار قبل أن تعودي.

كان جيتار "نهاد آبي" تمامًا كـ"نهاد آبي"، عنيدًا، غضوبًا، يستحيل أن تجعله يفعل شيئًا لا يرضى عنه، وكان من الواضح أن الجيتار لا يريد أن يتعامل مع من يُصلحه تلك الليلة. فجأةً شعرتُ بأنني اشتقتُ إلى "نهاد آبي"، فلم أزره في المستشفى لعدة أيام.

عادت "عائشة" من المطبخ بكوبيّ شاي، أعطتني أحدهما:

- بالهناء والشفاء أيها العجوز!

أسندت الجيتار إلى الحائط، وعلى بُعد، ومن فوق الأبنية الطويلة، حيث تنتهي الخضرة، رأيت البرق. كان صوت الرعد الذي تلاه عاليًا جدًا، لدرجة أننا انتفضنا من على مقاعدنا.

- هل يجب أن نذهب لنلقي نظرةً عليه؟

Twitter: @ketab_n

- إنه غارق في النوم بالتأكيد، عند خروجي كان قد شرب نصف الزجاجة.

- كيف يبحث مدرس الرياضيات عن عمل؟

- نفس طريقة الآخرين، لا يريد أن يعمل في مدرسة حكومية، وللعمل في المدارس الخاصة يجب أن تحظى بشبكة علاقات.

- ألا يعرف أي أحد؟

- لا أعلم، المشكلة الحقيقية فيه هو، لم يُعجب مدير مركز الدروس الخصوصية على الإطلاق، وقَدَّمَ أولياء الأمور عدة شكاوى ضده.

- لماذا؟

- كان يقرأ أشعارًا في الفصل.

- أتقصدين أنه لا ينبغي عليه ذلك؟

- يا عزيزي، هناك عشرون طالباً في فصله يحاولون الالتحاق بالجامعة، وكل ما يهتمون به هو الحصول على المفيد والحيل التي تُمكنهم من حل مسألتين حسابيتين أو أكثر بشكل صحيح في الامتحان، فما شأن الشعر بذلك؟

- لا بد أنه يُعلِّم شيئًا ما.

- بالطبع، وها هي النتائج، أليس كذلك؟

- ألا يستطيع إعطاء دروس خصوصية؟

- وأين يجد التلاميذ؟

- لا أعلم، يجدهم حيث أجدهم أنا؟

- الأمر مختلف، أنت مشهور.

Twitter: @ketab_n

تخطى المطر مرحلة الرذاذ وبدأ يهطل بشدة، لم نعد نسمع الموسيقى من شدة الرعد، اتسعت عينا "عائشة" ونظرتْ إلى الظلام المرتفع فوق الحديقة وكأنها تنتظر ظهور شيء ما خارق للطبيعة في أية لحظة، وتعجبتْ:

- أي نوع من المطر هذا؟ ليس رومانسي على الإطلاق.

- يجب أن أذهب للم الغسيل من على الحبل.

تنهَّدتْ:

- حسنًا، سأذهب، ستبدأ المياه في التسرب إلى المنزل من كل ثقب.

نهضنا، وسألتني أن أعيرها جهاز الكاسيت، فأجبتها:

- خذيه، إنه ملكِ.

إن كمية الموسيقى التي سمعتها لفريق "أوتش هورال" إلى اليوم تكفيني لنهاية حياتي.

يجب أن ألتف حول العمارة لكي أصل إلى حبل الغسيل، ارتديتُ حذائي طويل الرقبة، ومعطفًا. هناك طريق إلى شقة "عائشة" من خلال السلم الضيق خارج المنزل. أعطيتها مظلتي، وعند أسفل السلم، توقفتْ وبدأتْ في قول شيء، ولكنها تراجعتْ عنه وابتسمتْ، كانت قد بدأت العودة لطبيعتها؛ أن تقف تحت المطر وتبتسم. لَوَّحتُ لها، وعُدت جريًا إلى حبل غسيلي.

2

تعيش "ليندا" وعائلتها في منزل يطل على البحر مُحاطًا بسورٍ عالٍ، على الجانب الآخر من مضيق" البوسفور". يعجز المرء عن وصف جمال منظر المنزل من الخارج. هناك حديقة مزينة بالأشجار تفصل المنزل عن السور، حيث تتلاعب الريح بأوراق النبات المندية. حديقة تجعلك تشعر بالراحة، وتتوقع أن يظهر لك الممثل الشهير "سامي حسن ساس" مرتديًا زيَ البستانية في أي لحظة، وهناك حمّام سباحة صغير خلف المنزل، وبجانبه ترى برجولة للجلوس.

- ليندا استيقظت لتوِّها.

أخبرتني أمها بذلك، هي في نفس عمري، مُهندمة جميلة المظهر، شعرها طويل في سواد الليل، ترتدي بنطلونًا من الجينز وقميصًا يرفرف مع الريح، برهانًا قويًّا على أنها لا تزال تثق في جمال جسدها:

- ستنزل حالًا، أتريد شرب شيء ما؟

أحب التواجد في هذا المنزل، جيتاري في يدي، انتظر "ليندا" في غرفة المعيشة الواسعة، أشبه نفسي بأساتذة البيانو في الأيام الخوالي، يدفعون لي مبلغًا جيدًا

Twitter: @ketab_n

أيضًا. قد يكونون أناسًا طيبين، على الرغم من ثروتهم. أنا أخاف من الأثرياء، ربما لأنني لم أعرف الكثير منهم في حياتي.

قالت السيدة "ريلا" وهى تصب الشاى:

- "ليندا"، دعينا نسمعك الكاسيت.

قلت:

- تبدو طفلة جيدة.

أجابت وهى تبتسم بثقة:

- فعلاً..

ثم أضافت:

- أُعجب أبوها وأنا بالموسيقى كثيرًا جدًا، أغانيك جيدة جدًا.

- في الواقع.. مر وقت طويل ولم أعد أعزف.

- يجب أن تبدأ من جديد، إن أردت رأيي.

- لا أعلم الحقيقة...

- يجب عليك، وربما تقدم لنا حفلة يومًا ما...

ضايقني الموضوع، فرسمت ابتسامة مجاملة، وأجبتها:

- ربما يومًا ما، لِمَ لا؟

"ليندا" فتاة في الرابعة عشرة، وُلدت كفيفة، واخترعنا طريقة للتعامل سويًا، حيث نلحن معًا. تقوم "ليندا" بتلحين بيت شعري، وألحن أنا الآخر، ويجب أن يتكامل البيتان، وأحيانًا ننتهي بتكوين مقطوعة موسيقية حقيقية، مكتملة بالقرار وكل شيء، وإذا ما أعجبت المقطوعة "ليندا"، نسجلها على

شريط صغير، تتمتع "ليندا" بصوت لطيف وحزين، وتعتقد أيضًا أنني مشهور، لقد كانت علاقة حب من نوع ما.

"حزني أو سعادتي يعتمدان عليك".

كانت تلك أغنية بدأت ألحنها من أجل "نازلي"، ولكنني لم أكملها. في الواقع، تتألف تلك الأغنية من لحن بسيط يتكرر مرارًا وتكرارًا، بشكل لا نهائي، تذكرني أيضًا بأغنية قديمة.

بعد أن غنيت البيت الأول، ارتسمت على وجه "ليندا" التعبيرات الجادة المعتادة عدا عينيها اللتين دائمًا ما تبدوان شاغرتين. لها وجه لطيف، وأعجبني شعرها الأسود الطويل الذي يميل معها عندما تنحني للأمام حتى تتمكن من الضغط على الأوتار بأصابعها الصغيرة.

- سعادتي أم لا...

لقد أدركت معناها، بإمكاني أن أجيبها في الحال، فتلك أغنيتي على أي حال، لكن من أجل إعطائها بعض الوقت، تظاهرت بأنني أفكر فيما سأقوله.

- قد أكون مخطئًا بشأن هذا الموضوع.

شاهدت قوة الشفاء التي تقدمها الموسيقى للناس أكثر من مرة، أحيانًا يشعر المرء باتحاد كامل مع الآلة، وبالتالي نخرج من عزلتنا، بغضِّ النظر عن مدى جودة أو سوء ذلك، إلا أننا نصبح جزءًا من العالم المحيط بنا، إذا ما أدركنا الجيتار كامتداد طبيعي لأنفسنا، سنتمكن من الإحساس بالشجرة التي صُنِعَ منها خشب الجيتار، والأرض التي نبتت فيها، والماء الذي سقاها لتنمو، هكذا أفكر.

"تأخري أو عدمه، يعتمد عليك أنت".

"حضوري في الموعد أو عدمه... "

Twitter: @ketab_n

"بهجتي أو حزني".

كررنا تلك الأبيات مدة نصف الساعة، ومع ذلك، لم تستطع ضبط النغمة، ولم أستطع أن أضبطها أنا كذلك، ولكن لحننا الجديد أعجب "ليندا" على أي حال، فعزفناه مرة أخرى، لنسجله على الشريط.

- سأخبرك بسر.

فاجأتني في نهاية الدرس، فأجبتها:

- أنا جيد في حفظ الأسرار.

- أعتقد أنني وقعت في الحب.

- هل أحببتِ من قبل؟

- لا أعلم، ليس بالضبط.

- إذن، فلتقدري ذلك، كثيرون لا يمتلكون تلك الموهبة.

قضيت بقية اليوم بمفردي، فذهبت إلى مطعم "سالاجاك"، وجلست على الترابيزة المقابلة لـ"برج العذراء". شربت الشاي دون الالتفات إلى البرودة التي احتقن بها حلقي. مرحت مع الأطفال ماسحي الأحذية الذين ظنوا أنني سائح. الأيام صارت أقصر، والشمس تغيب سريعًا.

- اعزف لنا مقطوعة.

طالبني بها طفل ماسح للأحذية.

- لا.

- فلتعزف لنا إذن أغنية شعبية.

- لن أعزف.

- وماذا تفعل إذن؟

- أنت تعزفها.

وأعطيته الجيتار، فأخرجه من حقيبته، وضرب على أوتاره بأصابعه المسودة من الورنيش، وكأنه يتعامل مع شيء نفيس، ثم فجأة انفجر ما به من كبت، وبدأ يضرب عليه وكأنه يعزف، فقطع وترًا، وعبس وجهي.

- انظر ماذا فعلت...

- آسف، هل هو غالٍ؟

- لقد دمرته.

- سنتفق على شيء ما يا عمي، سألمع لك حذاءك مجانًا حتى أسدد ثمنه.

- ستفعل بالتأكيد.

قلتها بصوتٍ قاسٍ.

- ولكن ليس لإتلافك الوتر، ستفعل ذلك لأنك ناديتني بعمي.

- وبماذا يجب أن أناديك؟

- نادني بأخي، نادني بـ"محمد".

- وكيف لي أن أعرف اسمك؟

- اسأل.

تشتت نظر الطفل ما بين الوتر المقطوع، وبيني، ثم إلى الوتر المقطوع مرة أخرى، لابد أنه يراني معتوهًا، لم أستطع كتم ضحكتي، فأدخلت الجيتار في حقيبته.

قلت له:

- ستلمع حذائي لشهرين.

Twitter: @ketab_n

- لاااا!

تعجب، ثم قال:

- شهرًا واحدًا.

- شهرًا وخمسة عشر يومًا.

- شهرًا وأسبوعًا.

- حسنًا.

وافقت، وأكملت:

- سآتي هنا مرة في الأسبوع خلال الأسابيع الخمسة المقبلة، لن تحاسبني.

- حسنًا، ولكن إن لم تظهر، ستخسر.

- وإذا لم تظهر أنت، لا تقلق، سأجدك.

- حسنًا.

أجاب مقطبًا جبينه، ثم قال:

- الآن، ارفع قدمك، سأبدأ تسديد أول قسط.

أثناء عودتي، وجدت "عائشة" تجلس على السلالم، كان من الواضح أنها تبكي، لوَّحت لي، وحاولت أن تبتسم. دائمًا ما تذكرني النساء اللاتي يحاولن إخفاء حزنهن بأمي. طلبت منها سيجارة، فناولتني واحدة، أشرت إليها أن تفسح حتى أجلس، جلسنا جنبًا إلى جنب لفترة دون أن نتحدث، نظرنا إلى الطريق أمامنا والأشجار المصطفة على جانبيه.

منزلنا محاط بعمارات طويلة من ثلاث جهات، أشعر بالراحة نوعًا ما عندما أواجه الأبنية، فأنا لا أحب الطبيعة كثيرًا، ولست سعيدًا أيضًا بالحديقة خلف منزلي، حيث تأتي منها حشرات غريبة.

Twitter: @ketab_n

منزلنا هو الأخير من نوعه، حيث لا يوجد في الجوار أي منازل أخرى من طابقين ونصف، وقد طالبت "تشاموران تيزة" من مطور البنايات بعض الوقت كي تفكر بشأن اقتراحه، فإذا ما وافقت، ستكون تلك هي نهايتنا هنا.

أطفأت "عائشة" سيجارتها وتنهَّدت:

- رحل "أورهان".

- ماذا تقصدين بكلمة "رحل"؟

- رحل.

- ألم يقل أي شيء وهو يرحل؟

- قال إنه آسف، ظل يكرر هذا.

- ومتى سيعود؟

- لا أعلم.

قالت ذلك وهي تمسح دمعة سالت على خدها:

- حتى وإن عاد، فلن أسمح له بذلك أبدًا، لقد تخلصت من ذلك الحيوان.

لم أجد شيئًا أقوله، فـ"أورهان" ليس بالشخصية المغامرة، إنه يفكر لمدة خمس دقائق قبل أن يذهب إلى البقال عند الناصية. أمسكت بيد "عائشة"، كانت يد المسكينة باردة، فقلت:

- إن الجو بارد جدًا هنا، فلندخل.

- ادخل أنت، سأظل هنا لبرهة.

- أتريدين شيئًا لترتديه؟

- لا، إنني بخير هكذا.

Twitter: @ketab_n

أخذت معطفي الأخضر من دولاب غرفة النوم، وأحضرته لها ووضعته على كتفيها، ردت بزفرة، فتركتها وحدها على السلالم، ودخلت المنزل.

3

كان "نهاد آبي" نائمًا.

من دون الشارب، بدا وجهه متقلصًا تمامًا كشكله في صور أيام شبابه، وأضاف إليه ضوء المصباح جوًا من القداسة. مغروس في ذراعه "كانيولا" موصولة بزجاجة تُنَقِّطُ محلولًا ما، تلك الذراع التي اعتادت عزف الجيتار خلف "أجدا"، و"سيزين"، و"مظهر"، لعدة سنوات.

قالت الممرضة، وهي فتاة جديدة لم أرها في المستشفى من قبل:

- نادرًا ما يستفيق.

وأضافت:

- ولا يتعرف من حوله.

أجابها "ألتان" باقتضاب:

- سيتعرف علينا.

ثم أكمل:

- فنحن بمثابة إخوته.

Twitter: @ketab_n

جلسنا على الأريكة المقابلة للسرير. يكبرني "ألتان" بثلاث أو أربع سنوات، عزفنا موسيقى معًا لعدة سنوات، والآن عندما أقلب في التليفزيون في أي وقت، أراه يعزف خلف مغنٍ مشهور، لا بد أنه يتقاضى أجرًا جيدًا.

سألته:

- كيف حال العمل؟

أجاب:

- جيد.

داعبته:

- لا تقلق، لن أطالبك بنقود.

أجاب مبتسمًا:

- يجب أن ألزم جانب الحذر.

- كيف حال العمل مع "إلفان بيرين"؟

- عزفت معها في ألبومها الأخير، وطلبوا مني أن أعزف معها في حفلتها، سنرى.

- ألا يوجد شيء بينكما؟

- يجب أن ترى الشاب الذي تخرج معه، إنه شَبَه "دون كورليوني"، لهذا عليّ أن أحترم نفسي، كيف حال ابنتك الجميلة؟

- جيدة، إنها بالصف الثالث الآن.

- واو.

قال "ألتان" وهي يُلقي نظرة على "نهاد آبي":

- يا لسرعة مرور الزمن!

Twitter: @ketab_n

وللحظة بدا ليْ أن "نهاد آبي" سيجيبه، اعتاد قول كلمات رائعة في مثل تلك الأوقات، فعندما تبدأ نغمة صوته بالهدوء ويخرج ناعمًا، يجب عليكَ أن تترك له المجال ليتكلم، ولكن ليس هنا، ليس معنا، قد يلتحق بفريق أوركسترا عظيم في السماء، ربما قريبًا جدًا، وما نحن إلا شخصان أبلهان نردش في غرفة المستشفى.

عند خروجنا، كانت السماء رمادية، كانت قد أمطرت رذاذًا خفيفًا؛ فابتلت الأرصفة. كان "ألتان" مستعجلًا كعادته، كان عليه أن يعبر إلى الضفة الأخرى لحضور بروفة وقد اتفقنا على إيصالي لأقرب طريق يؤدي لمنزلي. لدى "ألتان" عربة "جولف" يقودها منذ عدة قرون. شعرت بالراحة عند ركوبي السيارة، أعتقد أنني أحبها، فلا تزال تعمل بكفاءة.

- لم تغيِّر سيارتكَ.

- أفكر في هذا.

عشر سنوات كاملة ظل يقول إنه يريد تغيير سيارته ولم يفعل. أكملت:

- ماذا ستشتري؟ سيارة "رولز" أو ما شابه؟

- "جيب".

- حقًا!

- ليس الأمر كما تعتقد، ستكون سيارة "جيب" عسكرية متهالكة، ولكن بإمكانك تحويلها إلى حالتها الأصلية بإنفاق أموال قليلة.

علقنا في الطريق خلف الاستاد، كنا نتحرك ببطء شديد تحت رخات المطر، ثم حدث شيء ما، أغرب شيء ممكن أن يحدث، أثناء بحثنا عن الموسيقى في الراديو، وتغييرنا للمحطات، سمعت صوتًا أليفًا، فأدرت الزر قليلًا للوراء، وملأ صوت الكمان الخامل سيارة "الجولف"، رفعت رأسي، ونظرنا باندهاش إلى بعضنا الآخر، لم يقل شيئًا، ولكنه ابتسم فقط.

Twitter: @ketab_n

كانوا يبثون أغنية "عنك"، وهي من إنتاجنا ، فأخبرته:

- لديَّ تلميذة تحب هذه الأغنية جدًا.

- أنت تفسد الأطفال.

أحيانًا وأنا مع "ألتان" ينتابني الشعور نفسه الذي كنت أحس به وأنا مع "نازلي"، وهذا ما يحدث مع شخص اعتدت العزف معه في الفرقة نفسها طوال سبعة أعوام. كنت أنا و"ألتان" كالمطلقين، غير أن الجراح التأمت بعد تلك الفترة الطويلة، وتم جبر ما كُسِر بشريط لحام.

هل كنت لأفعل هذا مع "نازلي" بعد كل تلك السنوات؟ هل كنا لنركب السيارة ذاتها ونبتسم عند سماعنا لبث أغنية قديمة عزفناها معًا؟

تدفق المرور ببطء تجاه مخرج الجسر تحت هطول الأمطار المتزايد. اعتدنا المطر، فهي تمطر منذ شهر، وكأننا في منتصف فيلم عاطفي بطيء الأحداث، ولعبت موسيقى "عنك" دور الموسيقى التصويرية بمهارة.

وعند اقترابنا من المخرج، قال:

- إن المطر يهطل بشدة.

- نعم، أليس كذلك؟

- كيف ستذهب إلى البيت؟

- سأجد تاكسي.

- ستجد، يا لك من مسكين، لا تكن ساذجًا.

تخطى المخرج، ونتجه الآن في الطريق مباشرة إلى "ليفنت". تحت هذا المطر، سيصل مشواره بعد ساعة ونصف أخرى، أطفأت الراديو وقلت:

Twitter: @ketab_n

- ستتأخر عن البروفة.

- ولا يهمك، وكأننا سنتدرب على عزف السيمفونية التاسعة مثلاً.

لم نتحدث حتى وصلنا للمنزل، حاول أن يتذكر الطريق؛ حيث لم يزرني منذ شهور. ركن السيارة في أقرب مكان لبوابة الحديقة حتى لا يبللني الماء، وعند نزولي تنهد:

- "نهاد آبي" سوف يمـــ....

- نعم... أيجب علينا إخبار أحد؟

"نهاد آبي" وحيد منذ أن عرفناه، له أخ يعيش في بروكسل، لم تكن تجمعهما علاقة جيدة، ولا نعلم لماذا، فلم يتحدث "نهاد آبي" عن هذا كثيرًا.

- هل لديك رقم تليفون أخيه؟

- ربما يكون مكتوبًا في مكان ما في بيت "نهاد آبي"، سأذهب غدًا لأبحث عنه.

بعدما نزلت من السيارة، لم يلتفت إليَّ، أدار السيارة في الحال واختفى وطرطش المياه على الرصيف. أعتقد أنّه غضب من نفسه لإظهاره عواطفه أمامي هكذا. بإمكانك توقع ذلك منه، فهذا هو "ألتان".

Twitter: @ketab_n

4

ورشتي عبارة عن جزء من الغرفة الكبيرة المقابلة للحديقة؛ حيث تنتظر الجيتارات دورها للإصلاح بجوار الترابيزة. في تلك الأيام كان لديَّ مريض آخر غير جيتار "نهاد آبي" الأحمر، وجيتار سمسمار البورصة الأبيض، كنت سأغير مشط تنظيم الأوتار لجيتار صديق لي يعزف للسياح في عطلات نهاية الأسبوع في برج "جالاتا".

أحب الجيتارات، وكنت سأحبها ولو لم أتعلم العزف عليها، فلديها شكل يتلاءم مع الجسد البشري، وكما قال "أورهان" ذات مرة:

- هناك هندسة رائعة في أشكالها.

بدأت شغل الصيانة هذا لأنني اضطررت له بعد طلاقنا. لم أعد قادرًا على العزف مجددًا. كان الجميع يريدونني للعزف معهم. لم تكن لديَّ نزوات، لم أشرب في تلك الأيام، وكنت أتشبث بأي شيء يُطلب مني وأنفذه في الحال، إن كانت موسيقى "جاز"، فلتكن "جاز"، إن كانت أغاني شعبية، فلتكن أغاني شعبية، ولم أحلم بأشياء رائعة مثل العزف في ستاد "ويمبلي" يومًا ما، لهذا كانوا يحبونني.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم ما، انتقلت لأسكن في شقة تحت شقة "عائشة" و"أورهان". جمعت بعض الأشياء، وبنيت الورشة، وبدأ صديق ليْ يمتلك ورشة بالفعل في إرسال الأعمال التي لا يقدر عليها ليْ.

كنت قد طلقت "نازلي" للتو، على الأقل أبعدتني تلك المهنة عن الشرب.

عندما عدت إلى المنزل، وجدته مرتبًا، ومن الرائحة أستطيع القول بأن المطبخ تم رشه بمبيد حشري، للحظة اعتقدت أن خادمة التنظيف تنازلت عن طلب الزيادة وعادت لتنظيف المنزل، ولكن هذا مستحيل، لأنني أخذت منها نسخة المفتاح الإضافية.

فتحت "عائشة" باب شقتها مرتدية بدلة نقَّاش، كانت هناك بقع بنفسجية على وجهها، نادتني:

- "محمد"، تعالَ وانظر ماذا فعلت!

رائحة الدهان الجديد كانت تفوح من المنزل، والأثاث كله مُكدس في الغرفة الخلفية، ووقف سُلَميّ في منتصف الغرفة، والجرائد مفروشة على الأرضية، وتلونت معظم الحوائط بالبنفسجي.

- ما رأيك؟

- إنه ليس بالطقس المناسب لأعمال الدهان.

- يعني لم يعجبك؟

- لم أقل ذلك، ولكن عادةً لا نقوم بالدهان والجو يمطر...

- اليوم ممطر، أمّا غدًا سيحدث شيء آخر، من الأفضل عدم التأجيل، أخذت سُلَّمكَ دون استئذانك، أرجو ألا تغضب.

Twitter: @ketab_n

- لا.

لا أستطيع الغضب منها.

- لنرَ ما سيقوله "أورهان" بشأن البنفسجي.

- ليقل ما يحلو له، فلم يعد هنا، أليس كذلك؟

"أورهان" الذي غادر، والدهان البنفسجي... لم يكن الموقف طبيعيًا، نظرت في عينيها وسألتها مبتسمًا:

- أترغبين في التحدث؟

- عن أي شيء ستحدثني؟

- هل تحدثتي مع زوجكِ اليوم؟

- أعتقد أنكَ لا تفهم.

قالت ذلك وهي تحرك جفنيها سريعًا:

- رحل صديقكَ، لقد تركني.

أخذت كرسيين من الغرفة الخلفية وأحضرتهما إلى غرفة المعيشة. شقتهما أكبر من شقتي بغرفة، وفي الطابق العلوي، تعيش "تشاموران هانم" مع قططها التسع، كانت المرأة تفكر في الوقت المناسب لهدم المنزل، وسوف تصبح هذه مشكلة أخرى بالإضافة إلى كل ما يحدث الآن.

- لماذا لم تذهبي إلى العمل؟

- أعطيت لنفسي إجازة.

- من أجل الدهان أم من أجل التنظيف؟

ضحكت وأجابت:

- في الحقيقة، من أجل الدهان، ولكن الفوضى عَمَّت منزلك أيضًا.

- لننتظر حتى المساء، وحينها قد نقوم بعمل شيء ما، هل أخذ متعلقاته؟

- اسمع "محمد"، إننا أشخاص بالغون، أليس كذلك؟

- إنكِ تعلمين كم يحبكِ، هذا ظرف مؤقت، بسبب بطالته.

- هناك الكثير من العاطلين حولنا.

- اعتبري ذلك اختبارًا.

- لست تلميذته يا "محمد".

- الاختبار لكما أنتما الاثنين، تحتاجان إلى أن تكونا معًا حتى يعطي كل منكما مفتاح حل الامتحان للآخر.

كان ذلك بلا طائل، لقد اختفى مصدر مشاكلها الأساسي وتريد المسكينة أن تروح عن نفسها قليلاً.هكذا دائمًا ما تكون البداية؛ حيث تشعر المرأة بأن حملاً كبيرًا قد رُفِعَ عن كتفيها.

مسحت يدها بقطعة قماش بها مُذيب للدهانات وسألتني:

- هل أنت جائع يا حَمَلي الصغير؟

هكذا تتحدث مثل الممثلين في الأفلام القديمة عندما تحب أن تُرفِّه عن نفسها.

- لا أعلم، في الحقيقة لم آكل شيئًا طوال اليوم.

- يا مسكين.

قالتها بصوت الممثلة "عدالة جيمشوس" وأكملت:

- سأحضر لكَ وجبة استثنائية، وبما أن الظروف هنا غير مناسبة، سأذهب إلى منزلك، فسامحني إذا سمحت على جرأتي.

Twitter: @ketab_n

كانت ثلاجتي فارغة، حيث رمت "عائشة" اليوم ما تبقى من الإفطار السابق، ومن دون تلك البواقي، أصبحت ثلاجتي أكثر بؤسًا. صعدت "عائشة" مرةً أخرى، ومعها عدة أكياس، والمياه تتساقط منها.

قالت شاكية:

- هذه الأمطار الكثيفة غير طبيعية.

- ما هذا؟

- إنها من المطعم، شرائح دجاج، ولحم ضأن مشوي، وبطاطس مهروسة، وسلطة روسية، وجبن أبيض... أعتقد أننا سنجد بينها شيئًا نأكله.

كنت قد قضيت شهورًا من دون أن أشرب نقطة خمر واحدة، لم يكن هناك سبب جيد وراء ذلك، ألم يترك "أورهان" ما يكفي من خمر؟

- توجد كولا أيضًا إن كنت تريد.

- حسنًا.

أجبتها وأنا أشعر بخيبة الأمل:

- سأشرب كولا إذًا.

5

فتح "فيلي" الباب بعد أن رَنَنْتُ الجرس خمس مرات، مرتديًا بنطلونًا جلديًا ضيقًا جدًا موضة الثمانينيات، وتي شيرت شاحبًا عليه رسمة لفريق "ليد زيبلن"، شعره طويل ومجعد، وعيناه محتقنتان، اعتقدت أنه قد استيقظ لتوِّه.

رحَّب بي قائلاً:

- أستاذ! مرحبًا، لحظة أرش وجهي بالمياه.

"فيلي" شاب مرح، لا بد أنه في منتصف الثلاثينات من العمر، يعيش في "شيشلي"، في شقة أثاثها موضته قديمة، لم أستطع اكتشاف من أين يعيش، لديه سجل مجمع لمئات من جيتارات الـ"LP" والـ"Les Paul"، لم أقابل في حياتي شخصًا ذا موهبة ضئيلة جدًا في الموسيقى مثله.

- أستاذ! انظر، تلك المجموعة من نفس نوع أعمالك، فلنرَ إن كنت تذكرها؟

ضغط على زر التشغيل في جهاز التسجيل، وملأت الموسيقى الغرفة، صريرًا والكثير من الصفير، أعتقد أنه فريق "كوين".

- "كوين"؟

Twitter: @ketab_n

– نعم! تم تسجيل حفلته بطريقة غير قانونية وبيعت اسطواناتها، لن تجدها في أي مكان آخر.

من الأفضل لمثل هذا التسجيل ألا يجده أحد في أي مكان، لم يكن الفريق يومها في أحسن حالاته، وبدا صوت "فريدي ميركوري" وكأنه سعال ديك.

سألني:

– ما رأيك فيها؟

– عظيمة.

– سأصنع لك نسخةٍ إن أردت.

– سيكون ذلك جيدًا جدًا.

أعمل مع "فيلي" منذ ستة أشهر، ولم نحقق أي تقدم، فلم نُنهِ بعد التمارين الأساسية.

– هل بإمكاننا البدء ببطء؟

– بالطبع، إن أصابعي تأكلني بالفعل!

مشكلة "فيلي" أنه يحب أن يلعب دور الموسيقي بدلًا من أن يصبح هو نفسه موسيقيًا. أتخيله وهو ممسك بالجيتار وينظر لنفسه في المرآة.

تدربنا لمدة ساعة ونصف، في الحقيقة قام بأداء تمارين الأصابع بهمة جيدة، وتَصَفَّحت أنا مجلات الموسيقى التي وجدتها على الترابيزة الصغيرة.

– هذا التمرين يجهدني.

– ولكن عليك أن تقوم به.

ملأت وجهي ابتسامة جعلتني أفكِّر في أنني أبدو فعلًا كالأستاذ.

Twitter: @ketab_n

- هل تقوم بالتمرين في أوقات فراغك؟

- لا.

- وماذا بعد؟

- إذا ما قمت بالتدريب في أوقات فراغي، لأصبحت الآن في قاعة الحفل، ليس في غرفة معيشتك.

نظر إليّ شزرًا، تأثر بطريقة كلامي تلك، وأعلم نقطة ضعفه، فعدت إلى قراءة المجلات.

قال ليْ وهو مستمر في عزفه الممل على الجيتار:

- أسمعتُ صديقًا لي ألبومك.

- وهل ما زال على قيد الحياة؟

- لقد أعجبه بشدة. أبوه تركي، وأمه فرنسية، ويمتلك خاله شركة تسجيلات في "مارسيليا"، بالطبع يرى الترتيبات معقدة، ولكن إذا ما طالبناه بذلك، سيفاتح خاله.

- من أجل ماذا؟

- ألا تريد أن تصدر ألبوماتك هناك؟

لم تسمح لي حدود خيالي أن أفكّر في شركة تسجيلات بـ"مارسيليا"، فقلت:

- حقًا؟! إنني مشغول هنا للغاية.

- فكّر بالأمر على أي حال، إنه ولد جيد، هل تستطيع الغناء بالفرنسية؟

- سنغني بالصينية إذا ما توجب علينا ذلك، لا تجعل معصمك ثقيلاً هكذا وأنت تعزف.

Twitter: @ketab_n

يومها ظهرت الشمس أخيرًا بعد كل هذه الأمطار. كانت الشوارع هادئة، لا بد أن كل واحد في عمله أو وظيفته الآن. وأثناء تجولي في الشارع، نظرت إلى المباني المغطاة بواجهات زجاجية عاكسة، حيث تزداد أعدادها بلا توقف، لم أعمل أبدًا في مثل تلك الشركات، وإذا سار العالم كما أريد لما فعلت، ولكنه لن يسير كما أريد، وفجأةً، شعرت بإشراقة بداخلي، وخطر على بالي أن أذهب لتناول الغداء في مطعم "عائشة".

بمجرد أن رأتني، صاحت:

- انظروا من جاء إلينا، يا له من شرف!

- الشرف لي أنا.

أجبتها وأنا ممسكٌ بإناء نبات ذي أوراق كبيرة اشتريته من "شيشلي"، اعتقدت أنه سيكون مناسبًا للمناسبة والمكان، أخذت النبتة وهي تبتسم وقبلَّتني على خدَّيَّ، كانت ترتدي قميصًا أبيض و بنطلونًا فضفاضًا أسودَ، جعلها تبدو مثل "جين سيبيرج" في فيلم "في نهاية النفس"، وبما أن الطقس جيدٌ، فلقد وضعوا عدة ترابيزات على الرصيف، جلسنا على إحداهن.

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟

- أردت أن أسأل عن "أورهان"، هل لديكِ أي أخبار؟

- لا شيء.

- هل علينا أن نقلق؟

- اقلق أنت، سألحقك بك فيما بعد.

- ربما نذهب إلى الشرطة، إنني فقط أطرح كل الاحتمالات.

رفعت يدها وأشارت إلى المرأة التي كانت تتحدث مع الجرسون بالداخل، اقتربت منا المرأة وهي تمسح يدها في مريلتها.

قدمتنا "عائشة" إلى بعضنا:

- هذه "صفية"، وهذا "محمد" الشهير.

ابتسمنا إلى بعضنا، "صفية" ذات عيون تنظر إليك بارتياب، تبدو أكبر من "عائشة" بسبع أو ثمان سنوات، من الصعب تصديق أنهما كانتا صديقتيّ دراسة منذ المرحلة الثانوية.

- أتذكرين فرقة "السفن الصامتة"؟

-"السفن" ماذا؟

أجابت "صفية" وهي تنظر إليَّ وكأنني سأرحل من دون دفع الفاتورة.

- أتعلمين، لقد أتوا إلى مدرستنا لإحياء حفلة يومًا ما، وكان "محمد" هو عازف الجيتار بينهم، والآن هو جارنا، ويسكن بالطابق الأسفل لشقتنا.

مطعم "هانيميلي" هو أحد المطاعم المصطفة بين مبنيين لبنكين كبيرين، وهو مكان جيد، يشعرك بالراحة؛ حيث ترى فتيانًا بكرافتات وفتيات في رداء العمل الأنيق، يأتون لتناول الغداء. اخترت شيئًا من قائمة الطعام التي أعطاها الجرسون لي، آملًا أن يكون ما طلبته "سباجتي".

- تحسَّن هذا المكان كثيرًا عن آخر مرة زرته فيه.

- يا "محمد"، لقد زرته مرةً واحدة فقط.

قالت ذلك أثناء دخولنا إليه، فقلت:

- حسنًا، إنني كاذب.

- أعطني سيجارة إذن.

Twitter: @ketab_n

فتحت جيب حقيبة الجيتار وأخرجت العلبة، واستغرقت وقتًا في البحث عن ولاعة. كنت أرتدي بنطلونَ باجي الجبال متعددَ الجيوب، والجيوب الكثيرة تجعل الحياة أصعب لا أيسر.

وأثناء نفخها لدخان السيجارة باتجاه الشارع قالت:

– عزيزي "محمد"، مؤخرًا، لم نعد كما كنا، لم نعد نفتقد بعضنا البعض، لا أريد أن أبحث عنه، فلنتركه يَعِشْ كما يحلو له، فليس من المفيد لأي منّا أن نستمر في تلك العلاقة.

– حسنًا، إذا كنتِ ترين ذلك...

6

قرابة موعد الغداء يوم الأحد، توقفت لالتقاط "إزجي"، بدت أمها جميلة، كانت ترتدي إحدى بلوزاتها التي تناسبها، ينسدل شعرها البني غير الممشط على كتفيها، وساعد لون قميصها على إظهار شعرها أكثر. لم أتعرف على تنورتها الخضراء ذات الشراشيب أو صندلها قصير الكعب، لا بد أنها قد اشترتهما بعد طلاقنا.

- ماذا ستفعلان؟

أجبت وأنا أنظر إلى "إزجي":

- لا أعلم، ماذا سنفعل؟

- فلنذهب إلى المراكب.

- فليكن كذلك إذن.

ثم التفت لـ"نازلي" قائلاً:

- سنكون عند المراكب!

وبمجرد تحركنا، انفتح باب المصعد وخرج "جميل"، وهو يعمل في شركة تأمين لمدة ستة أيام في الأسبوع، دائمًا ما يكون متأنقًا، حيث يرتدي بدلة داكنة، ولكنه يرتدي الآن

Twitter: @ketab_n

تي شيرت كرة قدم لفريق " فنربخشة"، والذي جعله يبدو كأب الأسرة، ذراعاه محملتان بأكياس من السوبر ماركت، اعتقد أن "إزجي" تحبه، انحنى ورَبَّت على رأسها.

- كيف حالك؟

- كيف يجب أن يكون؟

أجاب وهو يتنهد:

- كالمعتاد، أعمال التأمين لا تنكمش ولا تنمو، هل أخبرتك بأن هناك رجلاً في المكتب يعرف فرقتك.

تمتلئ الشركات بأناس يعرفون فرقتنا:

- يا للمفاجأة، اعتقدت أن شركات التأمين توظف الناس العاديين.

ابتسمنا إلى بعضنا بخجل، لم يكن بالرجل السيئ، ولكنَّ هناك توترًا بيننا كأمر طبيعي، اتجه بأكياسه إلى "نازلي" التي كانت تراقبنا وهي واقفة عند الباب، لوحت لـ"نازلي"، ودخل هو إلى المنزل، وانغلق الباب.

نزلنا من التاكسي أمام مراكب مطعم السمك الراسية في "ينيكوي"، اخترنا إحداها وجلسنا على ترابيزة على السطح، كان الجو باردًا، ولكنه مشمس نوعًا ما. تمر الشاحنات علينا من على بُعد، وفي كل مرة نستمتع بحركة المراكب الصغيرة بسبب الأمواج التي تعقب مرور الشاحنات بفترة قليلة، وعلى طريق الساحل كان هناك هدوء يدفع بالمرء إلى الاعتقاد بأن هذا الأحد سوف يستمر للأبد.

- كيف الحال؟

- جيد جدًا.

تحاول أن تنزع الشوك من سمكة "المياس" التي في طبقها، فتركتها تسوى هذا الأمر بنفسها، فهي لا تحب أن يتدخل أحد في شئونها.

Twitter: @ketab_n

- كيف حال المنزل؟

- أمي متوترة قليلاً.

أعلم أن عمل "جميل" لا يسير على ما يرام، ولست متأكدًا من كوني أريد أن أعلم المزيد عن ذلك، لم يكن من المناسب أن أحاول نزع المعلومات منها، فـ"نازلي" امرأة تعلم كيف تواجه الأمور بشجاعة، كانت ستخبرني إذا كان بمقدوري فعل شيء ما.

- أبلة "عائشة" ترسل لكِ تحياتها.

- و"أورهان آبي"؟

- وهو أيضًا، أخبراني بأن أقبلك على خديك، وأن أعتصركِ بين ذراعي.

- أوه لا، لن تفعل!

- سنرى!

دائمًا ما نسلك المسار نفسه، فعندما يكون الطقس جيدًا، نبدأ في التمشية ولا نتوقف حتى نصل إلى "إستينيه"، وعندما تتعب، أحملها على ظهري، كان وزنها يزداد كل أسبوع، وكانت تلك هي طريقتي لمعرفة نموها، وهناك شيء ما آخر بشأن تمشيتنا سويًا يجعلني أشعر بالراحة، فعندما تكبر وتصبح فتاة بالغة، وتتمشى على البحر ويدها في يد رفيقها ذي حب الشباب، ستنظر إلى الصيادين وهم يشربون الخمر أمام مساكنهم على شاطئ البحر، وحينها ستتذكر أباها، فنحن نصنع الذكريات بهمة، وذلك بفضل حكم المحكمة الذي أعطاني ظهيرة يوم الأحد لأراها فيه، في ذلك اليوم الثلجي عندما ذهبنا إلى جلسة النطق بالحكم.

- فلنتوقف هنا.

- حسنًا.

Twitter: @ketab_n

وافقت فورًا، فهي القائدة، جلسنا على دكة.

- ستتزوج أم "سمجي".

- أوه! حقًا؟

- ولكنها ليست سعيدة بذلك.

- من؟ أمها؟

- لا، "سمجي".

- لماذا؟

- لا تحب الرجل الذي ستتزوجه أمها.

- وما مشكلته؟

- تقول إنه كبير جدًا.

- هل هذا مهم؟

- ألا تعتقد هذا؟

- لا يبدو هكذا.

- ولكنها تقول إنه يشبه جدها.

قالتها وهي تقهقه، فقلت:

- جيد، الآن سيكون لها جدان.

انتهى اليوم مبكرًا عن المعتاد لأن المطر بدأ بحلول المساء، وعندما فتحت لنا "نازلي" الباب كنا ننقط وغارقين في البلل، فصرخت:

- انظرا إلى نفسيكما، لماذا لم تعودا في الحال؟

Twitter: @ketab_n

- لم نجد تاكسي.

ولم يكن في استطاعتنا إيجاد تاكسي بالفعل.

- ادخل خمس دقائق، سأعطيك شيئًا جافًا ترتديه.

لم أرد أن أرتدي أي شيء من مقتنيات "جميل" سواء كنت مبللًا أم جافًا:

- التاكسي في انتظاري، دعيني أعد للمنزل قبل أن يشتد المطر.

- حسنًا، اعتني بنفسكَ.

- حسنًا، حسنًا.

تمشيت على الأرصفة واضعًا يديّ في جيوبي، عندما حل الظلام، بدأت السماء تهطل فجأة، ولاحظت أنني ضللت الطريق، فـأنا لا أستطيع تحديد اتجاه منزلي وأنا في"فوليا". لجأت إلى مظلة مدخل عمارة، وانتظرت حتى مللت من الانتظار، والمطر لا ينوي أن يتوقف. خرجت واتجهت إلى أول طريق منحدر قابلني، ربما يقودني إلى شاطئ البحر.

وفجأة انتابني شعور لا أحبه، شعور بأن الأشياء كانت ستختلف لو قمت بأفعال مختلفة في الماضي، لم أعرف بالضبط ما هي تلك الأفعال، لكن كان هناك خصوم عديدون، كان بإمكاني أن أستمع إلى نصيحة والد "نازلي" وأنتقل إلى "أنقرة"، كان من الممكن أن أمتهن وظيفة منتظمة وثابتة، كان بإمكاني ألا أقول ما قلته يومها...

كانت تلك هي أزمة مساء يوم الأحد، وددت أن أسكر، ولكنني فكرت في أنه لا يتوجب عليَّ فعل ذلك، ثم خطر لحن على بالي، صفرت به عدة مرات، وانساب معي بشكل طبيعي، ولكنني لم أعره اهتمامًا كبيرًا، وتساءلت مِنْ مَنْ أو مِنْ أي أغنية اقتطفت ذلك اللحن.

Twitter: @ketab_n

7

يقع منزل "نهاد آبي" في "كورتوش"، في شارع جانبي ضيق، يُشعرك صعود المطلع الذي يبدأ من الشارع الرئيسي وينتهي عند باب شقته بمدى تأخر عمرك، حيث ألهث عندما أصل إلى باب شقته في كل مرة أزوره.

كنت أذهب للمنزل مرةً أو مرتين في الأسبوع، لأروي الزرع وأطعم "بيبر" ذات المنقار الأحمر كلون الفلفل الحار. لديها بقع برتقالية على خديها، ودائمًا ما تعجبني البقع البيضاء الناصعة على ريش جناحيها البني الداكن، والتي تُشعرك بأنها نتاج فرشة فنان رفيعة. في الواقع أدركت أنه يتوجب عليَّ أخذها معي، ولكنني لا أستطيع فعل ذلك، فأنا لست مستعدًا لمثل تلك الأعمال بعد.

كانت السماء تظلم بالخارج، وضعت شريطًا للمغنية "LP" في التسجيل، أذكر أن "نهاد آبي" كان يحبها جدًا، ثم بدأ "أركين كوراي" في غناء "الوقت مر..."، لم أفتح أضواء المنزل. كان ضوء مصابيح الشارع يتخلل الستائر التي اصفرت من دخان السجائر. يوجد كلبان ينبحان في الشارع، فتحت زجاجة "الراكي" نصف الممتلئة التي جلبتها معي، ونظرت إلى الصور الملصقة على لوح خشبي خلف جهاز التسجيل، ورأيته يعزف خلف "سيزين آكسو"، ويهرج مع "جولدان كارابوجيك"، ويصارع "شيم كاراجا".

Twitter: @ketab_n

كان لـ"نهاد آبي" طريقة مميزة في العزف، كان أعسر، فكان يمسك الجيتار بالمقلوب، حيث تكون الأوتار الأساسية في الأسفل، وعندما يعزف تخرج أصوات نعجز جميعًا على إخراج مثلها من الجيتار، صوت عميق يصل إلى أعمق أعماق روحك.

عند انتهاء الوجه الأول من شريط "LP"، كنت قد شربت المتبقي من زجاجة الخمر. كان هناك ثلاثة أدراج في الغرفة، واحد تحت جهاز التسجيل، واثنان تحت المكتبة. عندما فتحت الأول، فاجأني تنظيم "نهاد آبي"، فكل الفواتير مجمعة في ملف بأناقة، وكل فاتورة مُلحق بها فاتورة تسديدها، وثلاثة مثلثات صغيرة لعزف الجيتار داخل وعاء صغير، تآكل سطحها البلاستيكي من كثرة الاحتكاك بالأوتار، وبجانب الوعاء، كان هناك شيء وجدت صعوبة في إدراك أهميته لـ"نهاد آبي"، صفارة تشبه الصفارة التي يستخدمها حكام كرة القدم، وعلب كوتشينة، وعدة حلقات مفاتيح.

وجدت ما أبحث عنه في الدرج الثاني، أخرجت سجل تليفونات سميكًا مربوطًا ذا غلاف جلدي أحمر، ووضعته على السرير، لم تكن هناك أرقام كثيرة به، ما كتبه كانت فقط الأرقام التي يحتاجها في حياته اليومية، عامل الغاز، محل البقال على ناصية الشارع، وهكذا، ولكنني متأكد من أن أرقامه الخاصة مسجلة في سجلات أشهر الموسيقيين، وهذا ما يجب أن يكون، فـ"نهاد آبي" شخص مطلوب، يطلبونه لإحياء الحفلات، فلم يكن عليه أن يتصل بأحد.

كان رقم أخيه مكتوبًا في الغلاف الخلفي بقلم حبر، وكأنه مكتوب بسرعة بقلم وجده في اللحظة الأخيرة، نظرت في جيوبي وحولي، ولعب الحظ لعبته، فلم أجد قلمًا.

عدتُ إلى منزلي بحلول منتصف الليل، أتأبط سجل تليفونات "نهاد آبي" الأحمر، أصابني"الراكي" بالصداع، كان ذهابي إلى منزله وشرب "الراكي" والاستماع إلى "أركين كوراي" شيء جيد لأذني، ولكنه لم يكن جيدًا أبدًا لمعدتي،

Twitter: @ketab_n

كان منزلي باردًا، ولم أرد أن أكون وحدي، فخرجت إلى الحديقة ونظرت، ووجدت النور مضاءً في الطابق العلوي.

سألتني "عائشة"، وكانت قد استيقظت لتوِّها.

- هل شربت؟

- كأسين صغيرين فقط.

- أنت سكران، أعتقد أنك شربت كمية لا بأس بها.

- كأسين... فقط كأسين، حقًا.

تركت الباب مفتوحًا ودخَلت شقتها. نظرتُ إلى الشقة، فوجدت اللون البنفسجي ظاهرًا، ولكن الأثاث عاد إلى مكانه.

نادتني من المطبخ:

- اغلق الباب، لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا في تدفئة المنزل.

جلستُ على الكرسي بجانب النافذة، لسبب ما، كانت تلك هي بقعتي المفضلة في المنزل، حيث أستطيع رؤية الحديقة من زاوية مختلفة، ناديت على "عائشة" حين لمحت ظلها في المطبخ.

- هل تحضرين القهوة؟

- ألا تريد قهوة؟

بعد فترة قصيرة، عادت بفنجان قهوة وصفحة مقطوعة من مذكرة مربعة الشكل ووضعتها أمامي، لاحظت فيها خط يد "أورهان".

- عاد إلى المنزل وأنا في الشغل، أخذ متاعه، وترك لي هذه الورقة.

- هل يجب أن أقرأها؟

Twitter: @ketab_n

- إن لم يزعجكَ هذا... فهي كلمات قليلة على أي حال.

لن يزعجني شيئ متعلق بـ"عائشة" أبدًا. فتحت الورقة، وقرأت خط "أورهان" الرائع المائل:

"عائشتي..

أعتقد أنه من الأفضل ألا نصطدم ببعضنا، أليس كذلك؟

تعلمين جيدًا بأننا أخذنا هذا القرار معًا، نعم لم نصرح بذلك، ولكن ألم يكن سلوكنا وتحديقنا لبعض نوعًا من الحوار؟

وفي الوقت نفسه، هناك شيء عليَّ القيام به، وأفضِّل أن أقوم به بنفسي، سأكون مرتاحًا أكثر هكذا، دعيني أكتب لكِ تلك الأبيات، لأوضح الأمر أكثر:

" أنا ثمل للغاية..

لا أدري ما يدور في العالم..

لا أعلم من أنا..

لا أعلم من يصب لي الخمر..

ولا أعلم حتى نوع الخمر.."

إنها لطيفة، أليست كذلك؟ اقتبستها من "فضولي البغدادي"، وتناسبني تمامًا.

اعتني بنفسكِ جيدًا، وكوني سعيدة، فالأمر ليس بتلك الصعوبة لأي منّا.

حبيبكِ:"أورهان".

تركتُ الخطاب، وعَلَّقت:

Twitter: @ketab_n

- هذا هو أسلوبه بالضبط.

وماذا عساي أن أقول غير هذا؟

- صديقُكَ مغفل جدًا.

- أتعرفين ما الذي يحتاج فعله؟

- لا تأخذ كلامه بمحمل الجد، فهو يحاول فقط أن يكون غامضًا.

- ماذا لو كان بخاطره شيء أحمق؟

- لن يقدم على هذا.

- أمتأكدة؟

- نعم، متأكدة، يريد فقط مضايقتي.

- وهل أنتِ متضايقة فعلًا؟

لم تجبني، لم أدرِ بأي إجابة كنت سأسعد. كانت تحملق بعقل غائب سجل التليفون الأحمر الموضوع على الترابيزة، وكالمستيقظة من نوم عمي هزَّت كتفيها استهجانًا، ونهضت ودخلت المطبخ.

- لا بد أنكَ جائع، سَأُحضر لكَ شيئًا.

8

استيقظت قرب الظهيرة على صوت رنين التليفون، كان صوت "ألتان" مبهجًا، لم يسألني عن أخو "نهاد آبي" في بلجيكا، بل أخبرني أنهم كانوا ذاهبين إلى "أضنة" لإحياء حفل عطلة نهاية الأسبوع، ولكن زوجة عازف الجيتار بفرقتهم أنجبت، لذلك فهم يحتاجون إلى بديل، وظن أنني من المحتمل أن أبدي اهتمامًا؟

- من أين تأتي بهذه الكلمات؟

- أي كلمات؟

- "أبدي اهتمامًا" على سبيل المثال، آمل ألا يضايقك قولي هذا، ولكنك تتحدث بطريقة مضحكة كلما كبر سنكَ.

- لا تجعلني أندم على اتصالي بكَ، لقد فكرت قبل أن أكلمكَ، حسنًا؟ أخبرتهم بأنه في استطاعتك التأقلم خلال جلسة بروفة واحدة، والبروفة يوم الأربعاء المقبل!

- ولن أعزف السيمفونية التاسعة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، مجرد بعض المقطوعات السخيفة.

- ماذا ستعزف؟

Twitter: @ketab_n

- الإيقاع معي، نحتاج عازف جيتار منفردًا.

مر عامان منذ آخر حفلة أحييتها:

- حسنًا، لكن هل تعتقد أنني جاهز لذلك؟

- ستقوم بها أفضل مما سبق.

أعاني من صداع نصفي:

- إنني نائم الآن، سأتصل بك فيما بعد؟

- معك حتى المساء لكي تقرر، وإلا سيحضرون شخصًا آخر.

تمر عليك أيام لا تريد فيها أن تنخرط في الحياة، أن تدع وحل الحياة ينصرف في قناتها من دون أن يلمسك، فلو خرجت ستحمل وزن السماء على كتفيك، تلك الأيام مثالية لعازف جيتار قديم لكي ينعم بالشفقة على نفسه.

تَلَوَّنَ معظم السماء بالأزرق، ولكن عندما نظرتُ لأعلى، رأيت السحب الرمادية تقترب، الشمس شاحبة، وبدت على حافة الرحيل وتركنا، فالجو البارد هو المسيطر خلال الأسبوع، تلك هي الأوقات التي كانت تشتكي فيها أمي من عدم تجهيزنا للموقد بالفحم اللازم، حاولت أن أتخيلها ممسكة بالغليون لتوبخنا. أصبحت تلك العملية صعبة جدًا بالنسبة لي، حيث يتلاشى شكل وجه أمي من ذاكرتي كل خريف، من المحتمل أن تصبح طريقتي الوحيدة لتذكرها هي إطالة النظر إلى وجهها في الصور.

قدمنا حفلاً في "إزمير" منذ خمسة عشر عامًا. كان لـ"ألتان" في تلك الأيام طاقة لا تكل ولا تمل، كان يؤلف الأغاني، ويُعد الترتيبات، وكانت له أحلام، وعندما واجهنا المقاعد الزرقاء الخالية في قاعة الحفل، كان أكثرنا صدمة. وعندما عدنا للكواليس عقب العزف لعشرة أو خمسة عشر فردًا مكومين في الصف الأول، رأيت "ألتان" ينظر صامتًا لنفسه في المرآة.

Twitter: @ketab_n

في الكواليس، ساد الهدوء، أكثر مما هو متوقع من مجموعة صاخبة مثلنا، جلسنا على الكراسي البلاستيكية بشكل يدعو للرثاء، واعتذر منتجو الحفل عن عدم استطاعتهم دفع الأجر الذي وعدونا به، ولكن إذا ما سألت "ألتان"، لن تجد شيئًا تأسف عليه، سنتذكر هذا اليوم فيما بعد، ونضحك عليه أثناء ركوبنا سيارات "الرولز" ودراجاتنا البخارية. لاحظت ببطء سبب ابتعاد "ألتان" عني، لديه منظور مختلف للنجاح، ويؤمن بشدة بأنه إذا ما كان صبورًا بالقدر الكافي، فإنه سوف يلمس النجوم في النهاية.

بينما أنا، كل ما أردته في هذه الحياة أن أفعل ما يُرضي أمي ويسعدها. لا أظن أن كوني مشهورًا في مجال الموسيقى بالتحديد كان سيسعدها، ولكنني أردت أن أرى على وجهها أى تعبير آخر غير الحزن. كان من الممكن أن أصبح رجل إطفاء على سبيل المثال، كان عليَّ أن أقتحم اللهب وأعود حاملاً طفلاً على ذراعي. في تلك الأيام فكرت بأن شيئًا مثل ذلك قد يسعد أمي بالفعل، كنت ألوم نفسي على عدم استطاعتي القفز إلى ألسنة اللهب، كنت ألوم التيارات الكهربائية على عدم احتراقها وتسببها في الحريق المناسب.

ولكن عقب سنوات عدة، وعندما أفكر فيما كان، لم أتأكد من أن ذلك الحزن - الذي لم يترك ولو للحظة واحدة تلك المسكينة التي تفرش سجادة الصلاة في الغرفة الصغيرة - امتد ليشملني معها، فربما كانت التعبيرات الدائمة على وجهها تعبيرات وراثية، وكأن ذلك الحزن يتخطى الأجيال ليندفع خلفي، ولهذا أردت أن أعزف الجيتار علّني أهرب منه، فبمجرد أن تعزف قدرًا من الموسيقى على خشبة المسرح، تسرح معه، ويختفي القلق والحزن.

وبحلول المساء، اتصلت مرتين بالرقم الدولي المدون في نوتة تليفون "نهاد آبي"، ولكن لم يجبني أحد، بعدها بدأت أنزعج من هذه النوتة، ولم أرد قضاء ليلة أخرى وهى بحوزتي، فأخذتها وخرجت، وألقيتها في أكبر صندوق قمامة في نهاية الشارع، ومثل مجرم ينتظر قدوم فرقة المفرقعات، اندفعت عائدًا إلى

Twitter: @ketab_n

منزلي بخطوات سريعة، مرتعشًا ومنفعلاً، وشعرت بتحسن كبير عندما جلست على الفوتيه المقابل للشباك.

وعندما أظلمت السماء، شعرتُ برغبةٍ في الشرب مرةً أخرى، فذهبت إلى البقال واشتريت علبتي بيرة، شَغَّلت شريطًا تحبه "عائشة" وابتلعت نصف علبة البيرة دفعة واحدة، ثم اتصلت بـ"ألتان"، وطلبت منه أن يرسل لي برنامج الحفل.

- ألن تعطيني شريطًا لـ "إلفان" لأسمعه أو شيئًا كهذا؟!

اختفت الحفاوة من صوته بعض الشيء:

- اشترِ شريطها على نفقتك!

- اتصلت ببلجيكا اليوم.

- اتصلت، هاه؟ ماذا حدث؟

- لا يبدو أنه مهتم على الإطلاق.

- ابن العاهرة...

- هو كذلك بالفعل!

لم يكن في استطاعتي إلا الموافقة.

- ماذا كنت تتوقع منه وهو لم يسأل عن أخيه لعدة أعوام.

- أنت محق، لا شيء متوقع.

- هل أخبر الشباب بأنك ستكون معنا يوم الأربعاء؟

- حسنًا، أخبرهم، سأتدبر أمري بطريقة ما.

Twitter: @ketab_n

9

تعرّفت "عائشة" على "أورهان" في ليلة ثلجية من ليالي شهر ديسمبر، عاشا قصة لطيفة، سمعتها مرتين، مرةً من كل منهما، بالطبع هناك اختلافات بين الروايتين، ولكن في النهاية تدور القصة حول المشاعر ذاتها التي وقعا في شباكها.

في رواية "عائشة"، نرى كل شيء من وجهة نظر طالبة جامعية، كانت أصغر ابنة لضابط مهم. كان أبوها عقيدًا، وكبقية أقرانه، كان رئيس نادي الجيش الاجتماعي بمدينة "سامسون".

تولت أخواتها الكبريات القيام بالمهام المتعددة، مثل الذهاب إلى مدارس جيدة، والالتحاق بالوظائف المهمة، ولذلك لعبت "عائشة" دور الأخت الصغيرة الطائشة.

أب قوي، وأم حنون جاهزة لتقديم الراحة المحققة للتوازن، وخالان غارقان في أعمال قليلة تتنوع بين تأجير الفيديوهات وبين بيع السيارات المستعملة، وشقيقتان ناجحتان. تلك هي الشرنقة التي انتظرت فيها "عائشة" المفاجأة المتوقعة والضرورية التي تُنعم الحياة بها عليها، المفاجأة التي انتظرتها طويلاً، حدثت على خشبة المسرح في تلك الليلة المثلجة.

تخيلت "عائشة" تحضر عشاء على شرف الضباط، تجلس على الترابيزة مع عائلتها وصفوة كبار الضباط بالقاعة الكبرى لنادي الجيش الاجتماعي.

Twitter: @ketab_n

وعلى يمينها مباشرة، غالبًا ما يجلس أبوها، يتحدث في السياسة مع اللواء الجالس أمامه، كانت "عائشة" تشعر بأنها زهرة زينة يعكر صفوها تفاصيل القادة، تقبل مجاملات زوجة اللواء بطريقة تليق بابنة ضابط، ويصيبها الملل كلما سألها أحدهم عمّا تنتوي فعله بعد حصولها على درجة فقه اللغة، لأنها لم تفكر بشأن هذا بعد.

كان شعرها طويلاً في تلك الأيام، وكان ينسدل على كتفيها ويظهر جليًا وهو مفرود على فستانها الخاص باحتفالات ليلة رأس السنة.

وفي الطرف الآخر من القاعة، يجلس ضباط الاحتياط على ترابيزة مغطاة بسحابة كثيفة من دخان السجائر، وعندما نهض أحدهم يترنح همست لها أمها في أذنيها:

- أليس هذا الشاب وسيمًا؟

وكانت "عائشة" تجيب من دون حتى أن تنظر إليه:

- نعم، إنه شبه "إرول تاش".

- إنه ينظر إليكِ.

- دعيه ينظر.

اتجه ضابط الاحتياط إلى ترابيزة القادة. وبينما يجلس العقيد مستمعًا إلى نكات اللواء الجالس أمامه عن "تورجوت أوزال" فجأةً يحجب خيالٌ ما الضوء عنه، فيُلوِّح بيديه ظنًا منه بأنّه جرسون، ولكن الظل لا يرحل، وعندما ينظر إليه العقيد، الذي يحاول أن يضحك على النكتة بأدب، يجد نفسه في مواجهة ضابط شاب سيفسر ابتسامة العقيد له كبشرة خير.

ويتقدم الملازم الاحتياطي بصوت مفعم بالأمل:

- سيدي العقيد، هل تسمح لي بالرقص مع ابنتك؟

Twitter: @ketab_n

أمَّا في رواية "أورهان"، تجد عاشقًا بائسًا وكسير القلب، لأن "أورهان" الذي أنهى تدريبه الأساسي في "كوتاهية"، وجاء تكليفه في "سامسون" عن طريق القرعة، كان قد تركته خطيبته في رابع شهر له بالخدمة العسكرية، لا أعلم تفاصيل ما حدث، ولكن من نغمة صوت "أورهان" حينما يحكي عنها، تستطيع الجزم بأن هناك خيانة ما حدثت.

وعقب مرور عام في "سامسون"، قضاها في كره كل البشر والبشرية، كان من الطبيعي أن يفعل تلك الليلة ما يفعله أي ملازم مجروح؛ أن يسكر، وقد يُعَرِّفَهُ الصيدلي الشاب الجالس بجانبه على ترابيزة الضباط الكبار، وكان ذلك الصيدلي يحب ذاك الشاب شديد الحزن في الكتيبة.

- أتريد أن نتراهن؟

- على ماذا؟

- ابنة القائد.

- ماذا سنفعل؟ نختطفها؟

- أتستطيع أن تطلبها للرقص.

- وماذا إن لم أستطع؟

- ستصبح مدينًا لي بعلبة سجائر.

أحبت "عائشة" "أورهان"، فهناك أمثلة كثيرة تؤكد ذلك في رواية كل منهما، وشهدت بعض الأمثلة بنفسي، فـ"عائشة" لم تكن بالفتاة التي تستطيع كتم مشاعرها داخلها طويلاً بدون اطلاع العالم عليها.

أعتقد أن هذا ما وجده "أورهان" في "عائشة"، بإمكانها فتح ثغرة للحياة في عقله المعقَّد. احتاج "أورهان" إلى شيء ما يدفعه، و"عائشة" لديها وفرة مشاعر تدفع أي شخص لفعل أي شيء، وربما هذا ما كان يحتاجه "أورهان"،

Twitter: @ketab_n

أن يتعرف على فتاة لن تسمح له بالنظر إلى امرأة أخرى غيرها، فـ"عائشة" لن تدعه ينغلق على نفسه ويقصي العالم الخارجي.

وعند سماعي لقصة تلاقيهما لأول مرة، حاولتُ أن أتخيل أي أغنية كنت سأعزفها إذا ما كنت عضوًا في فرقة نادي الجيش الاجتماعي، وربما بسبب علمي للمحصلة، فكرت في الحال في موسيقى "سمانيول"، وتأتي بها جملة "الحب يستمر في حياتهما"، وهي أغنية سهلة العزف، تعزفها أي فرقة بسهولة.

ولكن لأنني لست بعزَّاف، فَكَّرت فيما بعد في أن أغنية "بورتوفينو" ستكون أكثر ملاءمة لروح الموقف، كنت سأستمر فيها حتى أصل إلى اللازمة الأخيرة القائلة "وجدت حبي في سامسون...".

آه، لا، لن أستطيع، فمهما كان ما يحدث على ساحة الرقص، يجب أن تكون فرقة نادي الجيش الاجتماعي على أهبة الاستعداد دائمًا.

10

يوم الأربعاء، وقبل البروفة، ذهبت إلى "هانيميلي". كنت متوترًا هذا اليوم، لأنها أول حفلة حقيقية أحضرها منذ سنين. وصلت في وقت الظهيرة؛ حيث كان المطعم مزدحمًا، وكانت "عائشة" تحاول تقديم طلبات الزبائن سريعًا حتى لا يتأخروا عن مواعيدهم عقب الغداء، وكانت "صفية" هي من تدير حجز الطلبات، وهي أول من رآني، بدت وكأنها تبذل الكثير من الجهد حتى تبتسم.

جميع الترابيزات مزدحمة، وجدت مكانًا أقف فيه بجوار حاجز منخفض بين المطبخ وقاعة الطعام. كان هناك طابور كثيف بيني وبين الترابيزات، كنت أرى بصعوبة يد "عائشة". كانت تمسك قائمة الطلبات بأطراف أصابعها، وترتفع وتهبط طبقًا لأهمية ما يُقال.

وفي هذه اللحظة، احتجت أن يضربني أحد، ويلقيني من الشباك، تخيلت جسدي يرتطم بزجاج النافذة ويهبط على الرصيف ببطء، وتخيلت "صفية" وهي تميل ناحيتي وتخبرني بأنها ستتصل بالشرطة إذا ما أتيت مرة أخرى، رأيت كل ذلك حيث أقف في مكاني، وكأنني شخص آخر غيري، اندفع الجرسون نحو توأمي الراقد على الرصيف وبصق على وجهه. كنت قد رأيت ذلك الجرسون منذ قليل خارجًا من المطبخ يحمل صينية.

Twitter: @ketab_n

- ألا تجد مكانًا آخر لتقف فيه؟

اختفى المنظر، وبدأت مرة أخرى أسمع الهمهمات داخل المطعم، والموسيقى التي خدشت طبلة أذني منذ لحظة دخولي، كانت "عائشة" تقف أمامي ممسكة بطبق فيه قطعة كعك.

- لا يزال هناك ساعتان على البروفة، ففكرت أن آكل.

- انتظر لحظة حتى ينتهي موظفو البنك ويرحلوا، ثم سأجد لك مكانًا تجلس فيه.

اتجهتْ إلى الركن واختفت هي والكعكة التي كانت تحملها، ثم عادت ومعها جريدة غير مرتبة الأوراق، ووضعت الجريدة على المنضدة ثم عادت مسرعة إلى المطبخ من دون أن تنظر إليَّ نهائيًا. التقطت الجريدة بدون وعي، ووجدت نفسي أتخيل عثوري على خطاب موجه إليّ مخفي بين صفحاتها، حيث سأفتح الصفحة الرياضية بالجريدة ويتطاير منها الخطاب الذي وضعته "عائشة" - كما تتطاير أوراق الشجر في الخريف - ويرسو على الترابيزة، أغلقت عيني وقررت أن أترك مكان الحادث بأسرع ما يمكن، بإمكاني سحب جسدي الوضيع والانخراط في صخب المدينة بعد سؤالي عن أمرين بخصوص "أورهان".

خبط شخص ما على كتفي، التفتُّ وكانت "عائشة" تشير إليَّ بأن أتجه إلى الترابيزة المجاورة للشباك.

في هذه المرة، طلبت أيضًا بيرة مع سباجتي، فإذا ما أخذت رشفتين، فمن المحتمل أن تزول رعشة يدي، وأستطيع أن أعزف النوتة في البروفة بنجاح، في الحقيقة إن الأغاني التي سنعزفها في البروفة ليست بالغة الصعوبة، ولكن لا يزال هناك فقرتان أُصاب بالضيق كلما فكرت في كيفية عزفهما.

Twitter: @ketab_n

كانت "عائشة" و"صفية" والجرسون يحاولون إيجاد الفكة لدفع بواقي فواتير الزبائن في وقتها. مرت هذه المهمة أيضًا بسماع صوت رنين الجرس الذي يحدث في كل مرة ينفتح فيها الباب وينغلق، وقد سمعته سبع أو ثماني مرات، ثم أصبحنا بمفردنا في المطعم، فخلعت "عائشة" مريلتها وجاءت لتجلس أمامي.

- نجونا اليوم.

أخرجت سيجارة من العلبة، وأضافت:

- غدًا يوم آخر.

أشعلت لها سيجارتها بولاعتي وسألتها:

- هل هذا هو حال كل يوم؟

- هذا هو الغريب هنا، الآن سنجلس بلا عمل حتى المساء.

- وماذا تفعلون في كل تلك الفترة؟

- ندردش، فابن صفية ذو السبعة أعوام مريض بسرطان نخاع العظام، تحتاج تلك المسكينة إلى التحدث.

وبكل تلقائية نظرت إلى "صفية" التي كانت لا تزال عند ماكينة الحجز، وابتسمتُ لها ابتسامة لطيفة، فأبعدت عينيها في الحال.

- حسنًا، هل الجيتاريست المشهور جاهز لمقطوعته؟

- لا أعلم، لو كان ذلك منذ خمسة أعوام لكان هذا سهلًا جدًا بالنسبة لي، ولكن الآن، أنا خائف قليلًا، أصابعي واهنة ومرتعشة...

- أرى الخوف واضحًا عليك.

قالتها وهي تنظر إلى كأس البيرة نصف الممتلئ:

- ولكن لا تقلق، سينضمون جميعهم إلى جمهورك.

Twitter: @ketab_n

- الموسيقيون لا يصبحون جماهير لبعضهم البعض.

- سترى، إنهم سيصبحون.

ثم لاحظت أنني لم أكن أستمع إلى "عائشة" وهي تتحدث، لأنني كنت أراقبها، كنت ألاحظ شكل شفتيها وهي تخرج الكلمات، رمشي عينيها، كيف تفتحهما وتغلقهما، الخطوط التي تظهر على جبهتها عندما تعترض على شيء ما...

أمسكت كأس البيرة وأخذت رشفة أخرى، ودعوت ربي ألا ترتعش أصابعي تلك المرة، سيكون من الجيد أن يظهر "أورهان" قريبًا.

Twitter: @ketab_n

11

إذا ما أسعفتني الذاكرة، فإن "خوانيتو" هو من لحّن أغنية "أنتِ حبيبة صديقي"، وفي الحقيقة، دائمًا ما كانت تلك الأغنية تصدمني بنفاقها، حيث يظل الرجل فيها يخبر المرأة باستحالة اكتمال قصة حبهما، وأثناء تصميمه على إخبارها ذلك مرارًا وتكرارًا، تلحظ أن هناك أمرًا ما غير واضح.

وفي الواقع، أشعر بأن بطلنا هنا يعاني بالفعل من آلام حبه، فهو ليس مغفلاً، هو مدرك تمامًا لحجم الشر الذي سيرتكبه، مدرك للخراب الذي سيبني عليه حبه الجديد، ولكن المستمع النبيه سيلاحظ أنه قد قرر بالفعل خوض هذه المغامرة.

وترجمة اسم الأغنية لها تأثير أسوأ بكثير: (امرأة صديقي)، فالمعاني التي تتجمع في العقل بمجرد سماعها تتمثل في مبارزات، يولي كل منهما ظهره للآخر، متلاصقين، ثم يبدآ بالابتعاد، كل في اتجاه معاكس، وهما يرفعان مسدسيهما استعدادًا لإطلاق النار، أو كمائن ليلية في ضواحي القرية، فالرجال يحبون مَنْ يحارب من أجل أراضيهم وجيادهم، ويحبون أيضًا مَنْ يحارب من أجل امرأته.

بينما أنا، لم أمسك سيفًا أبدًا في حياتي، ولديَّ نقص مهارات واضح في استخدام الأسلحة النارية، وفي هذا الوقت لم أدرِ إلى أي مرحلة وصلت حالتي، وخصوصًا في

Twitter: @ketab_n

هذا الموقف حيث إنني لا أحظى بالفعل بأماكن كثيرة أختبئ فيها من "عائشة"، يبدو أنني حوصرت من جميع النواحي، فقررت أن أبحث عن "أورهان".

ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية تنفيذ هذا، فأنا سيئ للغاية في أعمال التنقيب والبحث، إنني من النوع الذي دائمًا ما يتفاجأ في نهاية أفلام الجرائم.

وبعد البروفة، ذهبت إلى شاطئ بحر "فنربخشة" مع "ألتان". طلب شايًا لكلٍ منّا، حيث لا يزال يعتقد أنني لا أشرب الخمر.

- كيف كانت البروفة؟

- جيدة.

- هل علّق أحد على أدائي؟

- بالطبع لا، وهل يجرؤون؟

- أعتقد أنني لم أُتقِن العزف قليلاً.

- لا يا رجل، لقد كنت متوترًا قليلاً، هذا كل ما في الأمر، وهذا عادي كما تعلم.

بدتْ سواري المراكب الشراعية الراسية على شاطئ البحر أمامنا كالغابة ، واحمَرَّت السماء خلفها بشمس الخريف الغاربة، لم يكن هناك زحام حولنا، سعدت بالهدوء الذي يعتريني كلما مررت بهذا الجانب من "البوسفور"، وما كان يزعج أفكاري كان يرقد على الشط المقابل.

ثبَّت عينيه على الفتيات اللواتي تمتلأ وجوههن بالحلقان، الجالسات على الترابيزة المجاورة لنا، وسألني:

- هل زرت "أدنة" من قبل؟

- زرناها سويًا، ألا تتذكر؟

- آه.. نعم.

Twitter: @ketab_n

ابتسم خجلًا، وأضاف:

- لقد ذهب عقلي بالفعل.

"ألتان" موهوب في النسيان، وهذا ما يعجبني فيه، فذاكرتي ستظل حادة حتى لو عشت مئات السنوات، عدم النسيان لعنة.

- سيكون هناك فتيات جميلات في "أدنة".

- أتعني بنات محترفات؟

نظر إليَّ باستغراب، ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها مني مثل ذلك الكلام:

- انتظر، انتظر! هل سيكون لك اهتمام بهن؟

- إنني مُطلق منذ عام، إذا ما قابلت فتاة متمكنة في عملها فلن يكون ذلك سيئًا، أليس كذلك؟

- أتعني أنك لم تقم بشيء مماثل طوال هذه المدة؟

- هل كان مُتاحًا ليَّ هذا ولم أفعل؟

- ماذا عن تلاميذك؟

- أحدهم فتاة كفيفة في الخامسة عشر من عمرها، والآخر رجل مغفل، والآخران عرضة للسقوط في غيبوبة في أي وقت إذا ما شربا الكحول.

- إنني حزين لأجلك.

وكان متأثرًا بالفعل، فأجبته:

- وأنا أحبك فعلاً.

Twitter: @ketab_n

كانت الفتيات يتجاذبن أطراف الحديث، وهن ثلاث صديقات في السادسة عشرة من العمر على الأقل. نظر "ألتان" إليهن أكثر مما نظر إليَّ أثناء حديثنا، خشيت أن يقوم بفعل شيء ما يحرجنا، رفع صوته فجأة، وقال:

- إذا ما أردت رأيي، يجب علينا أن نُحذر "تاركان" من أن يغني تلك الأغنية، فلن تكون جيدة للسوق الفرنسية.

واستمر في كلامه وكأنني أجبته:

- نعم، كما قلت بحق، اعترف هو نفسه بذلك أيضًا، فإذا ما كنت تريد أن تصبح مثل "رشيد طه" فمن الأفضل أن تتعامل وكأنك من الشرق الأوسط، سيصل إلى "إسطنبول" غدًا، سنراه في شركة التسجيلات على ما أعتقد.

ثم اختتم كلامه:

- في الواقع هو رجل لطيف جدًا، على الرغم من أنه يسمح للآخرين بأن يؤثروا عليه.

توقفت الفتيات عن الكلام، لم أرَ وجوههن من مكان جلستي، ولكنني متأكد الآن من استماعهن إلينا، شاركته الحديث، واستغرقنا خمس عشرة دقيقة نتحدث بصوت عالٍ بخصوص عمل "تاركان".

وأثناء اتجاهنا إلى الكاشير لدفع الحساب، مررنا بترابيزة الفتيات، قامت مَنْ تضع حلقات أكثر في وجهها برفع يديها، كانت أكثرهن جذبًا لانتباهي:

- عفوًا، هل تعزفان مع "تاركان"؟

أجابها "ألتان":

- أحيانًا... عندما نتمكن من ضبط مواعيدنا.

- أقصد هل تعرفانه شخصيًا؟

- نقابله مصادفة، هل تحببنه؟

أجابت الفتاة ذات الشعر الأخضر بجانبها:

- لا، ليس من النوع الذي يعجبني، ولكنه شيق.

- نحن مهتمونِ أكثر بفرقتنا الخاصة.

- حقًا؟ ما اسمها؟

- السفن الصامتة.

سألتنا الفتاة مستغربة:

- السفن ماذا؟

لاحظت أنني لبَّخت من نظرة "ألتان" إليَّ، ولكن بعد فوات الأوان، فتدخل قائلًا:

- سيداتي، اسمحن لنا الآن، فلدينا أعمال كثيرة سنقوم بها عقب وصول "تاركان"، وعلينا أن نستريح قليلاً الآن.

كانت سيارة "ألتان" في الصيانة، فأخذنا تاكسي وتركنا الفتيات خلفنا، وعلق "ألتان":

- ربما كان عليك إخبارهن بأن اسم فرقتنا "الفراشات البيضاء".

Twitter: @ketab_n

12

في تلك الليلة، أخذتُ جيتار "نهاد آبي"، وفكرت في ما يمكن أن يفعله "أورهان" الآن، آملًا أن يساعدني الجيتار، فمشاعر الماضي المتأصلة فيه قد تشق لي الطريق.

وحقيقة كونه متخصصًا في الرياضيات، تجعلنا نفكر في أنه سيتصرف وفق خطة، وفي هذه الحالة يسهل إيجاده، ولكن "أورهان" الذي ضاق صدره بالرياضيات وفقد عقله قد يقوم بأشياء غريبة فجأة، فمثلاً ترك المنزل والرحيل ليس من صفاته الشخصية على الإطلاق، إنه يقوم الآن بأفعال غير متوقعة حقًا.

وفي مدينة يبلغ تعداد سكانها خمسة عشر مليون نسمة، سأكون أنا آخر شخص يبحث عن مدرس رياضيات مجنون.

وفي هذه اللحظة، اكتشفت أنني أعزف "سلطانيجة سرتو" على الجيتار، أو بمعنى آخر، كانت يدي هي التي تعزف، وهي مقطوعة يتم عزفها في الأفراح وتُفاجئ العازفين برد فعل الجمهور عليها، حيث تستطيع أن تمزج بين مطالب الجمهور وبين حبك للفن فتنتج أشياء غريبة، و"السرتو" هو ناتج هذا المزج، فنحن نعزفها في الأفراح بطريقة تجعلك تتخيل وكأنك في حفل مهرجان موسيقى الجاز.

وبالنظر إلى أصابعي التي جاهدت لتعزف "السرتو" بطريقة ملائمة، شعرت بوهج صغير في عقلي.

Twitter: @ketab_n

ففي الأفلام تجد أماكن يعود إليها البطل دائمًا، قد يذهب ويجلس تحت شجرة دردار كبيرة لعدة ساعات حتى يتحد مرة أخرى مع حبيبته، أمّا الهارب منذ فترة طويلة، فنجده يزور قبر زوجته الحبيبة، وأثناء محاولاتي لعزف الفقرات الصعبة لمقطوعة "السرتو"، عصرت مخي في الأماكن التي قد تمثل أهمية لـ"أورهان".

وخطرت على بالي حانة "الجمهورية"، فـ"أورهان" يحب ذلك المكان، اعتدنا أن نذهب إليها ونسكر، وبصحبتنا الفتيات، وعقب رحيل "نازلي" من حياتي، لم أشعر بالرغبة في الذهاب على الإطلاق، وظلت "عائشة" و"أورهان" يذهبان إليها مرة في الشهر، وكأنهما يتحققان من كيفية سير الأمور هناك، وكانت الحانة غريبة بعض الشيء؛ حيث يوجد ثلاثة جرسونات باسم "علي".

قد أذهب إلى "الجمهورية" أرتشف مشروب "الراكي"، وأدردش مع الثلاثة؛ "علي"، و"علي"، و"علي"، وأسأل عن "أورهان"، فإن كان مرَّ عليهم، سيخبرونني بذلك، وبالتالي أسألهم المزيد بناء على إجاباتهم.

رنَّ جرس الباب، وهبَّت رياح باردة، ومرَّت على مؤخرة رقبتي، فتوقفت فجأة أصابعي التي كانت تعزف إيقاع "السلطانيجة". وضعت الجيتار على الفوتيه، واقتربت بخوف من الباب، ثم سألت سؤالًا أعلم إجابته مسبقًا:

- مَنْ بالباب؟

- إنه أنا... افتح يا رجل، دعني أدخل.

دخلت بعطرها الذي يفقدك الوعي، في الواقع اعتدت على ذلك العطر لمدة عام كامل الآن، فهذا العطر موجود في كل ركن وزاوية في منزلهم، ولكنني لم أشعر أبدًا بمثل ما يحدث لي الآن من قبل، الآن كل شيء يخص تلك الفتاة يؤرقني.

- أين كنت كل تلك الفترة حتى الآن؟

- لقد عُدت لتوِّي، فعلاً...

Twitter: @ketab_n

- يا نهار أبيض! توقعت أن تخبرني، كيف كانت. أخبرتك بأن كل شيء سيسير على ما يرام، أليس كذلك؟ أنت لا تأخذ كلامي بجدية.

كانت ترتدي نفس قميص "جين سيبرج"، وترتدي أيضًا تنورة مزينة تصل إلى ركبتيها، وبدا جمال قدميها في حذائها الواطي الذي ترتديه فقط في المنزل لأنه مقطوع، توقفت فجأة ونظرت إلى الفوتيه، حيث وضعت جيتار "نهاد آبي" وسألتني:

- هل أزعجتك الآن؟

- لا.

أجبتها بصوت لم يقنعني أنا شخصيًا، وأضفت:

- كنت أجلس فقط.

فبادرتني وهي مقطبة الجبين:

- لا، لم تكن... كنت تعمل، والآن سأختفي من المشهد، إن أردت أي شيء نادني، سأكون بالأعلى، تمرن جيدًا وعلّم هؤلاء الأطفال كيف يعزفون.

- إنكِ لطيفة جدًا.

- حقًا!

رحلت وهي تضحك. أغلقتُ الباب. كنت أريدها أن ترحل فعلاً، عليها أن ترحل ولا تعود أبدًا، لأنه إذا ما استمر الوضع كما هو، فلن أسمح لها بالخروج من هذا الباب مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

13

بحلول المساء، وأثناء خروجي من المنزل، قابلت "كاموران هانم" صدفة، كانت هناك أزمة تواصل بيننا. فمنذ اليوم الأول الذي قابلتها فيه، كانت تتحدث وكأنها تعرفني منذ وقت طويل فلم أستطع محادثتها بضمير الغائب، وفي الوقت نفسه بدا لي أنا أخاطبها بـ "سيدتي" لأن لقب "كاموران تيزا" لا يليق بها، كما لا يمكنني أن أدعوها بلقب "كاموران أبلة" فهي ليست كبيرة لهذه الدرجة. تتكلم دائمًا بنغمة هادئة جدًا تجبرك على أن تصغي لسماعها، وبعينيها بريق يجعلك تتأكد من أن تلك العجوز تقوم بأفعال أخرى غير الاعتناء بزهورها والاستماع إلى الموسيقى التركية القديمة.

في حضنها قط نائم ملتوٍ على هيئة كرة، تبسمت وسألتني:

- هل أنت مستعجل؟

- كنت مستعجلاً، ولكن بعد رؤيتك لم أَعُدْ كذلك.

- إنك لطيف جدًا.

- هذه مجاملة عظيمة.

لمست أنف كرة الفراء، وسألتها:

Twitter: @ketab_n

- ما اسمه؟

- ليس له اسم بعد، سننتظره حتى يقوم بعمل بطولي قبل أن نسميه، وحينما يقوم به نطلق الاسم.

- وما خطبه؟

- أولاد الجيران، أظنهم أطعموه شيئًا فاسدًا.

قالتها وهي تنظر للقط بحزن، وأضافت بنغمة حنان:

- تعلم مدى وحشية الأطفال.

- نعم، إنهم كذلك.

تنهدت "كاموران هانم"، بدت وكأنها لا تعلم من أين تبدأ الموضوع، أردت مساعدتها، ولكن غريزة المستأجر منعتني من ذلك، دائمًا ما آمنت بأنه على صاحب العقار أن يبدأ الموضوع.

ومن دون أي تغيير في نغمة صوتها قالت:

- "محمد بك" لقد توقف المتعهد أمس مرةً أخرى.

- كنت أقول إنه ليس من النوع المضمون.

- تجمعني روابط كثيرة بهذا البيت، فكل شيء هنا، كل طوبة في الحائط تذكِّرني بشيء ما، كلها لحظات عايشتها، وشاركتها مع الآخرين، بحلوها ومرها، لا أريد أن أُرهِقَكَ بحكيها لك الآن، وأنت تعلم موقف زوج ابنتي الكبرى، أطفالها في مآزق أليمة.

لم أعلم بشأن زوج ابنتها، من المؤكد أنها أخبرت "أورهان" عنه، ولكنني لن أفشي ذلك السر، فأجبتها:

- أجل، تلك الأزمة تصيب كل الأطراف بشكل مأساوي، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

عضت "كاموران هانم" على شفتيها، بالطريقة نفسها التي تعض بها الفتيات الصغيرات شفاههن عندما تستندن على الناصية، وحملقت في حوائط عمارتنا الصغيرة بشقوقها وبقع البياض المتساقط في طلاء الجير الخارجي، ثم سألتني:

- "محمد"، بماذا تشير عليَّ؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي تناديني باسمي مجردًا، فحتى تلك اللحظة، كانت تناديني دائمًا بـ"محمد بيك" أو "الرجل النبيل" بالنسبة إليها، جعلني تطور علاقتنا هذا أفكر في أن الأمر أصبح أكثر جدية.

فتلك المرأة العجوز الحاضنة للقط الصغير، والناظرة إلى حوائط منزل متهدم، كانت تنتظرني كي أدلي بجملة تحدد مصير المنزل، بطريقة أو بأخرى، فإن إجابتي فصل الختام. كنت أود إخبارها بأن تجعل المتعهد وزوج ابنتها يذهبان للجحيم، ولكنني قلت:

- حقيقة لا أعرف، أعتقد أنه من الأفضل أن نكون واقعيين.

- أتعتقد ذلك حقًا؟

واعترى عينيها تعبير ما، يجعلك تقسم على شدة صدقها في تلك اللحظة.

- لا أحد يعلم ما يخبئ المستقبل، وعندما تأتي الفرصة، على المرء أن يقتنصها.

- لا تتكلم بهذه الطريقة.

وامتلأت عيناها بالدموع.

- أنا آسف.

- "محمد"، إنك فنان، ولديك معرفة بأرواح الناس، أتعتقد أنني قادرة على تحمل ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- الصبر على قدر البلاء.

تعلمت تلك المقولة من أمي، حقيقة، في تلك اللحظة، كنت قلقًا بشأن ما إذا كنت سأتحمل الموقف الجديد أم لا.

- ماذا إذا كنت في مأزق بسبب هذا؟

- إن مع العسر يسرًا.

أجبتها بذلك وأنا أقتطف لؤلؤة من صدر أمي:

- من المحتمل أن يكون ذلك أفضل للجميع.

أثناء التمشية إلى الشارع الرئيسي، تذكرت اللحن الذي فكرت فيه ليلة الأحد، وظل يتردد في أذني طوال تمشيتي في الشارع المُزَيَّن بأشجار الليمون ذات الأوراق الصفراء، وعمارات مساكن الطبقة الوسطى. تكرر اللحن في عقلي على شكل دوامات مهتزة، تدفق بشكل عشوائي حتى الآن، ولا يزال فظ النغمة في النهايات، وخجول قليلاً، ولا يبدو أنه يشبه أي أغنية عرفتها من قبل.

في شبابنا سمينا تلك الألحان بـ"ألحان التسكع"، وبالنسبة إلينا؛ أنا و"ألتان" بإمكان الشخص أن يجد الملايين من ألحان التسكع تلك في الشوارع الجانبية للمكان، فأحيانًا، قد يرد على بالك أحدهم ويتورط معك، ولكنك لا تثق فيه للحظة، لأن أفضل الألحان تلك توجد بالفعل في مخيلة غيرك، أو تجدها مكتوبة على شجرة عائلة "أماديوس" أو "منير نور الدين"، وتتواتر الآن على ذهن الموسيقيين المفلسين، لتقودهم إلى تعقب أثر أمل كاذب.

إن كنت مبتدئًا ستأخذها وتطورها معتبرًا أنّها من إبداعك الشخصي، والأسوأ هو أن تعتقد أن سبب وجودك في العالم كان من أجل فعل هذا فقط، ثم

Twitter: @ketab_n

تركب مواصلة "الدولمش" لتذهب لعملك، لتحيي حفل زواج، وتسمع نفس اللحن في الراديو، حيث قام شخص آخر بعمله، فتتحطم أحلامك.

وبعد عمر معين ستمل هذا؛ حيث نغلق قرون استشعارنا بهدوء بعد ترك العديد من الأحلام المدمرة وراء ظهورنا، تتحول تلك القرون إلى مجرد عمودين معدنيين صالحين لنشر ملابس ذكرياتنا الداخلية القذرة بينهما، بعد أن كانت جاهزة لاستقبال أصغر ذبذبة عندما كنا شبابًا.

وعندما يصادفك أحد تلك الألحان ويغمز لك، تبتسم بأدب وتكمل طريقك، تستطيع فعل ذلك، وإن لم تستطع وانجرفت وراءه، فهذه إشارة على أنك في أمسِّ الحاجة للأمل في ذلك العمر، والأسوأ هو أن هذا اللحن هو صديقك الوحيد.

أفسدت عينا "كاموران هانم" الغامضة مزاجي، فعندما يكون المرء وحيدًا، يشعر وكأنه مغناطيس يجذب كل الدبابيس الحادة التي تتساقط عليه كالمطر، فإذا ما كان هناك شخص في حياتي، لارتدت بعض الدبابيس الحادة عني والتصقت بالشخص الآخر.

ولكن أمي لم تعد هنا على الإطلاق، و"نازلي" الآن لديها زوج يحميها من الدبابيس الطائرة، و"إزجي" صغيرة جدًا لكي أملأ رأسها بمشاكلي، وأنا، كنت أمسك بيد لحن يتسكع معي في طريقنا إلى حانة "الجمهورية".

Twitter: @ketab_n

14

قال لي "عليٌّ" كثيف الشارب:

- اسمع! ألم يخطر ببالك قط أن تعود لمنزلك مستخدمًا هذا الطريق؟

- تغيَّر المكان كثيرًا.

- اتفضل اجلس.

وأرشدني إلى ترابيزة في الطرف الآخر من الصالة، ثم تابع قائلاً:

- سأرسل لك بعض "الراكي".

في الداخل، أصبحت الصالة أكبر بثلاث أو أربع مرات عمّا كنت أتذكر، تم تجديد الطاولات، وتم هدم الحوائط وبناء حوائط أخرى جديدة، وتم تكبير النوافذ، أعتقد أنه لولا وجود البورتريه المألوف الكبير لـ"مصطفى كامل اتاتورك" المعلق على الزاوية، لكنت شككت في أنني دخلت حانة أخرى.

كانت الحانة تُمَثِّل جمهورية الفنانين والطلاّب، عاصمة الأحلام بعيدة المنال، عملة لشراء الأشياء التي يعجز المال عن شرائها، تأتي إليها مع أصدقائك الذين يقدرون روح هذا المكان.

Twitter: @ketab_n

في الواقع لم أجد أي تغيير في الزبائن وهم يرتشفون مشروباتهم على الترابيزات، ربما كانوا سماسرة بورصة، أو مدققي حسابات، أو رياضيين، وبدت روح "الجمهورية" التي ساوت بين الجميع باقية كما هي، وإذا كان الأمر حقًا هكذا، فهذه إشارة جيدة.

خبطني "عليٌّ" القصير على ظهري ضاحكًا:

- أترى؟ لم نغير المكان كثيرًا، ولكن بعض الناس أحبطونا بغيابهم.

خشيت أن يسألني عن "نازلي" ولكنه لم يفعل، من المؤكد أن "أورهان" أخبرهم بما حدث، فأجبته:

- لا تهتم، اعتدنا أن نأتي هنا لنمرح ونسعد أنفسنا، والآن سنأتي لنفكر في مشاكلنا، هذا هو ما سيحدث.

- كيف حال عملك؟

- كما تعرف، لا أزال أعزف.

قلتها وأنا أسحب الكرسي لأفسح المجال لفتى بدين أراد أن يمر من خلفي.

- حفلات صاخبة؟

- سنكون في "أدنة" الأحد المقبل إن شاء الله.

لم يسمع "عليٌّ" جملتي الأخيرة، حيث نادوا عليه من الترابيزة الكبيرة على شكل حرف "U" في الطرف الآخر من القاعة، غمز لي وذهب، وأكملت أنا كأس "الراكي" الموضوعة أمامي.

كان عليَّ أن أنتظر حتى منتصف الليل حتى أستطيع التحدث إلى ثلاثتهم معًا، فعادةً ما يكونون مشغولين حتى ذلك التوقيت، وكان من المستحيل أن تتحدث معهم براحتك قبل هذا الموعد، ولم يُظْهِروا لي أي اهتمام خاص طوال الليل، كانوا يتعاملون معي كما لو كنت معهم كل يوم، وهذا أسعدني، فعلى الأقل هناك أناس لا

Twitter: @ketab_n

يأبهون بمرور الوقت، وبعد منتصف الليل بنصف ساعة، عندما خفتت الأضواء معلنة أنّه وقت بقاء الزبائن المعتادين، كنت الوحيد الجالس في الصالة مع رجلين ملتحيين على الترابيزة القريبة من النافذة، وشاب وحيد على رأس الترابيزة على شكل "U" ينظر إلى كأسه بعينين خاليتين. أعرف أن الرجلين الملتحيين شاعران، ولكنني نسيت اسميهما، كان (علي)[3] يقفون عند البار يتحدثون.

ماذا سأخبرهم؟ ومن أين سأبدأ؟ وصلت لنهاية الزجاجة. راودني شعور داخلي غريب بالراحة، ولكنني عندما أشعر هكذا أحس بأن نهاية هذه الراحة لن تكون سعيدة، أعتقد أن سبب هذا الشعور هو أنني أشعر بالعزلة.

ذهب "عليٌّ" كثيف الشارب إلى الشاعرين، وصعد القصير السلالم وهو ينظر إلى الفواتير في يديه، وتركاني مع "عليّ" متوسط الحجم، كان أقلهم ثرثرة، عندما رأيته يقترب وينظم الكراسي بقلبها على بعضها البعض، صببت آخر قطرات "الراكي" في كأسي.

أشرت له بأن يجلس على الكرسي المقابل ليّ، فالتف ناظرًا إلى جمهوريته، ليتأكد من أن كل شئ على ما يرام ومرتب، ثم جلس.

- أبحث عن "أورهان".

- ألا تتقابلان أبدًا؟

- ترك المنزل الأسبوع الماضي، وزوجته قلقة بشأنه، ألا يأتي هنا؟

أجابني بعبوس:

- لم أره، فلتسأل الآخرين.

ثم اتجه إلى ترابيزة الشاعرين وسأل عن "أورهان" بصوتٍ عالٍ، كان الشاعران مهذبين، فَكَّرا لوقت طويل مع "عليٍّ" الآخر، ثم أشاروا بالنفي، تبقى "عليٌّ" الثالث، سأسأله أثناء خروجي.

Twitter: @ketab_n

سألني "عليٌّ" المتوسط الحجم:

- ماذا ألمَّ به؟

- البطالة.

- ولماذا يترك رجل عاطل البيت؟

- لم نتوقع أن يفعل هذا، وهذا ما يقلق زوجته.

- ذَكِّرني باسمها؟

- "عائشة"، بالطبع...، ولكنها فتاة جيدة.

- نعم، إنها كذلك.. أريد زجاجة أخرى.

أومأ إلى الجرسون الذي بدأ في كنس الأرضية، وطلب منه كأسين لكل منّا، أتيتُ إلى تلك الحانة منذ سنوات عدة، ولكني لم أرَ أيًّا من (علي)[3] يشرب، رفعنا كأسينا في اتجاه ترابيزة الشاعرين، ورفعا لنا كأسيهما كذلك.

ثم بدأت فرقة كمان مُتعَبة بالعزف، كانت أغنية "da Dalgalandım Duruldum"، وإيقاعها "مهيار كردي" على ما أتذكر. في الحفلات الصغيرة التي كنت أحييها بعد زواجي كنت أعزفها.

سألت "عليّ":

- هل ما زلتم تشغِّلون أغاني مثل تلك؟

- فقط لأنفسنا.

- هل تغيَّر كل شيء يا "عليٌّ"؟

- كل شيء يتغير.

Twitter: @ketab_n

- ولماذا لم تتغيروا أنتم؟

رفع كأسه وألصقها بكأسي ثم أجاب:

- أعتقد... حتى تنظر إلينا وتلاحظ كيف تغيَّر كل شيء آخر.

- من الأفضل أن أجده.

- سوف نسألك عنه أيضًا.

بحلول الثانية بعد منتصف الليل، كنت أنزل سلم "الجمهورية" وذراعي بذراع "عليٍّ". كانت الخمر قد فعلت بي ما فعلت؛ فبالكاد لاحظت وجود "عليٍّ" الآخر وهو يشاهد التليفزيون بالطابق الأسفل، كان يجلس على ترابيزة خشبية محجوزة لشاربي البيرة، وينظر إلى الشاشة. كان يشاهد مطاردة سيارات، ذهب "عليٌّ" متوسط الحجم إليه، وسأله عن شيء، فأجابه، وتكررت الإجابة لأجلي.

- أعتقد أنني رأيته بالأمس، كان يسير في الشارع الرئيسي، وكان معه رجل آخر.

في الثانية وعشر دقائق بعد منتصف الليل، تركت الجمهورية مترنحًا من جانب إلى آخر، لم أتذكر حتى إن كنت قد دفعت الفاتورة أم لا.

Twitter: @ketab_n

15

في يوم الجمعة، دعتني "عائشة" لشرب الشاي، لكنني رفضتُ مُتذرعًا بالمرض، فعرضت أن تقوم بتحضير شوربة لأجلي، ولم أوافق كذلك، فطالما تحمِل كل تلك الروائح معها، لن أسمح لها بالدخول عندي.

قالت بصوت يوضح خيبة الأمل:

- أنت جميل جدًا اليوم، ستخبرني إذا ما احتجت إلى شيء، اتفقنا؟

- هل لديكِ أي أخبار عن "أورهان"؟

- كنت أخبرتك إن كان لديَّ، أليس كذلك؟

- حسنًا، لا تغضبي.

- لست غاضبة.

قالتها ووجهها ممتلئ بالغضب.

كانت لدينا بروفة أخرى في المساء، وستحضر "إلفان بيرين" نفسها البروفة. أعطيت رقم تليفوني إلى الشباب بحانة "الجمهورية"، ولم أعرف ماذا أفعل بعد ذلك، وضعت شريط "إلفان" في التسجيل، ووضعت النوتة أمامي، أخذت الجيتار الذي يذكرني دائمًا بـ"نهاد آبي"، وبدأت الاستماع:

Twitter: @ketab_n

عندما تعمل بالمجال الموسيقي لفترة ما، تلاحظ وجود قوالب قليلة للأغاني، عندما تبدأ إحداها يكون من السهل جدًا توقع نهايتها، وفي مخزوننا التراثي هناك سبع أو ثماني مقطوعات كلاسيكية، أتذكر معظمها من الحفلات التي حضرتها.

ظللت أتدرب على الأغنية حتى وقت الظهيرة، ولم يكن جيدًا على الإطلاق، ومع ذلك كان صوتها جميلاً، ونغمته تعطيك إحساسًا بالرحابة والعذوبة، ولكنني شعرت بأنها ستصبح أفضل إذا ما غيَّرت من القوالب التي تغنيها، ثم نفدت سجائري ولزم عليَّ الخروج.

كانت الأرصفة مبللة بفعل مطر الصباح المبكر، وكانت عاملات التنظيف في الشقق المصطفة على جانبي الشارع تنفضن وتضربن السجاد في الشرفات، وتجمع صوت ثرثرتهن مع صوت ضربهن للسجاجيد لينتج إيقاعًا مرحًا.

شعرت بحب شديد للشارع، فهو ملاذي في أوقات المحن، عند شعوري بالضعف، وهو المكان الذي أقلعت فيه عن الشرب، المكان الذي وقفت فيه على قدمي مرة أخرى، فالأحياء التي عشت فيها تروق لي عندما يحين وقت الرحيل. نظرت إلى الخرق الموجودة في ستائر شرفات المنازل المطلة على الشارع، انتظر عربة نقل العفش للمعزلين، وأعجبتني الشجرة على الجهة المقابلة من الشارع بظلها المُلقى على الحديقة.

ذهبت إلى الاستوديو مبكرًا بمقدار ساعة ونصف، كان ملحقًا بعمارة سكنية في "فنار بخشة". عند رؤيته من الخارج، يستحيل تخمين نوع العمل الذي يدور به، عندما تدخله من بابه الذي يذكرك بمدينة مليئة بالأكواخ القديمة. وفي الداخل ستجد أجهزة ومعدات تكنولوجية باهظة الثمن في استقبالك، اندهش تقني الصوت الشاب عندما رآني:

- أتيت مبكرًا!

Twitter: @ketab_n

شاب بدين يرتدي قميصًا أصفر اللون وبنطلونًا يليق بقميصه، بدا وكأنه متخصص ختان وليس تقني صوت.

فسألته محاولاً أن أنظر إلى الداخل عبر معدات التسجيل:

- هل هناك أحد بالداخل؟

- لا، فالساعة السابقة لميعادكم ليست محجوزة.

ضغط على أزرار عجيبة، فَشَغَّل الأضواء أولاً ثم شَغَّل نظام الصوت الذي سيظل معنا لمدة أربع ساعات، أخذت جيتار "نهاد آبي" معي هذه المرة، فتحت الحافظة، وابتسمت "إزجي" لي من الداخل عبر صورة فوتوغرافية موضوعة في الغلاف العلوي، وهي مرتدية بيجامتها المنقوشة بالزهور، أحتاج لبعض التشجيع، واليوم ستساعد أباها بالابتسام له.

ثم بدأتُ بالعزف على الأوتار، وتردد صوت المقطوعة الأصيلة خلال ملايين النغمات الخارجة من مكبر الصوت مصحوبة بانفجار كبير، وفي داخل تلك الضوضاء، سمعت نبض قلبي يخفق وكأنه طائر يرفرف، سمعت همسًا يخبرني بأن وجودي في هذا العالم لا يزال له معنى.

الفتاة التي يدعونها "إلفان بيرين" كانت في العشرين من عمرها، شكلها لا يبدو كما تظهر على شاشات التليفزيون على الإطلاق، حيث لا تضع مساحيق التجميل. كان شعرها معقوصًا للخلف، وترتدي سترة فضفاضة، وبنطلونًا رياضيًّا وحذاءً رياضيًّا كذلك، يُشعرك وجودها بأن الأمور تسير على ما يرام.

قال "ألتان":

- هذا "محمد" جناحنا الأيمن الشهير.

ثم التفت إليَّ:

Twitter: @ketab_n

- شرحت لـ"إلفان" كيف يتشابه الفريق الموسيقي مع فرق كرة القدم، فمثلًا الطبّالون هم حراس المرمى، إذا ما كانوا سيئين، سيتدهور أداء أفضل فريق، وبالطبع فعازفنا المنفرد هو خط الوسط المهاجم، حيث إن مهمته هي تنفيذ اللمسة الأخيرة، وأنت الجناح الأيمن أو ما شابه.

سألت " إلفان":

- هل تحبين كرة القدم؟

أجابت مبتسمة:

- أكرهها.

عزفنا أغاني الشريط أولاً. كان مستوانا جيدًا، فصوتها الطبيعي أجمل من صوتها بالشريط. أداؤها يجعلك تشعر وكأنك تطير حتى وإن كانت تغني ألحانًا عادية.

عندما انتقلنا إلى عزف الموسيقى الكلاسيكية، بدا علينا جميعًا الارتياح، وبعد أغنية "Yanlızlar Rıhtımı" أو "Kol düğmeleri" شعرنا بنفحة من الهواء المنعش، وأخيرًا عندما عزفنا "Seninle başım dertte" شعرت بتحكم أكبر فأخرجت نفسي من اللحظة وبدأت في الاستماع إلى الموسيقى.

ومن دون قصد عزفت الفرقة أغنية "سلامي شاهين" ذات الأربعين عامًا على نغم موسيقى الجاز، حيث قام الطبال بعزف إيقاع مدغم ناتج من حنينه الداخلي، وكانت "إلفان" تغنيها كأنها أغنية حانة يونانية هادئة، وأعتقد أن سبب ذلك هي الطريقة التي سمعت بها تلك الأغنية في أيام طفولتها، كل هذا خلق جوًا من الأداء الجميل.

بدأت يدي بالعزف على جيتار "نهاد آبي"، ووجدتني أفكر في "عائشة" فجأةً، ربما كان هذا هو مغزى الحياة؛ لعبة مقابلة الشخص الذي تضعه

Twitter: @ketab_n

الحياة أمامنا، وفن رفض ونفي ما تعرضه لنا بالتشويح بظهور أيدينا، هل سأندم على هذا، عندما يربطني القدر بآلة لعينة مثلما فعل مع "نهاد آبي"؟

كنت في مأزق بسببها، لم أعرف ماذا يجب أن أفعل.

عقب البروفة أوقفتُ تاكسي، ودفنت نفسي في المقعد الخلفي أشاهد هبوط الليل ببطء على "إسطنبول" كطائر عملاق. إنني في الثانية والأربعين، كنت أحيا كالميت، ولكن الحياة ما زالت مسممة بعض الشيء، قد تدخل إلى مجرى الدم في أي وقت وتُحوِّله إلى شيء واعد، ركَّزت نظراتي على عداد السرعة، فلم تتعد سرعتنا الستين كيلومترًا بسبب زحام الليل.

كنت أتمنى بأن أجد "عائشة" في المنزل، جهزت الكثير من الجمل لأقولها لها، لدي ملايين الكلمات من أجلها، لَمَّعتها بعناية ودرت حول الحواف الحادة طوال طريق عودتي، وعندما رأيت ضوء حجرتها مضاءً، امتلأت بسعادة يُرثى لها.

فتحتْ الباب وعيناها متورمتان، ثم استدارتْ واتجهتْ إلى غرفة المعيشة، لم تكن الغرفة مُضاءة، دخلت مُتحسسًا الحوائط التي تفوح منها رائحة الطلاء. جلستْ هي على الفوتيه المجاور للنافذة، حَوّلها ضوء الشارع الساطع من خلفها إلى ظل غريب عني، سمعت تنهيداتها المتقطعة.

قالت قبل أن تعاود البكاء:

- "محمد"، لقد افتقدته اليوم، افتقدته جدًا، افتقدته بجنون، أتعلم هذا؟

Twitter: @ketab_n

16

تساهلتْ "نازلي" ووافقت أن أقابل "إزجي" يوم السبت لهذا الأسبوع، فالطائرة المتجهة إلى "أدنة" ستُقلِع في التاسعة مساءً، وسنعود صباح الثلاثاء بعد إحياء حفل أو حفلتين، سيكون كثيرًا جدًا ألا أرى "إزجي" لمدة إسبوعين.

شاهدت التليفزيون مع "جميل" بحجرة المعيشة أثناء قيام أمها بتحضيرها، لاحظت أن هذا الأمر يؤلمه، ولكن ليس بوسعي مساعدته، فهناك غريزة - لا بد أنها موجودة من قبل التاريخ - في قلبي تقنعني بأنه عليه أن يدفع ثمن بقائه هنا مع زوجتي وابنتي.

كنا نشاهد فيلمًا وثائقيًّا عن الحرب العالمية الثانية؛ حيث نجد رجلاً عجوزًا جدًا يحكي عن قصف لندن وهو يرتعد أمام خلفية خضراء، وكان على الشاشة شرح عن هُويته، ولكنني لم أستطع قراءته، يبدو أن بصري تدهور.

مد "جميل" يده بالريموت إليَّ:

- إن كنت تريد مشاهدة شيء آخر، بإمكانك تغيير القناة.

- لا، لا أريد مشاهدة شئ بعينه.

Twitter: @ketab_n

على أي حال قام بتغيير القنوات، وهو من النوع الذي يُعَصِّبُك، فمبجرد أن أبدأ متابعة ما يدور على قناة ما، يقوم بالضغط على الزر وتغيير القناة مرةً أخرى، ومن الداخل استطعت سماع قهقهة الأميرة التي تستعد لارتداء ملابسها لنزهة عطلة نهاية الأسبوع، كنت مستعدًا لمشاهدة التليفزيون مع "جميل" طوال اليوم لولا سماع تلك القهقهة.

كانت السماء تمطر، فانتقلنا في الحال إلى الخطة البديلة؛ حيث ذهبنا إلى أحد المولات الكبيرة التي كانت بانتظارنا، والتي أسعدتنا بمعارضها اللامعة، وأروقة ألعابها، ومطاعمها للوجبات السريعة.

لم تكن ابنتي من نوع الأطفال الذين يطلبون أي شيء تقع عليه أعينهم، كانت مهتمة بالجانب الآخر من منصة البيع؛ حيث قررت أن تصبح بائعة في متجر كبير عندما تكبر، كانت منبهرة بالبائعات وهن يحضرن الملابس من على الرفوف ويعرضنها للزبائن. بسماتهن.. ملابسهن.. لافتات أسمائهن، كل ذلك فتنها، وبفضلها استطعت أن أغازل البائعات.

كنَّ يبتسمن بجمال ويقلن:

- إنها تشبهك كثيرًا!

وفي الحال كنت أبعث برسالة حقيقة أني مطلق، وأرد:

- نعم، فهي الشيء الوحيد الذي يُذَكِّرني بأمها.

بتلك الطريقة استطعت أن آخذ ميعادين، الأول كان مع بائعة لعب أطفال تشبه "نازلي" قليلاً. كانت الكلمات تخرج من فمها شبيهة بإيقاعات موسيقى الراب التي يصنعها المغنيون بأفواههم.، وكان وجهها شديد الشبه بوجه "نازلي"، وهذا ما خلف أثرًا غريبًا عليَّ، حددنا ميعادًا يوم عطلتها – الجمعة – عقب الظهر، ولكن عندما استيقظت في صباح ذلك اليوم، بدا الأمر تافهًا وعبثيًّا، حتى رقم تليفونها لم أطلبه منها، إذن فكل ما فعلته هو إفساد يوم عطلتها.

Twitter: @ketab_n

وفي محاولتي الثانية، كنت أكثر جدية، وكانت الفتاة تعمل في محل حلويات. كانت ذات بشرة بيضاء وشعر أسود طويل مُموج يصل إلى وسطها. أعطاها نتوء أنفها نكهة شعوب جنوب المتوسط، لم أواعد أبدًا فتاة بتلك المواصفات، فعلت كل ما بوسعي أثناء مقابلتنا، ولكنني لم أمنعها من أن تمل، انتهى اللقاء من دون أي أمل في لقاء آخر مستقبلي.

لم تكن "إزجي" في حالتها ذلك اليوم، لم يكن لديها أي نية في أن تُدوِّخ البائعات. كانت تمر حائرة من أمام نوافذ المحلات، لم ألح عليها، فإذا ما أرادت ألا تتكلم، فهذا شأنها، تخطينا أروقة الألعاب، وذهبنا إلى السينما في الطابق العلوي، شاهدنا أحد أفلام حرب الكواكب القديمة، نمضغ ونُسقط فيشارنا، ثم ذهبنا إلى مطعم الهامبورجر المجاور للسينما لنختتم اليوم بالنهاية التقليدية.

وفجأة قالت:

- أشعر بالملل.

- هل كان علينا أن نذهب لمكان آخر؟

- لا أتحدث عن هنا، أقصد المنزل.

- وما مشكلة المنزل؟

- إنه ممل فقط، هذا كل ما في الأمر.

- أتقصدين أنه ممل بلا أي سبب على الإطلاق؟

- "جميل آبي" لا يبتسم أبدًا، ونادرًا ما يتحدث، ولا تبتسم أمي كذلك، فدائمًا ما تعبس هكذا!

- هل أخبرك بسر؟

- أي سر؟

Twitter: @ketab_n

- الأطفال الأذكياء لا يشعرون بالملل، وأنتِ طفلة ذكية.

- ثم؟

- هناك صلصة على جانب فمك، امسحيها، لا، أسفل. أقصد أن لديكِ غرفة لطيفة، ألعابكِ، باستطاعتكِ اختراع شيء ما، ويمكنك أن تدعي "سمجي" للمنزل وتفعلا شيئًا معًا.

- وماذا سنفعل؟

- على سبيل المثال، شيء ما بجانب ألعاب الكمبيوتر، بإمكانكِ أن تقومي بعمل عرض أزياء مع عرائسكِ، وتصوري فيديوهات معهم، شَغِّلي مخكِ قليلاً.

- "جميل آبي" ممل جدًا.

- "جميل آبي" رجل طيب، لكنه ليس في حالته تلك الأيام فقط.

- هل هذا بسببي؟

- لا. أتعرفين؟! عندما كنت في مثل عمرك لم تكن هناك كمبيوترات، أتعلمين ماذا فعلت؟

- ماذا؟

- تخيلت غرفتي وكأنها العالم، وفي كل ركن من أركانها توجد مدينة يمكنني زيارتها لإحياء حفلاتي بها. بهذه الطريقة لم يزعجني أحد أو يصيبني الملل.

- كنت غريب الأطوار بعض الشيء، أليس كذلك؟

- اسمعي، شَغِّلي مخكِ، اخترعي شيء ما، اتفقنا؟

- حسنًا.

قالتها وهي غير مقتنعة، هذه هي طريقتها، فهي لا تحب الاستماع إلى النصائح.

Twitter: @ketab_n

لم نرغب في العودة إلى المنزل بعد، لا يزال أمامي ساعتين حتى أستعد للرحلة، سنقابل "ألتان" في المطار، تجوّلنا نطالع نوافذ المحلات لفترة، ثم أخبرت "إزجي" أن تنتظرني، واندفعت إلى محل لعب بالطابق الأسفل واشتريت لها لعبة "بازل" من على الرفوف الخلفية، لفأر أبيض يركب طائرة، تسلمتها ملفوفة وطلعت عائدًا إلى ابنتي.

- ما هذا؟

- إنه بازل.

- وماذا تقصد؟

- به مئتا قطعة، ركبيها معًا وستحصلين على الصورة في النهاية.

- إنها مقززة.

- لا تكوني سلبية هكذا، سوف تستمتعين بها.

- إنها غبية فعلاً.

دفعت بالصندوق الكبير إلى يدها، حملته حتى وصلنا البيت غصبًا عنها.

Twitter: @ketab_n

17

يستطيع المرء إخفاء مشاعره عندما يواجه انعكاسه بالمرآة. أحيانًا نكره أنفسنا، وأحيانًا نتعاطف معها. هناك أوقات يصبح للوجود فيها معنى، وفي بعض اللحظات لا نجد سببًا واحدًا للنفس الذي نأخذه، تمر تلك اللحظات علينا أثناء حياتنا بترتيب مبهم، مثل ليلة العيد، ويبدو الأمر عديم الجدوى إذا ما فكرنا في أن الأشياء ستتغير مع الوقت، فعلاقتنا الشديدة بالمرآة ربما لا تُجدي نفعًا مع الزمن.

عندما كنت صغيرًا، اعتقدت أن الحياة ستصبح أسهل إذا ما اكتسبت الخبرة، ولكن ما تعلمته هو أن اكتساب الخبرة موهبة أيضًا، فعلى الرغم من كل ما حدث معي، لم أشعر أحيانًا أنني اكتسبت خبرةً ما.

أغضب من نفسي عندما أفكر في "عائشة"، ربما أصبح الأمر أسهل إذا ما حدث في فترة أخرى من حياتي، بإمكاني التأقلم مع مشاعري تلك، وأنظر إلى غبائي، وأضحك كثيرًا، ثم أمشي بهدوء في الطريق الذي يدفعني فيه القدر.

أثناء محاولتي اللحاق بطائرة "أدنة"، لم أكن في حالة تسمح لي أن أضحك على نفسي، شعرت وكأنني طفل يهرب من المشهد بعد أن أفسد المكان كله، شعرت وكأن كل الناس في الشارع تتحدث عني. كانت "عائشة" بمفردها في

Twitter: @ketab_n

الطابق العلوي، ترددت في تشغيل الأضواء خشية أن تلاحظ وجودي بالمنزل، كان الجو يظلم في تلك اللحظة، ووجدت صعوبة في البحث عن متاعي.

سمعت صوت المفتاح في قفل الباب، جريت إلى المطبخ واختبأت خلف الثلاجة، انفتح الباب، ومر ظل "عائشة" الصبياني من أمام باب المطبخ وقت الشفق، ثم أضاءت النور في الحجرة الكبيرة، خفق قلبي بسرعة غير طبيعية، فلو كنت لصًا لما خفق قلبي بهذه الشدة.

ومن خلف الثلاجة، رأيت الحائط الذي وضعت عليه الجيتار، اقترب ظل "عائشة" وابتعد عن مجال رؤيتي، انحنى الظل ووقف حاملاً ملابسي، كانت المسكينة ترتب المكان.

سمعتها تدندن بشيء ما، كان صوتها طبيعيًّا وغير منمق، كما يحدث في المرات التي نتأكد فيها من عدم وجود أحد حولنا ليسمعنا، والأكثر من ذلك، أنها كانت تهمهم بلحني، هذا يعني أن لحني موجود بالفعل وليس شيئًا اخترعته.

وعقب خمس عشرة دقيقة، أُطفئ الضوء، مرّ الظل من أمامي، وانخفضت الهمهمة وانغلق باب الشقة مُحدثًا ضوضاء عالية.

جلستُ على الكرسي بجانب المنضدة خائفًا من إحداث أدنى صوت، انتظرت حتى تتعود عيناي على الظلام، وفي غضون دقائق، أصبحت معظم الأشياء مرئية في ضوء مصابيح الشارع، طويتْ ملابسي ورتبت حقيبتي التي تركتها مفتوحة، وعلى الترابيزة، كان هناك خطاب أعرف الاسم المكتوب عليه بدون حتى قراءته. أخذته ووضعته في جيب سترتي، أغلقت الحقيبة، لم أضع عطر ما بعد الحلاقة، ثم خرجت إلى الشارع.

وعند وصولي للمطار ورؤية "ألتان" لحقيبتي، صاح قائلاً:

- مرحى! ما هذا يا رجل؟ نحن لسنا مهاجرين إلى "أدنة" للأبد.

- حسنًا، سأتخلص من نصفها لأجلك.

Twitter: @ketab_n

انتظرنا بقية الفريق لمدة عشرين دقيقة أمام صالة الطيران الداخلي، وهم أصغر منا بكثير، بدوت أنا و"ألتان" كأساتذتهم، وبدوا هم كتلاميذنا، لديهم تلك الهيئة التي توحي بعدم الاكتراث الخاصة بجيلهم. ستأتي " إلفان" على طائرة حبّيبها الخاصة.

وفي الطائرة، بعدما تأكدت من ذهاب "ألتان" في النوم، أخرجت الورقة من جيبي، ولمدة دقيقة، نظرت إلى الخطاب وكأنني جاهل لا أفهم ولا كلمة منه، ثم بدأ خط يد "عائشة" في الظهور، تجمعت الحروف سويًّا لتنشيء كلمات، وتجمعت الكلمات سويًّا لتبني جملاً.

وهكذا ظهرت صورة "أورهان"، صورة رسمتها امرأة تفتقده، مصقولة جيدًا من نتاج ذاكرتها، صورة تصيبك بجرح داخلي.

تفتقده "عائشة" كثيرًا.

أعتقد أنها انتقلت إلى المرحلة الثانية من الانفصال.

في هذه المرحلة، قد تستمر الندبة الصغيرة في النزيف ببطء. تظهر من خلال كلمات لا تُقال، وإجابات لا تُلقى، وإمكانيات غير ملحوظة.

كتبت "عائشة":

ذات مساء، عندما عدت للمنزل، نظرتُ إلى الأثاث الذي لمسه وجلس عليه، ولاحظت أن الأمر ليس بالهين، لأنني شعرت بغيابه، نما غيابه وملأ المكان كله، بدا لي أننا أغفلنا شيئًا ما، وكأننا فقدنا الرابط بين سلسلة الأحداث التي أوصلتنا لهذا، وبدون هذا الرابط، لن يستريح بالي، ولهذا أحتاج إلى أن أجد "أورهان"، يجب أن أسأله عدة أسئلة قليلة، هل تساعدني عند عودتك؟

نظر "ألتان" إلى الورقة التي بيدي بعين واحدة وسألني:

- ما هذا؟ خطاب غرامي؟.

Twitter: @ketab_n

- لا، إنه من صاحبة العقار الذي أسكنه، سيهدمون المبنى، هذا ما في الخطاب.

- أتقصد أن مالكة عقارك كتبت لك خطابًا؟

- لم تجدني بالمنزل.

أجبته بتلقائية داخلية.

- بعد إذنكَ... لو سمحت أيقظني عندما نهبط..

18

"أدنة" هي مسقط رأس "بيرين"، وعندما وصلنا لاقى موكبنا اهتمامًا كبيرًا، لقد أصبحنا جميعًا نجومًا مثلها.

في الصباح التالي، احتشد ستون شخصًا في الفندق، لم أفهم كيف لم ينزعجوا من قدومهم للفندق في الصباح الباكر، خرجت "إلفان" إلى الشرفة مرتدية نظارتها السوداء ومن دون مساحيق تجميل، وزادت من حماستهم، سعدوا جدًا، وكان بينهم مَنْ طلب توقيعي عند رحيلنا عن الفندق.

ركبت "إلفان" سيارة "أودي" بنوافذ ملونة، وتكدسنا نحن في سيارتين أجرة، شهدت المدينة يوم أحد هادئ. منذ الوهلة الأولى تشعر بالحنين عند رؤيتك لميدان "بوستانسي" الواسع، لم يكن هناك جمهور كبير ، سائق سيارتنا كان يشبه سائق عربات الكارو في أفلام "يلماز جوناي" القديمة، وكان يقود ببطء، عندما بدأت إحدى أغنيات "إلفان" في الراديو، قام السائق بتعلية الصوت.

زغده "ألتان" في كتفه وقال:

- يا رجل، اخفض الصوت قليلاً، ها؟

تفاجأ السائق، وأخفض الصوت، كان يريد فقط أن يعاملنا بلطف؛ حيث لاحظت أنه لم يكن مرتاحًا بعض الشيء، فقلت له:

Twitter: @ketab_n

- نسمعها ليل نهار، ولا نسمع غيرها.

تمتم:

- آه، حسنًا... أوقات فراغنا هي أوقات عملكم، لديكم عمل شاق أيضًا.

ثم التفتُ لأشاهد النخيل والعمارات الطويلة المتلاصقة بطول الطريق، الأمر وكأن المدينة تريد أن تعرض ثراءها ولكنها خجولة في الوقت نفسه، و سبب توقف واجهات المباني والشوارع عند حد معين.

سألت "ألتان":

- لماذا لا تبقى "إلفان" مع جمهورها، لا بد أن عائلتها تعيش هنا.

- لا تكلم أيًّا منهما، أبوها واعظ بالمسجد، وعندما اتجهت للغناء، ا عالمه، اعتقد أنه تبرأ منها، وهذا سبب خلافها مع عائلتها.

- وكيف حاله؟

- مَنْ؟

- والدك، لم أزره منذ زمن.

- عجوز كما هو.

ابتسم وأكمل:

- لم يستطع العودة إلى ما كان عليه، بعد أن توفتْ أمي...

- ألا يزال الحمام معه؟

- بالطبع، فهو لا يهتم بأي شيء آخر سواه.

- احتمال أمُرُّ عليه لأزوره، هل سيتذكرني؟

- سيتذكر، لا تقلق، ولكن اعمل حسابك أن تبيت معنا.

Twitter: @ketab_n

لم تكن الحفل سيئة كما توقعت، فالذاكرة البشرية قامت بدورها تمامًا كما تفعل أثناء السباحة أو ركوب الدراجة، عزفت من البداية للنهاية من دون خطأ واحد.

ملأ جمهور قليل القاعة بالكامل، جميعهم يحفظون الأغاني عن ظهر قلب، وكان هناك جيش من حرّاس الأمن بينهم وبين المسرح، يسمحون لمن يعتبرونه غير مريب بالصعود إلى المسرح واحتضان "إلفان"، وتعاملت هي وكأن ذلك يجعلها في قمة السعادة، وربما كانت تشعر هكذا بالفعل، لا أعلم.

عند رجوعنا إلى الكواليس احتضنتْ كلاً منا على حدة. عندما تنزل من على المسرح تبدو في تنورتها المزركشة وكأنها طالبة مدرسية ذاهبة إلى حفلة رقص عقب الظهيرة.

قالت وهي تحاول استرداد أنفاسها:

- عمل جيد، منكم جميعًا.

فأجبناها بأدب:

- شكرًا.

- إنني أعنيها، فأنتم تعلمون ما تُمثله تلك الليلة لي.

أومأنا جميعًا في اللحظة نفسها، لم نكن واثقين بأننا نعلم ما تعنيه. في هذه اللحظة، انفتح الباب المواجه للكواليس.

دخل رجل ضخم، معروف في البلد بأنه حبيب "إلفان"، تصحبه امرأة محجبة ضئيلة، كانت المرأة ضئيلة جدًا، لدرجة أنه لولا ارتداؤها ملابسها بتلك الطريقة لحسبتها طفلة صغيرة.

قبَّلت "إلفان" يدي المرأة باحترام ثم حضنتها، ترددت يدي المرأة المليئة بالبقع البنية للحظة ثم احتضنت "إلفان"، ورأينا دمعتين تنحدران على وجهها المجعد، عندما عادت "إلفان" إلينا كانت قد ذهبت زينتها.

- هذه أمي، وهذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها لتسمعني أغني، دعوني أقدمها لكم.

Twitter: @ketab_n

19

هناك تقريبًا نصف ساعة بين نزول الموسيقي من على المسرح عقب الحفل وبين الوقت الذي يفقد فيه جاذبيته، فالعرق على جسدك يعطيك جاذبية معينة في عيون الفتيات، ثم تشعر بضياع تلك الجاذبية ببطء مع دخان أول سيجارة تدخنها، وإن كنت خجولاً مثلي، سوف تعيش تلك اللحظات بسرعة لا ترحم.

تركنا "ألتان" عقب الحفلة، وعندما سألناه ما الذي كان يفعله، رفع كتفيه مثل "فاتح تريم" وعمَّق صوته وأجاب:

- ألم أقل لكم، الليل للذئاب.

دائمًا ما يحب تلك المقولة، أعتقد أنها مقتبسة من قصيدة.

ثم اقترحت على شباب الفريق أن يذهبوا ليستمعوا إلى أوركسترا "كورتولوش"، حيث كان لديهم حفل في فندق قريب، رأيت في الصباح ملصقاتهم الإعلانية على محطة أوتوبيس، أعرف "كورتولوش" من فترة سابقة، وأيًّا كان ما سيعزفونه، فإنهم سيعزفونه بإتقان.

وافقوا على اقتراحي من باب الأدب وحتى لا يحبطونني، أو ربما لعدم وجود أية فكرة أخرى جيدة. عندما وجدنا الفندق كان الحراس في حالة ما بين النوم

Twitter: @ketab_n

والاستيقاظ. ذكرنا اسم "إلفان" فانحلت المشكلة، لدرجة أنهم رافقونا إلى ترابيزتنا.

وبالداخل بدا الفندق وكأنه بُني في الأساس ليكون قاعة موسيقى، ولكن العمّال توقفوا وأكملوا بناءه ليكون صالون، وكل شيء به نفحة من التظاهر، كان المسرح يرتفع عن صالة الفندق بأربع درجات، وفي منتصف الصالة توجد سلالم مغطاة عشوائيًا بسجاد أحمر اللون، وتنتشر الترابيزات على جانبي السلالم والترابيزات مُحاطة بكراسي ذات وسادات، وعليها زهور طبيعية، ومصابيح زجاجية صغير مضاءة بالشموع، وعلى خشبة المسرح، كانت أوركسترا "الكورتولوش" قد بدأت بالفعل في عزف أغنية "Keskin Bıçak".

ولأن الأمور تسير على ما يُرام في هذه الليلة، قررت أن أطلب شيئًا لأشربه، كان الويسكي هو الشيء الوحيد الذي خطر على بالي. اندمج الشباب مع صديقهم المسن، وظهرت على الترابيزة زجاجة "جاك دانيلز" وسلطانيات متعددة غير ضرورية من المقرمشات.

- هل تعرفون "كورتولوش"؟

أجابوا في نفس واحد:

- نعم، "Keskin Bıçak".

- أهذا كل ما تعرفون؟

- ما هي أعماله الأخرى؟

- كان "كورتولوش" من عشرين عامًا.

نظرت إلى وجوههم مبتسمًا:

Twitter: @ketab_n

- عندما كنا بالكاد نتخيل أننا سنعزف على مسرح "أوديون"، كانوا يعزفون هم عليه بالفعل، غضبنا منهم لنهجهم نمط الأرابيسك، وكما ترون، لا يزالون ينتهجونه، ونحن نجلس في مقاعد الجمهور.

في هذا الوقت انتهت الأغنية، هزوا أكتافهم وبدأوا الأغنية الجديدة قبل أن يهدأ تصفيق الجمهور، يعزفون الآن أغنية "احتقار" للمطرب "كنجباي" على أنغام موسيقى الروك. إذا ما قمت بفعل هذا الأمر في إسطنبول؛ ستحظى حتمًا بإعجاب الجمهور الشديد.. ولكنهم لم يُبدوا أي اهتمام بالجمهور.. كما لو كانوا يعزفون فقط للمتعة، وهذا هو مغزى حياتهم التي عاشوها، جلست متكئًا على ظهري أراقب الدهشة في وجوه شبابنا، فبعد عُمر مُعَيَّن، يحتاج المرء إلى الفخر بإنجازات جيله.

انتهت الأغنية بقفلة رائعة، فوقفنا نحييهم، وصرخنا مثل الفتيات اللاتي يصرخن أثناء عزفنا على المسرح.

بعد فترة، لاحظت أن الشباب بدأوا يتململون، فهم ليسوا مثلي، فهذا ما لم يتوقعوه من ليلة حافلة بالوعود تمتد أمامهم، وما زال أمامهم ملايين من الانتصارات ليحققوها، استأذنوا مني بأدب، واحدًا تلو الآخر، وطلبت بنفسي من الشاب الأخير أن ينصرف لأنه شعر بالحرج في أن يترك صديقه العجوز وحيدًا وينصرف.

أمسكت يده التي مدها إلى محفظته في جيبه الخلفي وقلت له:

- اعتنِ بنفسك.

قهقه قائلًا:

- لا تقلق، فالليل للذئاب.

- ستصبح على ما يرام إذن...

علَّمهم "ألتان" جيدًا.

Twitter: @ketab_n

20

استغرقت وقتًا صعبًا في فتح الباب، ثم تدفقنا للداخل، ألقيت نظرة على الرواق، اعتقدت أنه لم يرنا أحد، تحسست الحائط حتى فتحت النور، نظرت إليها في الضوء، فوجدتها تضع يدها على جبهتها، وكانت تنظر حولها بعينين متقدتين.

- هل أنتِ بخير؟

تحسست جبهتها لربما ارتطمت بالدولاب أثناء الدخول، لا أعرف، أجابتني:

- سنعرف في الصباح، أليس كذلك؟

طوَّحت شعرها وكأنها تريد غلق الموضوع ثم جلستْ على السرير، تبدو في الخامسة والعشرين غالبًا، كنت سكران، ولا أعرفها، وشعرت حتى بأنني فقدت عقلي، فما الذي أفعله مع هذه الفتاة في غرفة الفندق؟

جلست على حافة السرير، ومن بُعد بدت شبه فتاة كنت أعرفها في مرحلة الثانوية:

- نسيت أن أسألك عن اسمك.

- "آسمان"... ما طريقتك المفضلة في الممارسة؟

Twitter: @ketab_n

- لماذا اقتربتِ بجانبي؟

- كنت وحيدًا جدًا في البار، اعتقدت أني قادرة على إسعادك قليلًا.

- هل يُؤلمك رأسكِ؟

- أف، دعها جانبًا، هل لديكَ واقٍ؟

- لا، ليس لديَّ.

ولم أكن قد فكَّرت في ذلك فعلاً.

- أعتقد أن لديَّ واحدًا.

بدأت تفتش في حقيبة يدها الصغيرة. لم أمارس الجنس مع فتاة محترفة من قبل. كنت أتساءل ما الذي يمكن أن يحدث إذا لم تجد واقيًا.

سمعنا خبطًا على الباب، كان شخص ما يطرق على الباب بشيء ما مثل المفتاح، اومأتُ إليها بألا تقلق، ثم نهضت.

كان "ألتان" يحمل زجاجة ويسكي في يده، ويبتسم لي، كان هناك شيء ما حزين في ابتسامته:

- ما مشكلتك؟

- قلت إنك تريد أن تدردش، هل أنت نائم؟

- لا... لديَّ زائر.

- أوو، يا لخيبة الأمل!... حسنًا، آسف.

رجع خطوتين في الرواق متجهًا إلى غرفته، تركت الباب مواربًا ومشيت بجانبه.

- هل تريد مساعدة؟

- لا، اعتقدت فقط أنه بإمكاني الثرثرة معك، سنفعلها في وقت آخر.

Twitter: @ketab_n

- هل أنت وحدك؟

ابتسم وأجاب:

- نعم، سأنام قليلًا، أجميلة هي؟

- لا تنام إن استطعت، سأكون معك خلال خمس عشرة دقيقة.

عندما عدتُ إلى غرفتي، كانت "آسمان" قد تعرت بالفعل إلا من لباسها الداخلي فقط، كانت راقدة على السرير وتنظر في تليفونها المحمول.

لَوَّحَتْ بالواقي وقالت:

- إنك محظوظ، وجدت واحدًا في حقيبتي.

لديها جسد متناسق، اعتقدت أن فتيات الليل يتجعد جلدهن في عمر مبكر، ولكن جلدها ناعم جدًا، حجم فخذيها رائع، ووسطها لم يترهل بعد، وثدياها جميلان يدعوانك لأن تنظر إليهما طوال حياتك، ملأ شذى عطرها الغرفة بالكامل الآن.

- تعالَ، كن زوجي للحظة.

- آسف، جاءني عمل فجأة.

- وماذا أنت؟ رجل إطفاء أو ما شابه؟!

عندما فتح "ألتان" الباب كان يرتدي سترة مائلة للزرقة، لم يبدِ أي علامة سعادة على زيارتي له، ترك الباب مفتوحًا وذهب ليجلس على أحد الفوتيهات الصغيرة بجانب النافذة، كانت زجاجة الويسكي التي عرضها لي سابقًا مستقرة على الترابيزة، شرب منها بالطبع.

- ها أنا ذا.

- حسنًا.

Twitter: @ketab_n

تثاءب وأمرني:

- اغلق الباب لو سمحت.

وضع ساقًا على الأخرى ووَجَّه الريموت إلى التليفزيون، بدا وكأنه انزعج بمجيئي.

- لا تقل لي إنك صرفت الفتاة!

- أجل، جَنِيتْ مالاً من دون أن تقوم بعملها.

جلست على الفوتيه الآخر، كانت حجرته أنيقة، ويرقد جيتار "لس بول" الذي عزف عليه في الحفل على السرير، بينما ترقد النوتة الموسيقية على الكومود، طالعنا أخبار كرة القدم لنصف ساعة.

- لماذا أنت وحدك الليلة؟

- الإنسان مخلوق وحيد، يُولد وحيدًا.. يعيش وحيدًا.. ويموت وحيدًا.

- هل نشرب؟

أخذت الكأس التي قدمها لي، على الأقل طعمها أفضل من التي تناولتها في البار:

- بدوت وكأنك جاهز لفعل شيء ما الليلة.

- سأفعل هذا، سأجلس وأشاهد التليفزيون.

بدأت أغضب، لقد خسرت فرصة قضاء ليلة رائعة، وهي تأتي مرةً واحدةً على فترات طويلة، ولكنه لا يهتم بهذا.

من دون أن يُحَوِّل عينيه عن التليفزيون، قال:

- " ميمو"، ما الذي سيحدث لنا؟

- لن يحدث شيء، سنتحدث قليلًا ثم ننام.

Twitter: @ketab_n

- لا تعاملني وكأنني ثمل، سأكسر رأسك!

- حسنًا، لن أفعل.

ضغط آخر زر على الريموت ثم أغلق التليفزيون، صبَّ لنفسه كأسًا أخرى، وسألني:

- اخبرني، كم عمرك الآن؟

- اثنان وأربعون.

- حسنًا، اليوم هو عيد ميلادي السابع والأربعون، كيف هذا؟

- آسف، لقد نسيت.

وفي الحقيقة لم يكن لتأسفي أي قيمة؛ فنحن لم نتذكر أعياد ميلاد بعضنا البعض أبدًا.

- ولا يهمك، كان ذلك بالضبط منذ سبع وأربعين سنة مضت، في حي اسمه "لنجا"، حيث جاء الابن الثاني لـ"كاهفيج حسن أفندي" إلى هذا العالم، وما الذي كان سيتغير الآن إن لم يحدث هذا؟

خطرت على بالي صورة جسد الفتاة الجميلة التي كانت بغرفتي منذ لحظات، وبذلت كل جهدي للتخلص منها.

- لا أعرف.. على سبيل المثال، لم أكن سأقابلك.

- يا له من أمر محزن.

حاول أن يصبغ صوته بنغمة بائسة:

- لم تكن لتحتمل هذا، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد، كنت لن أتحمل هذا.

Twitter: @ketab_n

- كنت ستعاني كثيرًا من عيشتك هكذا.

- كنت لن أقدر حتى على التنفس.

- ...

- ...

لم نستطع الاستمرار أكثر من هذا وانفجرنا في الضحك، ضحكنا حتى آلمتنا معدتنا، ظللت أقول محاولًا أن أمنع نفسي من الضحك:

- لو لم أُولَدْ، لكنت انتهيت.

كنت أتنفس بالكاد من أنفي التي سدتها الخمر وبدأت تنساب منها.

وكلما عدنا إلى وعينا يصيح:

- إنكَ سكران تمامًا، أتعلم هذا.

ثم انفجرنا في الضحك مرة أخرى. كانت أصوات ضحكاتنا تخرج من النافذة وتختلط برياح نوفمبر الباردة، وتنساب مع مياه نهر "سيهان" الذى يظهر بالكاد من نافذة الغرفة. بالرغم من كل شئ كنّا لا نزال شبابًا.

Twitter: @ketab_n

21

كان من الصعب عليَّ أن أتكيف مع حياتي العادية عند عودتي إلى إسطنبول، ذهبت إلى منزل "نهاد آبي" وتركت أشيائي، بدأت "بيبر" في الرفرفة والغناء عندما رأتني، بدت حالتها جيدة، حيث اعتنت بها المشرفة عناية جيدة.

نمتُ على الأريكة حتى الظهر، وكنت سأنام مدة أطول لولا ارتباطي بميعاد درس موسيقى، فأنا مُجهد حقًّا من رحلة الطائرة والحفلة وكل شيء، بحلول الظهيرة، رَنَّ جرس الباب، جاءت "جولومساشر" ومعها الإفطار وجريدة في سلتها، لَوَّحَتْ بالسلة إليَّ وقالت:

- صباح الخير، أتريد أي شيء آخر؟

لا بد أنها تصغرني بعامين، وهي قصيرة جدًا، ذات خدود دائمة الحمرة، ولها عينان مضيئتان تنظران إليكَ بفضول مثلها مثل العديد من نساء ساحل البحر الأسود، علمت أن زوجها في السجن، لم أصدق أنها تدير هذه العمارة المتهدمة القديمة بمفردها.

أجبتها:

- لا، تعالي غدًا للتنظيف إذا ما استطعتِ ذلك.

Twitter: @ketab_n

- غدًا يوم الزيارات، باستطاعتي القدوم يوم الخميس؟

- كيف حاله؟ جيد؟

بدا عليها الحزن وأجابت:

- حالته المعنوية منخفضة، يُماطل محاميه في القضية، أعتقد أنه ليس هناك أي جدوى.

- لا تفقدي الأمل.

- هذا صحيح، يجب ألا نفقد الأمل مهما كان.

وقفنا صامتين لبرهة ننظر إلى بعضنا الآخر، ثم تنهدت:

- أي جديد في حالة "نهاد بيه"؟

- لا يا "جولومساشر".. لا جديد.

- أريد أن أزوره يومًا ما، ولكن هناك الكثير من الأعمال هنا في العمارة.

- ستزورينه، ربما نزوره معًا يومًا ما.

لم تجب "جولومساشر"، تنهدت فقط وتمتمت بشيء مثل "إن شاء الله"، ثم أنعمت عليَّ بابتسامة من ابتساماتها النادرة، تلك الندرة التي تُكَذِّب اسمها - لأنه يعني المبتسمة - ثم اختفت على السلالم المؤدية إلى الطابق العلوي.

ركبت العبَّارة الصغيرة التي أنزلتني ناحية منزل تلميذتي المطل على شاطئ البحر في "كالنيجة"، وفتحت لي الخادمة وتبعتها إلى حجرة المعيشة الكبيرة وجلست على المقعد نفسه، فعادةً ما يجلس المرء في المكان نفسه الذي جلس عليه أول مرة عند زيارته لموقع جديد.

ابتسمت السيدة "ريلا" وقالت:

- "ليندا" غاضبة منك.

Twitter: @ketab_n

- إنها محقة، لقد أهملتها.

- لا بد أنك مشغول، هل ترغب في بعض الشاي؟

عندما وضعوا فناجين الشاي المصنوعة من البورسلين أمامي، سمعت وقع أقدام تهبط السلم، ثم رأيت يد "ليندا" الصغيرة على الدرابزين، توقفت من دون أي صوت في منتصف السلم. كانت ترتدي فستانًا أبيض، وبشعرها الأسود المنسدل بدت وكأنها أميرة من أميرات الشرق الأوسط.

تجاهلتني طوال نصف الساعة الأولى من الدرس، كانت تكرر تمرينات الأصابع التي أعطيتها لها، كانت تريد أن تحرجني وتوضح لي أنها قامت بعمل واجبها على أكمل وجه، من دون كلام كانت تعبر عن غضبها مني. مثل جميع الأحباء، نمر بأوقاتنا العاصفة أيضًا.

عندما انتهت من التمرينات قالت:

- رأيتك في أحد أحلامي.

- أتمنى أن يكون حلمًا جيدًا.

نظرت للنافذة وكأنها ترى الحلم أمامها وأسهبت:

- كنت تتحدث إلى امرأة، صوتها حزين قليلاً، كمثل صوتك عندما تكون حزينًا ولا تريد أن يعرف أحد، يرتجف صوتك حينها، كان صوتها كذلك، سمعت صيحات النورس أيضًا ونفير السفن، شممت رائحة البحر. أعتقد أن المكان كان مزدحمًا؛ حيث كان هناك أناس آخرون يتكلمون أيضًا على ما أظن، ولكن المشهد كان مبهمًا.

- عن ماذا كنا نتحدث؟

- كنت تتحدث عن امرأة ليست معك، كنت غاضبًا جدًا، لم أرك غاضبًا هكذا من قبل، أعتقد ربما لأنها جرحت قلبك، ولكنني لا أستطيع الجزم بأن هذا هو

Twitter: @ketab_n

سبب حزنها، همست لها بشيء ما، ثم رحلت، ثم سمعت نفير السفينة، ولحنًا ما، لم أعرف من أين جاء، كان لحنًا غير مألوف، ولكنه يشبه ألحان شريطك، وأخيرًا أتذكر أن المرأة بكت، ظلت تبكي حتى نهاية الحلم.

- إنه حلم حزين.

- أجل، شعرت بالضيق عندما استيقظت.

- هل تتذكرين اللحن؟

- لا، فكرت في أن أسجله، ولكنه طار من عقلي حينما جهزت المسجل.

سمعنا طرقًا على الباب، أحضرت الخادمةُ الشاي والبسكويت، ربتت على رأس "ليندا" وسألتنا إن كنا نريد شيئًا آخر، ثم رحلت في هدوء.

- تدربت قليلًا على ألحاننا.

- جيد، دعيني أراكِ وأنتِ تعزفينها.

عقب الدرس أخذت أول مركب عائد، هناك اختلاف مناخي بين جانبي "البوسفور"، حيث بدأت السحب فوق "كادي كوي" في التلاشي عقب مرورنا بـ"برج العذراء".

فكرت بشأن حلم "ليندا"، بدا مشابهًا لحالتي تمامًا. أعتقد أن هذه إشارة بخصوص "عائشة".

وعند رصيف "كادي كوي"، استقبلني نور الشمس ورائحة السمك المقلي والضوضاء، كان الصيادون يزيدون اشتعال النار بالتهوية عليها وإضافة قطع الخشب، وكان الباعة الجائلون يبيعون سلعهم من أمواس الحلاقة والألعاب البلاستيكية للركاب النازلين من المراكب. ذهبت إلى ماكينة الصرافة بالميدان؛ حيث أرسلت "إلفان بيرين" الدفعة الثانية والأخيرة من أجري عن الحفلة.

Twitter: @ketab_n

أوقفت "تاكسي" وقلت لسائقه:

- إلى "ليفينت".

كنت أُفَضِّل أن أرى "عائشة".

Twitter: @ketab_n

22

كلما خرجت من إسطنبول لفترة ما، أجدها عابسة عند عودتي، تلك المدينة التي طالما شبّهوها بالمرأة في التاريخ وانتهى بها الحال أن اكتسبت صفات نسوية، دائمًا ما تبحث عن الضعف بداخلي لتجعلني أشعر بالكآبة كلما رجعت إليها.

حتى وأنا راكب التاكسي إلى المطار، كان لها طابع اللامبالاة التي جعلتني ألاحظ أن الأشياء ستكون أفضل من دوني، فعلى سبيل المثال، ستظل البوارج في "كوم كابي" تصطاد المحار وتفرغه، وستذهب الفتيات الروسيات في فنادق "لاليلي" إلى محلات البقالة صباحًا من دون تزيين وجوههن، وستظل نتائج مباريات كرة القدم الأسبوعية تُعلق على سبورة نادي "لنجا سبور" لكرة القدم، كل تلك الأشياء ستظل تعمل كتروس الساعة من دوني، من دون أي تدخل مني، وستظل المدينة تمارس حياتها اليومية من دون أي اندهاش. أستطيع أن أذهب أينما شعرت بالسرور، فلقد عاشت حياتها من دوني لعدة قرون.

كما أن "عائشة" لم تُعَانِ كثيرًا في غيابي، فهي مهووسة بغياب "أورهان" الآن، ولذلك لم تتفاجأ عندما رأتني أمام بابها، والله وحده يعلم ما الذي ألهمني الأمل بعد كل هذا، والجرأة التي دعوت أن يلهمني إياها حتى أشاركها مغامرتها، فلقد أردت أن أكون بجانبها، أدعها تضع رأسها على كتفي عندما

Twitter: @ketab_n

تقع في براثن اليأس، أن أدعها تحدثني عندما تفتقد زوجها، كنت آمل أن يتحقق شيء ما من تلك الأفكار التافهة العادية.

- لقد كلمت عمّه أمس، فلديه علاقات مع الشرطة، أخبرني بأنهم سينتهوا إلى نتيجة خلال أسبوع.

- جيد جدًا.

ولكنها لم تبدو في حالة جيدة على الإطلاق، حيث خفت بريق عينيها الجريء، وبدا وجهها هزيلًا، ولم يلمس المقص شعرها لمدة، حيث اعتادت أن تقصه بانتظام كل أسبوعين، وبدأ الشعر ينمو أعلى رأسها ويهدد بزوال شكل "جان سيبرج" التي كانت تشبهها، كانت ترتدي عباءة ملطخة ببقع الصلصة، حيث قضت أيامها الماضية بلا نوم جالسة بجوار التليفون.

- استريحي قليلًا، فأنا هنا الآن.

رفعت عينيها ونظرت إلى وجهي، وبدت وكأنها لاحظت وجودي حالاً. أطفأت سيجارتها وقالت:

- أجل، من الأفضل أن أتكوم في أي مكان وأخطف لحظات من الراحة.

- سأوقظك إذا ما اتصل أحد.

- سامحني لو سمحت.

وفي تلك اللحظة عادت إليّ "عائشة" التي أعرفها، حيث أكملت:

- خفتُ قليلًا أثناء غيابك، وحتى أكون أمينة، لقد شعرت بالوحدة.

بعد سماع تلك الكلمات، باستطاعتي المكوث بجانب التليفون طوال حياتي، ثم قلت لها بنغمة عادةً أدخرها لـ"إزجي":

- ادخلي، نامي ساعتين على الأقل.

Twitter: @ketab_n

عندما ذهبت لتنام، قمت بترتيب المنزل، فتحت الشباك، فدخل هواء نوفمبر المنعش. فضيت الطفايات، وغسلت الأطباق، وفي ظل هذا الزخم، بدأت أنفض غرفة المعيشة، ولكنني لم أكمل، حيث ثار تراب كثير جدًا. كان يوم الاثنين هو اليوم الذي تقوم فيه "عائشة" باستدعاء عاملة تنظيفها، وبما أن حالة المنزل هكذا، فلا بد أنها لم تستدعها، وتأكدت من عدم ذهابها إلى العمل لعدة أيام.

إحساسي تجاه "أورهان" كان هو أكثر ما أدهشني في ظل كل ما يحدث، فلم أشعر بالغيرة أو الغضب، فما زلت حتى تلك اللحظة أتعامل مع الموقفين على حدة؛ حيث بدا لي أن مشاعري تجاه "عائشة" ليست ذات صلة بموضوع انفصالهما، فلكي يظل العقل البشري عاقلًا، فإنه يقوم بعمل حركات مستحيلة.

وكان التفكير في علاقتي بـ"أورهان" أصعب من التفكير في علاقتي بـ"عائشة" أو في علاقة "عائشة" بـ"أورهان"، ربما لأنه لم يكن هناك شيء يضاهي علاقتي بـ"أورهان". لعدة سنوات، لم نخرج أبدًا وإلا كانت معنا واحدة على الأقل من زوجاتنا، ولم تكن هناك أبدًا قواعد للحديث الذي طورناه سويًّا، وعندما نجلس في البيت، أو بمعنى أوضح عندما تذهب زوجاتنا إلى المطبخ سويًّا، فكل ما كنا نفعله هو البقاء صامتين أو يسأل كل منا أسئلة غبية عن عمل الآخر، عاملنا بعضنا بعدم ثقة لعدة سنوات، بينما اعتقدت زوجاتنا أننا أصدقاء.

وذات مرة، خرجنا جميعًا يوم إجازة، ولم تكن "إزجي" قد وُلدت بعد، حيث كان إيقاع الحياة أبطأ، والتفاهم بيننا أكبر، ولم تكن "نازلي" قد تركت وظيفتها بعد في المؤسسة، لم تكن وظيفة ذات راتب كبير، ولكنها كانت سعيدة بها. كانت تقوم بالاعتناء بالفنانين الأجانب الذين يأتون إلى المدينة لإحياء الحفلات، حتى لا يجرون وراء نساء المدينة كالدجاج الذى فقد رأسه. كانت تعود للمنزل متعبة للغاية بسبب كثرة نزواتهم الغريبة، وأثناء شكوتها لي كنت أستطيع أن أرى أنّها سعيدة بعملها رغم كل هذه المشكلات، كانت سعيدة لأنها

Twitter: @ketab_n

حاربت التنانين وحدها، كانت تسعد لاستطاعتها مباغتة الحياة، وكانت تنتهي لياليا بممارسة حب لا يرقى لممارسة جسدية.

كنّا شبابًا.

أتذكر التجول في شوارع "كنيدوس" القديمة، حيث كنت أحتضن خصر "نازلي"، وتحضن "عائشة" خصر "أورهان"، وتعب بطوننا من التنقل السريع داخل العربات لساعات على الطرق الجبلية، وأعيننا تراقب مرور الزمن الذي يتدفق خلفنا من دون أن يلمسنا، وشفاهنا جافة ومشقوقة بفعل الحرارة، كنت قد مللت من الأطلال، بينما كان "أورهان" يخط بالقلم على كل فسيفساء، ويرتل أسامي الشعراء اليونان، وكان من الواضح جدًا أن كل تلك الأسماء الجميلة للرجال المنتهية بـ"أوس" أو "إيس" لن تحميني من الحرارة.

استأذنت ثلاثتهم وعبرت شوارع "كنيدوس" بسرعة وألقيت بنفسي إلى الحاضر.

ماحدث لي ذلك الظهر في منتصف "أجورا" سأضعه فيما بعد في منتصف حياتي، لم تكن نقطة مهمة جدًا، حيث بدأت تتضاءل على يد ما فعله القدر بي، ولكنها لا تزال تقسم حياتي قسمين، ما قبلها، وما بعدها.

وكانت الحانة في منتصف ثلاثة طرق، وكانت مبنية أساسًا حتى يأتي بحارة الرحلات بزيهم الأزرق ليشعروا بالحزن أثناء مشاهدتهم لغروب الشمس عند توقفهم في "كنيدوس"، وأذاع الراديو أغنية من موسيقى البوب لم تكن مناسبة تمامًا لجو الورع الذي كنا نعايشه، كنت قد عزفتها بنفسي من قبل في البارات، وبصراحة، جعلتني أشعر بتحسن في تلك اللحظة.

بدأنا الأمر كله في "بهرام كالي" في الشمال، وانحدرنا إلى الشاطئ، توقفنا لنبيت في البنسيونات الرخيصة على طول الطريق. كنت قد اكتفيت من الأماكن التاريخية التي زرناها، وأردت أن أرجع لحياتي في إسطنبول وأشاهد التليفزيون كالمجنون.

Twitter: @ketab_n

أعتقد أن الملل شيء سائل، فهو يحفر لسنوات حتى يفتح ثغرة لنفسه، ثم يبدأ في التدفق منها إلينا، نحاول أن نسد تلك الثغرة بأشياء عدة بالطبع: بالنظرات الحميمة التي نحاول تبادلها كل صباح، وذكرى الخطوات الأولى للطفل الصغير، وجملة "أحبك" التي تجعل الليل يلمع، وجملة "وأنا أيضًا" التي نرغب في مساعدتها لنا، وبكل شيء.

ولكن يظل الملل كالسائل بعد كل شيء، إنه يتسرب من مسامك، في تلك الظهيرة، عندما جلست "نازلي" أمامي دائخة من الحرارة والشعر اليوناني، لاحظنا لأول مرة أننا مللنا بعضنا، والأسوأ هو أن ذلك الملل كان غير أي ملل شعرنا به من قبل، حيث لن يجدي معه أي تعليق ظريف.

قبل تلك النقطة الضئيلة التي قسمت حياتي، عشت وشاركت لحظات جيدة وسيئة مع "نازلي"، بينما كانت السنوات العشر التي تلت تلك النقطة... مجرد عشر سنوات مرت من العمر.

23

صممت في تلك الليلة، وغالبًا أجبرتُ "عائشة" على العشاء، فبإمكاني أن أجعلها تقضي وقتًا جيدًا ما دام معي مال، طلبت منها أن ترتدي أفضل فساتينها، كان هناك شيء ما في "عائشة" يجعلها تتشبث جيدًا بالحياة، وأعجبني هذا، ولم أرد لها أن تخسره.

ذهبنا إلى "برج العذراء"، حيث إنه أغلى مكان أعرفه، أخذتنا المركبة من "كابتاش" وأنزلتنا في الجزيرة الصغيرة. ارتدت "عائشة" فستانًا أزرق لم أره من قبل، وعليه المعطف ذي الطوق الفرو، وحذاؤها الأسود الطويل، وارتديت أنا بدلة داكنة وعليها كرافات لأكمل الزينة اللازمة لهذه المناسبة، جلسنا في الصف الخلفي من المركبة، وشاهدنا أضواء المدينة بدهشة وهي تعلو وتهبط كلما تحركت المركب على الأمواج، كانت هذه هي أول مرة نزور فيها البرج، واكتشفت أن أحد أعضاء الفرقة هناك، كان صديقًا لي، فتمنيت أن أحصل على خصم.

وافق المطعم توقعاتي، أعني أن كل شيء كان أنيقًا جدًا، فالفرقة الموسيقية والسماعات الداخلية جيدة جدًا، وعند دخولنا، كانوا يعزفون مقطوعة عظيمة من موسيقى "الريبتيكو". ظننت أن "عائشة" عادت لطبيعتها التي أحبها مجددًا عندما سمعت صوتها الهادئ وهي تشكر الجرسون الذي أقعدنا، ولكن قبل أن تكتمل فرحتي، عادت إلى الصمت ونظرت عبر النافذة إلى الخارج.

Twitter: @ketab_n

وأثناء قيامي بإشعال سيجارتها سألتني:

- لقد فاجأتك، أليس كذلك؟

- هل رأيتني متفاجئًا من قبل؟

- يبدو أن أدائي ليس منطقيًا.

- وبماذا يفيدنا المنطق؟

- إنكَ تجيب عن أسئلتي بأسئلة؟

- لا أعرف... هل أفعل هذا حقًا؟

كانت عيناها تنظران إلى الخارج، انعكس وجهها على زجاج النافذة، رأيت ابتسامة على شفتيها، ابتسامة "عائشة" المعهودة.

- محمد، فلنجده، اتفقنا؟

- أكيد.

- فلنجده ونسحقه.

- حسنًا.

- لنُرِه معنى أن يفعل هذا بيَّ!

- سَيرى...

تَعرَّقت بشدة في تلك اللحظة، هل كان الجو حارًا جدًا في ذلك المكان؟

بدأ الجرسونات والابتسامة على وجوههم في وضع اللمسات الأخيرة على ترابيزتنا التي حاوطوها من الجانبين، وطلبت نبيذًا أبيض ولم تعترض "عائشة"، فبطريقة ما لم يندهش أحد من عودتي للشرب مرة أخرى.

- هل تقرأ الروايات البوليسية؟

- لا أعرف... لا تستهويني، فلا أقرؤها.

Twitter: @ketab_n

- ولا حتى روايات "أجاثا"؟

- لا، في الواقع ليست لديَّ ثقافة الروايات البوليسية، فأنا حتى لا أتعرف على القاتل في الأفلام، دائمًا ما أشك في الشخص الخطأ.

- يا للأسف! تمنيت أن نجد دليلًا ما.

أجبتها بسذاجة:

- نعم، كان من الأفضل أن يحدث ذلك.

تنهدتْ وأسندت ظهرها إلى المقعد، لاحظت أنني لم أكن رفيقًا جيدًا، ولكنني لم أرد أيضًا أن أفعل شيئًا أكثر مما قامت هي به، وبدلًا من الجلوس صامتين، فكرت في أن أخبرها عن حانة "الجمهورية"، وبالفعل قمت بهذا.

وبعد أن استمعت إليَّ بانتباه، سألتني:

- ماذا تقصد؟ أتقصد أن "علي" و"علي" و"علي" لديهم أخبار عنه؟

- تَذَكَّر "علي" الطويل أنه رآه في الشارع ذات مرة، ولكنه لم يقنعني.

- ولماذا لم تخبرني من قبل؟

- لم أرد أن أقلقكِ بدون سبب.

- بعد إذنك، دع قرار القلق من عدمه لي!

والآن تضايقت مني، ربَّعت ذراعيها ونظرت إلى الخارج مرةً أخرى على مطعم "سالاجاك"، كانت تُحرك جفنيها بسرعة مثلما كانت تفعل عند غضبها من "أورهان"، كان مطعم "سالاجاك" مهجورًا تقريبًا، بدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا، وكونت مع بريق برج "العذراء" منظرًا كئيبًا جدًا.

- لنذهب إذا ما أردتِ؟

- إلى أين؟

- إلى "الجمهورية"، سيسعد "علي" الطويل إذا ما رآكِ أيضًا.

Twitter: @ketab_n

- هل سيتذكرني؟

- أجل.

- ولكننا طلبنا طعامًا.

- لا عليكِ، سنأكل هناك.

دخلنا حانة "الجمهورية" عقب ساعة تقريبًا مرتدين فراءنا، كرافتاتنا، وشعورنا مبتلة، وبما أن برج "العذراء" جزيرة منعزلة، فلا يمكنك الرحيل عنه بإرادتك، كان عليَّ أن أقنع طاقم عمل المركب أن يقوموا بعمل توصيلة خاصة بنا، حيث أخبرتهم بأن "عائشة" مرضت فجأة، وأعطيتهم بقشيشًا زائدًا أيضًا.

لم تكن "الجمهورية" مزدحمة، كانت الترابيزات المجاورة للنافذة فقط هي المشغولة، وعلى الترابيزة الوسطى جلست مجموعة يبدو عليهم أنهم زملاء في شركة واحدة، كانوا يجلسون بجدية تجعلك تشعر بأنهم يناقشون سرًا ذريًّا أو شئ من هذا القبيل. جلس الشاعران العجوزان في الركن نفسه أيضًا وكان معهما شخص في نفس عمري على ترابيزتهما.

استقبلني "علي" الأوسط:

- كنت سأتصل بك، اجلس، دقيقة وأعود إليك.

24

سألتني "عائشة" ، كانت تبدو متوترة للغاية:

- هل تعتقد أن لديه أخبارًا؟

- اجلسا على الترابيزة التي في الركن.

أخبرنا "علي" بذلك وهو يومئ تجاه الترابيزة التي يجلس عليها عمال الشركة:

- سأكون معكما بعد خمس دقائق.

خلعت "عائشة" معطفها وعلقته على ظهر مقعدها، فاقتنصت الفرصة لأخلع الكرافات، على أية حال، كانت ملابسنا رسمية للغاية بطريقة لا تناسب الجو في "الجمهورية".

- آمل أن تكون أخبارًا جيدة.

- سنرى.

- وماذا إذا كانت أخبارًا سيئة؟

- لا أعتقد هذا.

Twitter: @ketab_n

- وكيف عرفت؟

- لم تكن على وجهه أي إشارة تدل على ذلك.

أخذت خِلَّة أسنان وكسرتها نصفين، ثم كسرت كل نصف إلى نصفين، واستمرت في عملية الكسر مستخدمة أظافرها، وعندما عاد "علي" كانت مشغولة بتكسير قطع الخشب الصغيرة.

- كان "أورهان" هنا ليلة أمس.

قالها "علي" من دون أي تأثير في صوته، وصُدِمَتْ "عائشة" لدرجة جعلتها تعجز عن الكلام، فسألته أنا:

- كيف كان حاله؟

- جيد، بدا طبيعيًا، لم يبد غريبًا.

- ألم يخبرك بشيء؟

- أشياء عامة، مثل أن الاشتغال بالتدريس الخاص لم يصبح جيدًا، وأنه يفكر الآن في امتهان وظيفة أخرى.

سألته "عائشة":

- هل كان وحده؟

- لا، كان معه شاب فظ الوجه.

- ألم يخبرك عن هوية ذلك الشاب؟

- لا، لم يفعل.

- يا ليتكَ سألته.

- يجب ألا أفعل، وإلا أصبحت قليل الأدب.

Twitter: @ketab_n

- هل ذكرني؟

- أخبرني عن مطعمكِ وأن سير العمل به على ما يرام، فليحمكِ الله.

- أي شيء آخر؟

- لا، لا شيء.

- وما الذي يقوم بفعله الآن؟

- كما قلت، لم يتحدث عن شيء محدد، آه، كان هناك حديث عن حقل عنب، ولكنني لم أسمعه جيدًا.

- حقل عنب؟

- يبدو على الشاب الذي معه أنه رجل أعمال، سمعت أشياء من قبيل "سعر العنب"، جزيرة "بوزجادا"، "سجهيموزجادا"، لم يخبراني بشيء عنها، ولكنني سمعت هذا أثناء تخديمي عليهما.

- الله وحده يعلم ما سمعته.

- نعم.

ابتسم وأضاف:

- يسمع المرء أشياءً، حتى وإن لم يرد أن يسمعها.

وصل "علي" الطويل ومعه الخادم ذي النمش، والذي كان يعاني من حجم صينية المقبلات الكبير والذي يساوي حجمه تقريبًا. كان يحاول حملها بدون أي خلل. فتح "علي" زجاجة "الراكي" وصب لكل منّا، كان لا يزال يعرف المقدار الذي يشربه كل منا.

ثم سأل "علي" الأوسط:

- هل أخبرتهما؟

Twitter: @ketab_n

- أخبرتهما لتوِّي.

فعاد إلينا وسأل:

- ما رأيكما؟

- حسنًا، ما زلنا لا نفهم، فـ"أورهان" لم يقم بمصادقة تلك النوعية، على الأقل كما كنا نعلم عنه.

وأضافت "عائشة":

- كما أنه لن يعرف شجرة العنب إذا ما رآها.

رفعنا كؤوسنا، وشربنا أول رشفة على شرف أيامنا الماضية، وغرابة ليا هذه والأشياء الغريبة التي تنتظرنا في المستقبل.

سأل "علي" الطويل "علي" الأوسط وهو يشير برأسه إلى ترابيزة الشعراء:

- هل تحدثا إلى الأساتذة؟

- هل يجب أن يتحدثا إليهم؟

- قد يكون هذا مفيدًا.

- ما الذي سنحدثهم فيه؟

- ذهب "أورهان" وجلس معهم عقب رحيل صديقه.

- يجب أن نمر عليهم إذًن.

- اذهب.

قالها "علي" الطويل لزميله. وأضاف:

- اذهب واسألهم.

Twitter: @ketab_n

نهض "علي" الأوسط وذهب إلى ترابيزتهم، وأخذ طلبات الترابيزات التي مرَّ عليها في طريقه، وأثناء شرحه للموقف لهم، نظر الشاعران إلينا بتركيز، كانا يحاولان تذكرنا على ما اعتقد، ثم ابتسما لنا.

- وأخيرًا سمح لنا الحظ أن نشرب سويًّا الليلة.

أعلن الشاعر الأكبر هذا، وهو ذو وجه لطيف، ويرتدي قبعة بحار قديمة الطراز، وكان ينظر إلى "عائشة" بإيماءة غزل من جانب شفتيه.

أجبته:

- أجل، فنحن نحيي بعضنا الآخر منذ زمن بعيد.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أجلس فيها مع ثلاثة شعراء على ترابيزة واحدة في الوقت نفسه، ولم أكن متأكدًا من قراءتي لأعمالهم كاملة، وهذا هو سبب اضطرابي قليلاً، فعلقت جميع آمالي على "عائشة"، فهي مهتمة بالشعر.

ابتسمت "عائشة" وحيتهم:

- شكرًا على دعوتكم لنا.

فأجابها الشاعر الذي يرتدي قبعة البحار:

- العفو، إنكما أصحاب الدعوة ولسنا نحن.

أعلم أن للشعراء نظرة مختلفة للحياة وأنهم يتحدثون بالمجاز وبالاستعارات.

وهذا هو سبب حذري من أن أبدو غبيًا أثناء حديثي معهم.

وضع الشاعر الآخر الجالس بجانبي ذراعه على كتفي، حيث اعتدنا أن نحييه أيضًا عند مجيئنا للحانة، أعجبتني قصة شَعره "الإسبايك"، ولحيته البيضاء، وعينيه اللتين تتحولان إلى شَرطتين عندما يبتسم.

Twitter: @ketab_n

- هل تسمحا لنا بفتح النافذة؟

أجبت بأدب:

- بالتأكيد، افتحها لكي تضئ لنا المكان أكثر.

سَعَلَ وقال لي:

- لا، ليس الأمر هكذا، ولكن المكان مليء بالدخان.

عانيتُ في فتح النافذة، حيث أصابت الرطوبة الخشب وجعلته ينتفخ، ثم لمس نسيم نوفمبر وجهي، وعندما عدت إلى مقعدي، كانت "عائشة" قد فتحت الموضوع وبدأت في مناقشة تفاصيله.

استغرب الشاعر ذو قبعة البحَّار:

- ماذا تقصدين؟ هناك رجل في هذا العالم، ومحظوظ جدًا حتى يتزوج من امرأة مثلك، وفي يوم ما يختفي ببساطة، هل هذا طبيعي؟

وأضاف الشاعر ذو اللحية البيضاء:

- عَرَّفناه على أحد الرجال هنا، وبعد أن تقابلا جاءا للجلوس معنا على ترابيزتنا.

- هل كنا لنفعل ذلك إذا ما عرفنا قصته؟

- أبدًا! أبدًا!

- في البداية كنت غاضبة جدًا، ولكن غضبي تلاشى الآن، إنني قلقة فقط.

أجابها الشاعر ذو قبعة البحار:

- لا تقلقي.

وأكد الشاعر ذو اللحية البيضاء:

Twitter: @ketab_n

- نعم، سيصبح ثريًّا.

- وكيف هذا؟

أجاب الشاعر الثالث:

- لم يقل لنا حتى الآن.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتكلم فيها، كان في مثل عمري، وله صوت عميق وقوي، ولكن نظارته وأنفه الأفطس قليلاً، والحمالات التي يرتديها على الرغم من نحافته، أعطته مظهرًا طفوليًّا، ثم أضاف وهو يبتسم:

- لقد قرر أن يصبح ثريًّا، وتمنينا له أن يتعافى سريعًا.

Twitter: @ketab_n

25

جلست بجوار "جولومساشر" على الأريكة برواق المستشفى، وقد بذلت مجهودًا في عبور "كورتوش" لإقناعها بالمجيء معي، وكانت لديها أعذار عديدة لعدم ترك منزلها؛ حيث بَنَتْ لنفسها عالمًا بقوائم قصيرة لطلبات البقالة ومصاعد صغيرة لنقل المتاع كما غلاية مياه عقب سجن زوجها، وتفهمت إحساسها بالأمان في ظل تلك البيئة، ولكنني علمت أيضًا رغبتها في زيارة "نهاد آبي"، فوافقت أخيرًا أن تعطي سلتها إلى ابنها الأكبر ذي السبعة عشر عامًا، وارتدت معطفها.

قالت المرضة:

- تفضلا بالدخول.

فسألتها "جولومساشر":

- كيف حاله؟

- كما هو.

أجابتها وهي تنظر إليها، ثم نظرت إليَّ وقالت:

- لا تغيير.

Twitter: @ketab_n

جلسنا على الأريكة المقابلة للسرير، حيث يرقد "نهاد آبي" مُحاطًا بالأجهزة تمامًا كما رأيته آخر مرة، نَمَتْ لحيته قليلاً، واحتضنت "جولومساشر" حقيبتها، لم تصل قدماها إلى الأرض لأنها قصيرة جدًا، فأخبرتها:

- كلما أتيت إلى هنا، يبدو لي أن "نهاد آبي" يستمع إلى ما نقوله، يستمع ويجيب بصمت من جانبه. أشعر بتحسن عندما أفكر بهذه الطريقة.

- أجل، فمحادثته ممتعة، أليس كذلك؟

- كيف حال زوجِك؟

- استئناف، القضية على جدول الاستئناف، نحاول أن نفعل أي شيء، ولكن يبدو أن لا فائدة.

- وما الذي فعله؟

- حادث طريق، فزوجي سائق شاحنات، وذات ليلة كان نازلاً من على تل في "أورتا كوي"، خذلته الفرامل، فصدم بائعًا متجولًا يبيع الأرز على جانب الطريق، تناثر الأرز في جانب، وطار البائع في الجانب الآخر، مات المسكين في الحال، ومن ساعتِها وزوجي في السجن.

- يا للأسف.

- بالفعل، يا للأسف!

- وماذا عن أبنائك؟

- ترك الكبير المدرسة عقب الحادث، ويعمل في مطعم، وسينهي الصغير المرحلة الابتدائية هذا العام، ثم سنرى.

بدأ ضوء ضئيل يتخلل عبر النافذة، قادمًا من العمارات المحيطة بالمستشفى، ولم يكن هناك سبب لتوقفه عند العمارات، لذلك استمر في الزحف، فزار أولاً شَعري، ثم حجاب "جولومساشر"، واستمر في طريقه بنفس الكسل، عبر قدمينا،

Twitter: @ketab_n

وعبر البلاط الأزرق والأبيض، وتسلق على سرير "نهاد آبي"، ومرَّ على سوالفه الرمادية، وتوقف هناك، ثم وثب عصفوران من السماء الرمادية بالخارج وهبطا على النافذة، وسقط خيالهما على الملاءة البيضاء لسرير "نهاد آبي"، وكانت حركتهما متشنجة ومثيرة مثل حركة الممثلين في الأفلام القديمة الصامتة.

قالت "جولومساشر":

- يجب أن نعطيهما شيئًا ما، فهما يجلبان الخير.

لم أستطع مساعدتها، ولكنني ضحكت مجاوبًا:

- لو كنا نعلم بمجيئهما، لجلبنا شيئًا معنا.

فتحت "جولومساشر" حقيبة يدها، وأخرجت سميطة نصف مأكولة ملفوفة في ورقة جرائد، ولم تكن لدي أي فكرة عن وجود هذا الشيء بحقيبتها. طار عصفوران إلى داخل الغرفة عندما فتحت النافذة، ولكن لم تأبه "جولومساشر" لذلك أبدًا، بل فتَّتتْ السميطة على النافذة، وأثناء قيامها بذلك رأيت شفتيها تتحركان متمتمة بشيء ما، وملأت تراتيلها الغرفة، بينما لم أتذكر أنا أي شيء عدا الفاتحة، فأغلقت عينيَّ متشبثًا بأحد الحروف الملتوية التي كانت تدور في الغرفة، تمنيت السلام الداخلي والسكينة لـ"نهاد آبي"، السلام والسكينة، مثل المياه، مثل الرمال، مثل الريح... لأن الحياة أرهقته بما فيه الكفاية.

رحلنا مع "جولومساشر" إلى الناصية، تمشت هي مع "آدلي تيزي" مترنحين من جانب لآخر تجاه محطة الأوتوبيس على الجانب الآخر من الشارع، فلديها عمارة سكنية تنتظرها.

وأنا، أنا أحسدها، فعلى الرغم من كل العقبات، إلا أنها تنعم بشيء لا أملكه، فلا تزال الحياة تتوقع منها شيئًا ما.

Twitter: @ketab_n

فإذا ما قررت أن تختفي يومًا ما، فإنها ستخلف فراغًا كبيرًا في حياة ساكني منزلها، أما لو قررت أن أختفي أنا يومًا ما، فلا أعرف حقًا ما الاختلاف الذي سينتج عن هذا.

لم يكن ورائي شيء أفعله طوال اليوم، فذهبت إلى "هانيميلي" لأرى "عائشة"، كان وقت الظهيرة، والمطعم مزدحمًا، ولم تكن "عائشة" هناك بعد، وكانت "صفية" تحاول جاهدة أن تقدم طلبات الزبائن في الوقت نفسه مع الجرسون، وعندما رأتني، ظهر في عينيها تعبير غريب، اعتقدت أنّه "من الأفضل أن ترحل فورًا"، ولكن أثناء رفع يدي لتوديعها، أشارت إليَّ بما يعني "انتظر دقيقة"، فتوقفت في مكاني بين الباب وبين عتبة المطبخ بدون أن أعلم ما الذي يتوجب عليَّ فعله.

ثم اقتربت مني وهي تدوِّن بسرعة في شيكات الزبائن وسألتني وهي تحاول الابتسام:

- ممكن نتكلم؟

وهي ابتسامة لا تناسب النظرة الصارمة على وجهها، فأجبتها:

- بالتأكيد، عن ماذا؟

- عن "عائشة"، لو سمحت اجلس، سأعود إليكَ بعد دقيقتين.

لم يكن بالجو أي علامة عن شعاع الشمس الذي أضاء غرفة "نهاد آبي"، حيث تسابقت السحب الرمادية الداكنة إلى غزو السماء، وكانت الرياح تهب بقوة، وكأن الشتاء سيعود مرة أخرى لحياتنا، حيث ارتدينا على مدار عدة أيام طبقات من الملابس مثل الخس قبل أن نخرج، لم أرد أن أتحدث إلى "صفية"، فليس لديَّ فكرة عن الموضوع الذي تريد أن تحدثني فيه، ولكني شعرت بأنه ليس بالأمر الجيد.

Twitter: @ketab_n

كانت "صفية" عند الكاشير تحاول أن تنظم كوبونات الطعام المستخدمة للدفع، عاقصة شعرها إلى الخلف في هيئة ذيل حصان، وترتدي سترة فضفاضة ذات عنق أضفت عليها جوًا طفوليًّا، ولم يتغير تعبير وجهها أثناء إدارتها للكاشير، فهي تطالع كوبونات الطعام، والناس، والأطباق المتسخة، أو الزهور، بالنظرة نفسها في عينيها.

وعقب رحيل آخر زبون، جاءت وجلست أمامي:

- أراكَ لم تطلب أي شيء...

- لم أرغب في أكل أي شيء.

حيث كانت معدتي تؤلمني منذ الصباح لسبب ما.

- كما تريد.

- أين "عائشة"؟

- في المنزل، لن تأتي اليوم.

- لماذا؟ هل أصابها شيء؟

- شيء لا يستحق القلق.

أجابتني وهي تشعل سيجارتها، ثم أضافت:

- لم تشعر بتحسن في الصباح، أعني نفسيًّا، كانت تعاني من صدمة ما، لم تعتد روحها على تلك الأشياء، ولذلك ستلاقي صعوبات في التغلب عليها، علينا أن نتركها وشأنها، فبإمكاننا أن ندير المكان من دونها لأيام قليلة.

وعندما لم أجب، سكتت لدقيقة، ثم ارتدت إحدى ابتساماتها المستهجنة وتنهدت:

- أعلم شعورَك.

Twitter: @ketab_n

ساء حال معدتي الآن، وشعرت بحرقان في قصبتي الهوائية، وانتفخت عيناي بالدموع، خشيت أن تنتابني تشنجات عاطفية أمام شخص غريب تمامًا عني، ولكن "صفية" استمرت بنغمة صوت أكثر هدوءًا.

- أنا و"عائشة" صديقتان منذ عشرين عامًا، هل تعلم هذا؟

- أعلم.

حلَّ علينا صمت آخر، وفي هذه اللحظة جاء الجرسون وسأل "صفية" عن شيء لا أذكره الآن. كان هناك أتوبيس في طريقه إلى "ميشديكوي"، وهبط طائر تحت المظلة ثم طار مجددًا. وانقضت دقيقة عصيبة من حياتنا.

وسألتني "صفية":

- وأنتَ... هل ستحزنها كذلك؟

Twitter: @ketab_n

26

عندما رجعتُ، كانت "عائشة" لا تزال بالمنزل، لم تكن بحالة جيدة، حتى مطر ليلة أمس لم يُحَسِّن من حالتها، قلت لها:

- على الأقل نعلم الآن أنه على قيد الحياة.

- ويستعد لعمل شيء ما.

- نعم.

والحقيقة أن مجرد التفكير بشأن "أورهان" أصبح شيئًا مسليًّا الآن.

- أثار حيرتي ما قاله لنا هؤلاء الرجال ليلة أمس. كانت ليلة مريبة جدًا، أليس كذلك؟

- نعم.

- توقف عن قول "نعم" لو سمحت.

- هل تحتاجين أي دواء؟

- لا تقلق.

- ولكنِك في حالة سيئة.

Twitter: @ketab_n

- لدينا الآن حقل العنب، ورجل العنب أيًّا كان هو، وثلاثة شعراء يعتقدون بأن "أورهان" سيصبح ثريًّا. الأمر يبدو وكأنه فيلم لـ"فيلليني".

لم أعرف أي شيء عن أفلام "فيلليني"، ولكني قلت:

- إذا ما سألتيني، فإن هذه علامة جيدة بأن يكون مقدمًا على شيء، هذا يعني أنه لن يقدم على شيء غبي، سأذهب وأحضر لكِ بضعة أدوية الآن.

- لا تشغل بالَك.

- حرارتِك مرتفعة يا عزيزتي.

- لا تشغل بالَك، لا تقلق، "محمد" أتعلم ما لم أستطع قبوله؟ لقد رجوت ذاك المغفل أن يأتي ويعمل معنا في المطعم لعدة شهور، ولكن ما الذي فعله؟ لم يسمعني حتى، جلس في المنزل يقرأ الشعر، أخذ يشرب ويقضي الليل سكران، والآن يجلس على ترابيزة مع شخص غريب ويُخطط للانتقال إلى "بوزجادا"، أتعلم ما يعنيه هذا؟

- لا نعلم إذا ما كان ينوي الانتقال إلى "بوزجادا" بعد.

- بل نعلم.

- لا نعلم، وأنتِ مريضة، ويجب أن أذهب لأحضر إليكِ بعض الأدوية قبل أن تغلق الصيدلية.

- انتظر، هذا ما يعنيه: أصبحت "عائشة" على الرف.

- "أورهان" ليس موجودًا هنا، يجب أن تقررا معًا.

توقفت عن الكلام فجأةً، وتوقفت أنا كذلك، ولم أكن أتوقع هذا، كنا نجلس على ترابيزة الغداء بالقرب من النافذة، اتجهت لتنظر إلى الخارج، ومرة أخرى أعجبتني رقبتها الطويلة الناعمة التي تشبه رقبة البجعة، احمرَّ أنفها من كثرة

Twitter: @ketab_n

البرد، واستطال شعرها بالفعل الآن، ولم تبدو تسريحتها الحالية سيئة لي في ضوء تلك الليلة، أعتقد أن الشعر الطويل سيليق عليها أيضًا.

- نعم.

قالتها وهي تمسح أنفها:

- لقد أخذنا القرار.

تلمست يدها، ومرة أخرى قلت لها بالنغمة نفسها التي أكلم بها ابنتي:

- "عائشة"، أعتقد أن كل القرارات في الحياة يمكن إلغاؤها، فالناس يجلسون معًا ويتناقشون، ويعيدون النظر في الموقف، بإمكاننا إلغاء القرارات إذا ما تطلبت الضرورة ذلك، ولكنك فعلتِ ذلك بنفسِك، من الأفضل أن نترك الأمور لفترة، فالزمن يعتني بكل شيء.

- أتعتقد حقًّا في هذا؟

- بالطبع.

- هل تشعر بأن الزمن اعتنى بكَ؟

- موقفي مختلف.

بدأت في قول شيء ما، ثم سكتت، لم أكن أعلم بأي شيء كنت أجيبها إذا ما كانت قالتها، ضغطت على يدي، راسمة ابتسامة بشفاهها.

- حسنًا "محمد"، فلندع الأمر.

- أنا خارج الآن، سأعود في لمح البصر.

- أتعلم ماذا ستشتري؟

لم أكن أعلم، لم أستخدم أدوية لنفسي، ولم أكن سأشتري لها الدواء الذي كنت أشتريه لأمي، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- اشتري "سيدرجين" و"ثيرافلو"، لا أعلم إن كانت حالتي تتطلب كل هذا، ولكنهما على الأقل يساعداننني على النوم.

ارتديت معطفي وتوجهت إلى الباب، وأثناء خروجي نادتني:

- "محمد"...

- نعم...

- كانت خروجة "برج العذراء" جميلة.

- نعم، كانت جميلة جدًا.

- شكرًا، لن أنساها أبدًا.

والآن عرفت لماذا يدير الرجال ظهورهم عندما تحدثهم النساء دائمًا في الأفلام التركية القديمة، حيث امتلأت عيناي بالدموع، والتفت إليها، وأنا متأكد من أنني مقدم على ارتكاب فضيحة ما.

أخبرتها من دون النغمة الباهتة في صوتي:

- وأنا كذلك، أعتقد أنني لن أنساها أبدًا.

Twitter: @ketab_n

27

ثم جاء الشتاء، جمع الخريف أغراضه ورحل دون أن نلحظ، وفي ليلة واحدة هرب كورقة جافة ترفرف في الرياح، وعندما استيقظنا، استقبلنا مطر لم نرَ مثله من قبل ورياح تصفع الفرد على وجهه، سيأتي سمسار البورصة ليأخذ الجيتار الخاص به في المساء، وكنت قد اقتربت من الانتهاء من تصليح جيتار "الوشبورن" تقريبًا، ولكنني كنت لا أزال قلقًا، حيث تنقصني الخبرة في إعادة تركيب المشط، ولم أرد أن أسمح بوجود أي خلل في اللحظة الأخيرة.

شعرت بتحسن أثناء انشغالي بالجيتار، حيث أعجبني انعكاسي على المرآة المعلقة على الحائط المقابل وأنا جالس على ترابيزتي الصغيرة، يبدو الأشخاص أفضل أثناء قيامهم بأعمالهم.

عادةً ما يكون خروج المشط من مساره نتيجة لخطأ المستخدم، حيث لا تخرج أمشاط الجيتار عن مسارها فجأة، وإنما تخرج بسبب الطريقة المهملة التي يحملها بها أصحابها أو بسبب تعرض الجيتار للصدمات، ولا يهم إذا كانت الأوتار مضبوطة أم لا - ففي بعض النوتات الموسيقية يمكن إغفال النغمة أحيانًا - وهي وظيفة تحتاج إلى الدقة أيضًا، حيث يمكن العزف على جيتار لا أمل منه في محاولة لضبط نغماته، وفي الواقع فإن العازفين الهواة لا يعتنون كثيرًا بمثل تلك الأشياء، ولكن المحترفين يشعرون بالضيق الشديد إذا ما وجدوا اختلافًا

Twitter: @ketab_n

طفيفًا في الأصوات الناتجة عن الأوتار الموجودة بأعلى عنق الجيتار.

والأمر بسيط، حيث تقوم بلف المفك، وتفك السلك المتصل بمنتصف العنق المشدود، ثم تسحب المشط إلى مكانه الأصلي مرةً أخرى.

أحب جيتارات "الوشبورن"، عندما رأيت "نهاد آبي" لأول مرة في مقهى "فلفلة" كان مُمسكًا بجيتار "وشبورن" أحمر اللون. رفعه عاليًا بيديه، وكان يتفحص عنقه. كنت قد أنهيت دراستي الثانوية، أعزف بالكاد ثلاث نغمات في سطر النوتة الموسيقية، وكان "ألتان" على مشارف التخرج في الجامعة، وبدأ بالتردد على المقهى منذ أسابيع قليلة. كان يحدثنا عن الموسيقى المعزوفة بالجامعة والنقاشات حولها، وكان بذلك يزيد من جمال الموضوع بعقلي، وعندما ذهبت لأقابله أول مرة في الجامعة وجلست خجولاً على ترابيزة في الزاوية، شعرت بأنني أنتمي لهذا المكان.

كان جميع عازفي الجيتار الإسطنبوليين هناك، وكنا نناديهم بـ"إخوتنا الكبار" كما قال "آبي"، كانت هناك تسجيلات لم أرَ أكثر منها في أي مكان آخر، وتعرفت على "سانتانا" و"ثين ليزي"، و"باد كامباني" وغيرهم، انتبهنا وسجلنا كل كلمة خرجت من فم "آبي" في أعماق ذكرياتنا، وفي جيوبنا نحمل ما أعطانا آباؤنا من أموال، وكشاكيلنا في حقائبنا المدرسية، وأمامنا طريق طويل يأخذنا إلى ستوديوهات "أباي روود".

تمطر الدنيا أكثر الآن، توقفت عن لف المفك، وأعطيت لنفسي عشر دقائق للراحة، لأنك يجب أن تُعطي وقتًا للخشب ليستجيب للشد عند إعادة تركيب العنق، ويستغرق الأمر وقتًا حتى ينحني الرأس ببطء، لأن العنق قد ينكسر إذا ما قمت بتركيبه بالقوة، في استطاعتي عمل كوب من الشاي أثناء انتظاري لإتمام تلك العملية. اعتاد "نهاد آبي" أن يقول وأذنه ملتصقة بعنق الجيتار:

- هذا الجيتار لن يعمل، حتى ذاك الطفل الصغير هناك بإمكانه ملاحظة ذلك.

كنت أنا ذاك الطفل الصغير، وكانت تلك هي أكثر لحظة إحراجًا لي في حياتي، أولًا أنا لم أكن أعرف بعد من هو "نهاد آبي"، فلم يكن من الموسيقيين

Twitter: @ketab_n

الذين نشاهدهم على شاشات التليفزيون، ثانيًا لم أعلم لماذا اختصني أنا بالإشارة، لا بد وأني بدوت كالمعتوه في زي مدرستي الثانوية.

أجابه أحد الرجلين الجالسين أمامه:

- ولكننا دفعنا كثيرًا في شرائه.

وأضاف الشاب الآخر:

- أجل، واستغرقنا وقتًا كبيرًا لاستخلاصه من الجمارك.

لم يَبْدُ على الرجلين هيئة الموسيقيين، فهما كبار في السن، لهما كرشان، أعتقد أنهما على وشك الضجر من "نهاد آبي"، ولكنه لم يستطع أن يتجاهلهما، فحمل الجيتار، وأسند "الوشبورن" الأحمر على الحائط خلفه، وابتسم.

- حسنًا بإمكانكما حرقه في الفرن شتاءً.

- اهدأ "نيهو"، ألا يستحق أي شيء؟

- قام شخص ما بتخريب هذا الجيتار، من الأفضل أن تبحثا عن مغفل ينخدع بماركته، وإلا ارموه.

- هل من الممكن أن نجد أحدًا يشتريه؟

- ماذا؟ مغفل؟

- لو سمحت، افهمني جيدًا، أعني أنه من المحتمل أن تجد زبونًا له.

- لماذا؟ ليتكلم الناس عني من ورائي ويصفونني بالأحمق أيضًا.

- لماذا؟

صرخ بها الرجل النحيف، وهبَّ واقفًا مطيحًا بالكرسي خلفه، ورأيت بريق مطواة.

- بمن تصف الأحمق، أيها الوغد أحمر الشعر؟

Twitter: @ketab_n

خفت بشدة في تلك اللحظة، بينما كنت آمل سرًا أن أشاهد مشاجرة حقيقية كتلك المشاجرات التي أشاهدها في التليفزيون، ومع ذلك كان هناك شيء أكثر إثارة من نشوب المشاجرة، حيث لم يتزحزح "نهاد آبي" من مكانه، وهبَّ جميع الجالسين على الترابيزات المجاورة في المقهى مرة واحدة ونظروا إلى ماسك المطواة في صمت، ولم أصدق أن أرى الموسيقيين ذوي الشعور الطويلة في مثل تلك الحالة.

وقال أحدهم:

- تجاهله يا "رجب".. لا تفسد مزاجك بلا سبب.

أخذت رشفة من كوب الشاي، واستمررت في لف المفك بحذر، ولم تكن هناك مقاومة تذكر، حيث لم تظهر مقاومتها للف تحديدًا للمنطقة التي يمكن أن ينكسر منها الجيتار بسهولة.

واجتمعت بـ"نهاد آبي" بالفعل بعد عدة أسابيع من هذا الحادث، وكان يوم جمعة مشمسًا، كنت سأكون كمن ارتكب خطيئة بالذهاب إلى المدرسة في هذا اليوم المشمس الجميل، فذهبت إلى "فلفلة" في الصباح الباكر، حيث كان "نهاد آبي" يقرأ ورقة أمام موقد الشاي، وعندما رآني تعرف عليَّ بإيماءة، وجعلني هذا أشعر بالفخر، فعقب واقعة "الوشبورن" كنت مهتمًا جدًا به، ولكن لم تسنح لي الفرصة للتعرف عليه.

تحركت تجاه الترابيزة بجانبه وقلت:

- صباح الخير.

تمتم وتنهَّد:

- أطلقوا النار على النائب العام "دوجان أوز"، باعتقادك إلى أي شيء سيؤدي هذا الفعل؟

كان "نهاد آبي" يقرأ جريدة "الجمهورية"، وأنا، أنا حتى لا أعلم من هو "دوجان أوز"، فأجبته:

- لا أعرف.

Twitter: @ketab_n

خجلت من جهلي وأضفت:

- إنه لأمر سيئ أن يموت الناس بهذه الطريقة.

- أنت لست بالجامعة، أليس كذلك؟

- لا، ولكن "ألتان" طالب بالجامعة.

- من "ألتان"؟

- صديق من الجيران، أتينا إلى هنا سويًّا، وننوي إنشاء فرقة موسيقية معًا.

- اخبره إذن أن يأخذ حذره، فالجامعات تمر بحالة من الاضطراب.

- سأخبره، إنه ليس مهتمًا بمثل تلك الأمور على أي حال.

- كل ما يهتم به هو الجيتار، هاه؟

سعدت أخيرًا بتحول الحوار إلى موضوع عزف الجيتار؛ فأجبته:

- نعم، نحن نكوِّن فريقًا.

- وستصبحون من المشاهير!

لم تعجبني نغمة الاحتقار في صوته، فقلت:

- سنحاول أن نقدم موسيقى جيدة، والشهرة ستأتي وحدها فيما بعد.

أتذكر "نهاد آبي" وهو يطوي "الجمهورية" ويضعها في حقيبته، ثم مدَّ ذراعه مبتسمًا، وقدم كل منا نفسه رسميًّا للآخر:

- أنا "نهاد".

- وأنا "محمد".

وخفق قلبي حينها.

Twitter: @ketab_n

28

عَلَّمنا "نهاد آبي" كل شيء، ليس فقط عزف الجيتار، ولكن كيفية الاستماع له أثناء العزف، عَلَّمنا كيفية عزف الأغنية لا إفسادها، عَلَّمنا ما هو التكنيك، وما هي المشاعر، أخبرنا بهذا كله لعدة سنوات.

ولكن تلك الأشياء لم تكن بالسهلة علينا، فـ"نهاد آبي" صعب، ويصبح شخصًا مختلفًا كل يوم، فيومًا يثني علينا إذا ما عزفنا بطريقة معينة، وفي اليوم الثاني ينتقدنا بشدة عند قيامنا بالعزف بنفس طريقة أمس، وفي ظل كل هذا الجزر والمد يظل صاحب شخصية صارمة تندفع دائمًا للأمام، ربما تعجز عن التنبؤ بتصرفاته غدًا، ولكن تستطيع أن تعرف كيف سيكون بعد خمسة أعوام من الآن، ولهذا كان محبوبًا جدًا.

كنا في نهاية السبعينيات، وكان البلد يمر بأوقات صعبة، كنا نخشى فتح ستائر منزلنا في "لانجا"، وبدا أن صلوات أمي التي تصليها من أجل سلامة ابنها وأبناء الجيران لن تنتهي، وكنا نعلم جميعًا أن "نهاد آبي" يساري، ولكنه غريب، فلم يسمع أحد عن انتمائه لأي جماعة أيًّا كانت، وكان يواظب على قراءة جريدة "الجمهورية" ولكنه لم يتناقش أبدًا مع أحد في السياسة.

ولكن كانت تنتابه حالات جنون الشك أحيانًا، حيث يؤكد أن شخصًا ما يراقبه، ويأمرنا باتخاذ حذرنا من أي شخص يأتي ويسأل عنه، لم أكن متأكدًا لوقت طويل

Twitter: @ketab_n

جدًا إن كان يفعل هذا من أجل جذب الانتباه أم أنه يعاني فعلاً من مثل تلك المخاوف، لقد كان "نهاد آبي" الذي لا يستطيع أحد أن يسأله عن تلك الأفعال.

وفي الليلة السابقة لأول حفل لنا كفريق "السفن الصامتة"، عزمني أنا و"ألتان" على بيرة، جلسنا في الطابق العلوي لقاعة البيرة بالشارع الرئيسي في "بشكتاش" المطلة على المتحف البحري.

مسح بظهر يده الرغوة من على شاربه وقال:

- يا أولاد، هل أنتم متأكدون من استخدام هذا الاسم للفريق؟

فسأله "ألتان":

- لماذا؟ ألا تحبه؟

وكان هو من اقترح الاسم.

- حسنًا، ماذا أقول؟ يبدو أنه اسم فريق مدرسة ثانوية، ساذج جدًا.

- وماذا تعني كلمة "ساذج"؟

- حسنًا، "ساذج" تعني، لا أعلم بماذا تعني، ولكنني أقصد إنه اسم طفولي بعض الشيء.

بدأ "ألتان" يشعر بالاستياء قليلًا وقال:

- "آبي" كان يجب أن تقول هذا من زمان.

- لقد طبعت الإعلانات وكل شيء، لم أكن أنوي أن أتكلم في هذا على الإطلاق، ولكنني لم أستطع منع نفسي من ذلك.

- لا أرى مشكلة.

- حسنًا، هذا جيد.

- وبماذا كنت تقترح أن نسمي الفريق؟ "آخر سلالة "الموهيكيين"؟

- حسنًا "ألتان"، انتهينا، لا تفتح الموضوع مرةً أخرى.

تدخلت قائلًا:

- نعم، فلا تفتح هذا الأمر مرةً أخرى.

- أنا لا أفعل شيئًا، انظر إلى ما يقوله لنا الآن؟ لدينا حفلنا غدًا وانظر إلى ما يقوله لنا!

- اهدأ يا فتي، اهدأ!

- وماذا إن لم أهدأ؟

- هل تعي كلماتِك؟

- وماذا إن لم أكن أعيها؟

- تعتقد أنك حققت شيئًا ما بمجرد تكوين فريق، أيها الوغد!

وبفضل "آلهة الصمت"، خرجت تلك الجملة الأخيرة في لحظة دخول قاعة البيرة بأكملها في فاصل من الصمت امتد لثانيتين، وبسببه، ظلت الجملة معلقة في الهواء للحظة، وكان للقاعة سقف مرتفع، وبالاستفادة من كل تلك الأجواء، قامت الجملة بعمل جولة في القاعة ثم عادت لتحلق فوق رؤوسنا، والتقط "ألتان" تلك الكلمات ووضعها في الجيب الداخلي لسترته الجينز ونهض ليرحل، فنزل على السلالم بسرعة واختفى.

قال "نهاد آبي":

- ابن العاهرة!

- لم يقاوم سكره جيدًا..

فتذمر وقال:

Twitter: @ketab_n

- لم يكن يتوجب عليه الشرب إذن.

وكان لا يزال يتنفس بصوت غريب يصدره من أنفه.

ثم سمعنا دوي رصاص بالخارج، وكانت ذكرى هذا الصوت المنحوت في ذاكرتنا من عامين كفيلة بأن تخرجنا من أي مزاج كنا فيه عند سماعه مرةً أخرى.

صرخ "نهاد آبي":

- "ألتان"...

ثم نهض، وكاد أن يسقط الترابيزة أثناء قيامه، ونزل على السلالم لاحقًا بـ"ألتان"، نزلهم ثلاثة ثلاثة. وعندما وصلت إلى الباب كان قد عبر الطريق بالفعل ووصل إلى الجراج.

عندما وجدتهما كانا يحتضنان بعضهما أمام محطة العبَّارة، وكان هناك صوت لسارينة شرطة آتية من بعيد، وكان هناك قارب راس في المحطة. كان لـ"ألتان" حبيبة تعيش في"كادي كوي" في تلك الأيام، كان ينظر إليَّ والدهشة في عينيه عبر كتف "نهاد آبي".

- حسنًا حسنًا، إنَك بخير يا فتاي، إنَك بخير.

وفيما بعد علمنا بأنه كان لـ"نهاد آبي" أخ أصغر منه قُتل رميًا بالرصاص في الجامعة منذ ثلاثة أعوام.

تجاهل "ألتان" ما حدث يومها ولم يذكره مجددًا حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

29

- "عائشة" يا عزيزتي، من الأفضل أن تأكلي شيئًا.

- لا أشعر بالرغبة في الطعام.

وكانت تقلب الشوكة في يدها وتنظر إلى الأفق عبر النافذة.

- إذا ما أصابتكِ النحافة الشديدة، ستخسرين زبائنكِ.

- لماذا؟ وما علاقتهم بالأمر؟

- هل سمعتي عن صاحبة مطعم فاقدة للشهية؟

- ولِمَ لا؟

وبدا أنها ليست في مزاج يسمح لها بتقبل المزاح، فلم أكمل، وكانت الرياح في ذلك الصباح تطارد السحب وتجعلها تهرب. أجبرت "عائشة" أن تنهض، وأجلستها على ترابيزة الإفطار، لم نفكر في أي شيء قد يقودنا إلى العثور على "أورهان".

اعتقدت أنه إذا ما خرجت إلى العمل، سوف يتحسن حال تلك الفتاة المسكينة.

أشارت بشوكتها وقالت:

Twitter: @ketab_n

- انظر، "كاموران هانم".

خرجت العجوز إلى الحديقة غير عابئة بالرياح التي شَكَّلت دوامات ترابية حولها وكانت تتأمل الأشجار. كانت ترتدي معطفًا مشمعًا أصفر اللون، وحذاءً ثقيلًا طويل الرقبة.

دفعت بالزيتون أمام "عائشة" علَّها تأكل، وسألتها:

- هل أخبركِ "أورهان" عنها؟

- ماذا؟

- عن المتعهد، إنها تفكر في بيع البيت.

- أعرف.

- وماذا ستفعلين إذا ما باعت؟

- لا أعلم، لم أفكر بشأن هذا الموضوع بعد.

- من الأفضل أن نفكر بشأنه.

رفعت كوب الشاي الفارغ في يدي وأكملت:

- هذا الرجل سيهدم العمارة بالتأكيد.

- هذا آخر شيء نحتاجه الآن.

- في الحقيقة إنني أشفق عليها، فوجهها مؤلم.

- هل تعرف قصة حياتها؟

- هل هي قصة حزينة؟

- كانت مطربة في ملهى ليلي.

وضعت شوكتها وأكملت:

Twitter: @ketab_n

- صب لي شايًا خفيفًا، لو تسمح؟

أثناء تقليبها بالملعقة في الشاي الذي أحضرته لها، حكت "عائشة":

- ذات يوم قابلت رفيق لها في "إزمير"، حيث كانت "كاموران تيزه" تقدم الفقرة الافتتاحية في عرض الموسيقى للبروجرام، وكان رفيقها رجل أعمال، تاجر، طلَّق زوجته من أجل "كاموران تيزه"، بعدها بدأ عمله في التدهور، ويبدو أن لعنات زوجته الأولى تحققت، حيث لم يتبقَّ من كل ثروته العقارية إلا هذه العمارة، ومن المضحك أن هذه الشقة كانت عش حبهما السري عندما كانا في عز علاقتهما.

- أتقصدين أننا نعيش في عش غرام رجل أعزب، يا للروعة!

ضحكت قائلة:

- ليس الأمر بهذا السوء حقيقة، فالرجل عرف ما اقترفه على ما يبدو.

تركت الترابيزة وقالت:

- تعالَ وانظر.

وكانت تبحث عن ذريعة للهروب من الإفطار، فقادتني إلى نهاية الطرقة، وأزحنا الدولاب الذي خزنت فيه الجرادل والفرش، انحنت "عائشة" ومعها فرشة طلاء وضربت على بلاطة من بلاطات الأرضية.

- أتسمع هذا؟

- ما الذي المفروض أن أسمعه؟

- وتُسَمي نفسك موسيقي؟ ألا تعتقد أن الصوت غريب؟

- لا أعلم، هل يجب أن يبدو غريبًا لي؟

ضربت بيد الفرشاة بقعة على بُعد متر، ثم لمست البلاطة بجانب الدولاب وقالت:

Twitter: @ketab_n

- أتسمع الفرق؟

- أعتقد أن هناك تجويفًا ما هنا.

- نعم، كان هناك سلم حلزوني داخل المنزل يربط بين الطوابق، وكان مكانه هنا على ما يبدو.

- كيف تعلمين كل تلك الأشياء؟

- حسنًا، إنني أعيش هنا منذ ثلاثة أعوام، واعتادت "كاموران تيزه" أن تزورني في المساء، واعتدنا أن ندردش.

- ولماذا لا تفعلان هذا الآن؟

- ومَنْ قال إننا لا نفعل؟

- وهل تعلم موضوع "أورهان"؟

- إذا ما كنت أعرف عنها الكثير، فلا بد من أنّها تعلم عنّي بعض الأشياء أيضًا، فالنساء يتبادلن الأدوار عندما يتكلمن إلى بعضهن البعض.

عبرت من أمام بابها أثناء ذهابي لشقتي، كان شعرها الأبيض يخرج من تحت غطاء رأسها، لم تَبْدُ كمغنية سابقة في صالة موسيقية، ولكنها بدت كامرأة من اسطنبول، مثل تلك السيدات في الأفلام القديمة.

- تلك الأشجار هي أكثر ما يحزنني.

- ربما لن يقطعوها، مَنْ يعلم؟

- كان زوجي يحبهم، لم أكن شخصًا مهتمًا بالنباتات، ولكن بعدما فقدته، بدأت في الاعتناء بهم، إنه لشيء مؤسف.

- ولكن ربما لن يقطعونها.

Twitter: @ketab_n

أدارت رأسها ونظرت أولاً إلى شجرتين، ثم نظرت إليَّ، وعلى وجهها ابتسامة مريبة، ما اسمها؟ ابتسامة مريرة كما يسمونها.

- كيف حال ابنتنا الصغيرة؟

- إنها جيدة، أعني أنها تتحسن، ذهبت للعمل الآن.

- هذه هي الحياة، أحيانًا لا يستطيع المرء تحملها كما هي.

نظرتُ إلى الأرض ووقفت صامتًا، فقد بدا أن أي شيء سأقوله سيكون في غير محله.

Twitter: @ketab_n

30

بعد الظهر ذهبت إلى "فيلي"، وعرض عليَّ جهاز التأثيرات الصوتية الذي اشتراه لتوِّه، وكان الجهاز البالغ طوله مترًا ونصف المتر آسرًا جدًا، حيث يكتظ بالأضواء والأزرار، وتخرج منه دواسات عديدة، لا بد أن" فيلي" يمتلئ بالسعادة بمجرد النظر إلى ذلك الجهاز.

- أستاذ، إنك تحتاج إلى جهاز أيضًا.

- بكم اشتريته؟

- أووه، لا تسل!

ثم أوصل جيتاره ذا لون غزل البنات البمبي بالجهاز، ولعب في الأزرار، وأخرج أصواتًا مخيفة منه لمدة ساعة ونصف الساعة. كان الجهاز مُعقدًا لدرجة أنه لم يسمح لأي صوت بداخله في الخروج من دون إصقاله جيدًا، وبفضله أصبح عزف "فيلي" يمثل شيئًا ما له علاقة بالموسيقى.

قال:

- حسنًا، أنا جاهز.

- افصل الجيتار من الدواسة أولاً، من الأفضل لكَ أن تعزف عليه بشكل طبيعي.

Twitter: @ketab_n

- كيف لشخص أن يُضَيِّع فرصة استخدام جهاز كهذا؟

- يمكنه ذلك إذا كان يريد أن يتعلم العزف، لم نصل لمستوى الجهاز بعد.

تجهم وجهه فجأة، فهذا الشاب "فيلي" كالأطفال فعلاً، تستغرق وقتًا طويلاً كي تصدق بأنه تخطى الثلاثين من عمره، فعل ما أمرته به بدون أن ينطق بكلمة، ثم فصل بعناية الجهاز وأعاده إلى صندوقه، ثم أخذ جيتاره وجلس على كرسي أمامي.

قال بصوت بائس:

- أستاذ... لن أصل لشيء، أليس كذلك؟

فأجبته:

- لا أعلم.

لم أتوقع منه مثل ذلك السؤال، والأسوأ من هذا هو أن كل ما قاله كان حقيقيًّا، وهذا ما جعلني عاجزًا عن النطق، اعتقدت أنه مهما قلت له فلن أخبره إلا بالحقيقة المُرَّة.

فقلت له:

- إن أردت رأيي، فإن التمرين يمثل ثمانين بالمئة من هذا الموضوع.

فرغم كل شيء، أنا أستاذه، وإذا ما فقد الأمل، سأفقد أنا تلميذًا.

- تقصد أنه ما زالت هناك فرصة.

- بدأ "هانك مارفن" العزف عندما كان في الثلاثين من عمره.

- أوه حقًّا؟ ومَنْ "هانك مارفن" هذا؟

- الذي عزف المقطوعة المنفردة للجيتار في ألبوم "شادوز".

Twitter: @ketab_n

- حقًّا؟

قالها وهو غارق في التفكير، بينما تسَمَّر نظره على الأريكة المقابلة له، وأخذ ينظر إليها بعينين حائرتين، بدا وكأنه ليس هنا، وتساءلت إن كان يفكر في شيء ما:

- هل لديكَ أي حشيش بالمنزل؟

- ماذا؟

- حشيش، دخان، هوف هوف، أيًّا كان ما تسمونه اليوم، هل لديكَ؟

أجابني مترددًا:

- نعم، لا بد أنه لديَّ، أقصد أعتقد أن لديَّ بعض الحشيش.

- ما رأيكَ إن دخنّاه سويًّا؟

- واو! لم أكن أعرف أنكَ...

- بالضبط!

- انتظر لحظة!

قفز على ساقيه الطويلتين، ونزل مسرعًا واختفى، ثم عاد ومعه حشيش يكفي لعمل سيجارة لكل واحد منّا، لم أره سعيدًا هكذا من قبل.

وبعد نصف ساعة، كنا نمرح بشدة، والمفترض أننا نتمرن، ولكنه لم يخرج بشيء من هذا التدريب، ولم أستمع أنا لعزفه أصلاً، ثم شعرنا بالملل وتوقفنا عن العزف، أمسك جهازه الصوتي الأغلى من جيتاره، ووضع السي دي، وبدأ "روبرت بلانت" فجأة بغناء "سفينة الحمقى".

- أستاذ، هل فكرت جديًّا في شركة التسجيلات في "مارسيليا".

- اللعنة على "مارسيليا"، أريد أن أسألكَ عن شيء آخر الآن.

- اتفضل، اسأل.

- بربِّكَ مَنْ يدفع إيجار هذه الشقة؟

فأشار إلى الأثاث وأجاب:

- أمي، ألا ترى؟

- ألكَ وظيفة أو شيء ما؟

- لا.

- ألم تعمل بأي وظيفة من قبل؟

أجابني ضاحكًا:

- لا أتذكر أي وظيفة.

- حسنًا، أين أمكَ الآن؟

- في "بوزجادة".

- وماذا تفعل هناك؟

- اشترت مزرعة عنب، يا لها من مجنونة.

- أهي الموضة الآن، شراء جناين العنب؟

أجابني بضحكة صفراء:

- لا أعرف، ولكن لماذا تسأل؟

Twitter: @ketab_n

31

في تلك الليلة علمت بقصة حب "فيلي"، فهو يحب ممثلة مسرحية، جمعتهما صداقة الحيِّ، وكان يتعلم عزف الجيتار ليصبح مشهورًا، ومن ثم يستطيع أن يستعيدها مرةً أخرى. كان هذا هو السبب وراء إقبال معظم مَنْ أعرفهم على تعلم عزف الجيتار.

وفي الخارج كانت الرياح تهب، ولكن بشكل أكثر اعتدالاً، فالسماء ليست بغاضبة، ويحيط الضباب برأسي، حيث لا أزال أمشي تحت الدخان، اعتقدت أن الهواء سوف يُحَسِّن من حالتي، فاتخذت شارع "فاليكوناي" وتمشيت فيه باتجاه مدينة "حربيات"، ومررت بمبنى إذاعة إسطنبول "نوتردام دو سيون"، وكنت أشاهد حركة مرور الظهيرة في الشارع كما لو كنت أشاهد فيلمًا سينمائيًّا على الشاشة، وأمام فندق "ديوان" ارتطمت سيارة بأخرى بسبب بلل الشارع، فخرج سائق كل سيارة ونظر للآخر من دون كلام، وبدا لي الموقف كوميديًّا، فاتجهت إليهما ووقفت بجوارهما.

سألني السائق الأصلع:

- هل رأيت ما حدث؟

- نعم، رأيت.

Twitter: @ketab_n

- كنت أسير في الطريق الصحيح أليس كذلك؟

فقال له السائق الآخر:

- عليك أن تتعلم أولًا كيف تدوس على الفرامل!

وكانت سيارته هي الأفضل، ولكن مقدمتها تفتتت بالكامل.

فسألني ضابط الشرطة:

- هل ستشهد بما رأيت؟

وكان رجلًا في نفس عمري، وكان مهذبًا، فتحمست وأردت أن أساعده فأجبته:

- بالتأكيد، سأشهد.

سألوني عن رقم تليفوني وعن عنواني فأعطيتهما له، ثم سَلَّمت عليهم هم الثلاثة ومضيت في طريقي.

بدأت أشعر بالتحسن، فانعطفت يسارًا إلى منتزه "تكسيم"؛ حيث رائحة الحشائش المقصوصة والتربة حديثة التقليب. درت حول بركة مليئة بنافورات المياه، واتجهت ناحية السلالم، ثم سمعت صوت ارتطام، وعندما استدرت ناحية الصوت، رأيت ماسح أحذية ممددًا على الترابيزات، وصندوق تلميع الأحذية طائرًا ناحيته، ولكنه لم يرتطم به، حيث تحرك الفتى مفاديًا إياه.

- سأتبرز في فمك أيها الوغد!

وكان يشتم أحد الصبية الذين يشمون الكُلّة في المنتزه، قفز الصبي على ماسح الأحذية وتدحرجا على الأرض يصرخ كل منهما في الآخر.

وأثناء وقوفي مترددًا فيما كنت سأفعل لهما شيئًا أم لا، ظهر عشرون طفلًا تقريبًا من جانبي المنتزه.. قادمون من جانب فندق "ديوان" كانوا يحملون

Twitter: @ketab_n

جميعًا صناديق تلميع الأحذية، بينما حمل القادمون من جانب منتزه "تكسيم" زجاجات المذيبات العضوية، وبدأ الجانبان فقرتهما قبل أن يصلا إلى المكان الذي تشاجر فيه الصبيَّان؛ حيث بدأت كل مجموعة بسب المجموعة الأخرى، وبدا أنهما متعادلان في القوة، ولذلك ترددا في أن يشتبكا، لم تتعد سن أي منهم الخمس عشرة سنة، وفي ذلك الوقت من اليوم كان المنتزه غير مزدحم تمامًا لسبب ما، ولمحت سيدتين على بُعد، ولكنهما أسرعتا الخطى واختفيتا، وكان رأسي ما زال تحت تأثير الدوار، فبدا لي أن أحد الصبية يشبه "إزجي"، إذا ما كانت "إزجي" وُلِدَت صبيًّا وكانت أكبر بعدة سنوات من عمرها الحالي لكان لها نفس حجمه، فجريت ووقفت بين الفريقين، وقلت لهم:

- لا تفعلوها، إنه لأمر مُخزٍ.

- وما شأنك بالموضوع؟

- ليس لي شأن، ولكن الأمر يتعلق بما سيحدث لكم.

- ماذا؟ هل أرهقتك مشاكلنا؟

وبمجرد أن لمحت السكاكين تلمع في أيديهم، فكرت في وجوب أن أتعامل وكأنني لم ألحظ سكاكينهم، وهذا هو التكتيك الذي تعلمناه في "لانجا"، فإذا ما شعروا بأنك خائف، سيزداد غضبهم.

- ستتشاجرون هنا، ثم تأتي الشرطة، وتأخذكم إلى القسم، ويفرقونكم بالقوة، وضباط المرور هناك عند الناصية، بمجرد أن يسمعوا ضجيجكم سيأتون إلى هنا.

- لا نهتم بضباط المرور.

- ماذا إذا أخبروا الضباط الحقيقيين؟

- لماذا لا تخرج من هنا أيها اللعين؟

Twitter: @ketab_n

- لن أذهب إلى أي مكان.

وكأنني أشاهد الحادث بالكامل من على بُعد عشرين مترًا رأسيًّا، كنت أقف في المنتصف ويحوطني الصبية على شكل قوسين، وقد أفسدت حماسهم، ولذلك كرهونني.

- إذا ما أردتوا فلتضربونني أيضًا، هيا، وستصبحون في مأزق حقيقي.

نظروا في صمت إلى بعضهم البعض، لا بد أنهم اعتقدوا أنني مجنون، ثم رأيت السكاكين تعود إلى جيوبهم واحدًا تلو الآخر.

قالت مجموعة منهم:

- سننكح أمهاتكم.

فأجابت المجموعة الأخرى:

- ونحنُ كذلك.

ثم تراجعوا بعيدًا كما يفعل الراقصون في العروض الموسيقية، وانتظرت حتى اختفت المجموعتان من المشهد، ثم جلست على مقعد وأخذت نفسًا عميقًا، وكانت الدنيا تظلم فعلًا، فأردت أن أشرب شيئًا.

Twitter: @ketab_n

32

قالت "عائشة":

- انظر إلى نفسك!

- توقفت عند "باساجيه".

- مُبالغ أنت، أتدري هذا؟

- تعلمين أن مكان "سنان" مغلق الآن، ولا يوجد ملهى واحد في كل "باساجيه" تستطيع أن تشرب فيه أو حتى تقف فيه.

- أرجوك، لا ترفع من صوتك.

قالتها وهي ناظرة في وجهي والحزن يكسو وجهها:

- لا تجعله يصيبَك أنتَ كذلك.

لا أعلم لماذا لمسني ما قالته بشدة، وغمرتني عاطفة لم أعرف مثلها منذ طلاقي؛ حيث كانت تزداد عواطفي رقة طوال عام كامل من دون أي سبب.

- لن أنهار أو أي شيء، هل أنا طفل حتى أسكر من كأسي بيرة؟

- هل أحضر لكَ قهوة؟

Twitter: @ketab_n

- لا تتعبي نفسِك.

- أتريدها بسكر؟

- من دون سكر لو سمحتِ.

- الجو بارد بالمنزل، خذ بطانية من الداخل.

- لا أشعر بالبرد، سأنهض وأرحل بعد قليل.

عندما دخلت "عائشة" المطبخ، وجدت الأريكة جذابة جدًا، فخلعت حذائي واستلقيت عليها، وبغض النظر عن الصنف الذي أعطاه لي "فيلي"، فلقد شعرت بأن رأسي مثل الجيلي، حيث كانت تتقافز أفكاري من جانب إلى جانب من دون إذن مني، واستطعت سماع خطوات "كاموران هانم" وهي تتمشى فوق السقف، وتتبعتها بعيني حتى وصلت إلى نافذة الحجرة الصغيرة، حيث تحتفظ بالتسجيلات القديمة، وسمعتها وهي تسحب الستائر، ثم وجدت نفسي أفكر في أمي.

كان الضباب يخيم على "البوسفور"، كنت أنا وأخي يمسك كل منا بيد من يديْ أمي وننتظر عند محطة العبَّارات، أعتقد أنه كان يوم عطلة رسمية، وكانت أمي تبكي.

- اشرب قهوتَك قبل أن تنام، سأربت على معدتَك.

- الحالة لا تستدعي هذا.

سحبت "عائشة" أحد الكراسي إلى جانب الأريكة، ووضعت فنجان القهوة عليه، وجلست على الكرسي المجاور لترابيزة القهوة ووضعت ساقًا على ساق، بدأت في البحث عن الكبريت داخل سلطانية خضراء، كان لها ساقان جميلتان.

أشعلت سيجارتها وقالت:

- أنوي الذهاب إلى "بوزجادة" هذا الأسبوع.

Twitter: @ketab_n

- هل تعتقدين بأنكِ ستصلين إلى شيء؟

- هذا أفضل من فعل لا شئ، أليس كذلك؟

حاولت أن أنهض من على الأريكة، ولكنني لم أستطع، أصبح رأسي ثقيلًا جدًا، لدرجة أنني لم أستطع رفعه.

- الدرس الذي ذهبت له اليوم، أم الفتى من "بوزجادة".

- ثم؟

- لا أعرف، أعتقد أنها ربما تساعدنا.

- وماذا تفعل هناك؟

- ما يفعله "أورهان"، أعتقد أن مجال العنب مربح ولذلك يزدهر.

- في الواقع أن الموضوع أن...

نفضت طفي السجائر المتساقط على جيبتها وقالت:

- في الواقع لا أعرف ماذا سأفعل إذا ما رأيت "أورهان" هناك، أقصد بماذا سأخبره، وبماذا سيخبرني، هل تبقى شيء لنقوله، صدقني ليس لدي أي فكرة.

وفجأةً، ثقل رأسي أكثر، كانت لا تزال تنفض طفي السجائر، حيث ارتفعت أصابعها الطويلة وهبطت في الضوء الخافت، وتطاير الطفي في الهواء، وكانت يدها تتحرك أسرع فأسرع، وكانت حركاتها منسجمة لدرجة أنك تحسبها تقوم بقيادة أوركسترا. جلبت الحركة الصغيرة لمعصمها أصوات مئات من آلات النفخ إلى أذني، فكلما ارتفعت يدها اليمنى، اهتزت الأوتار داخلي، وكان قلبي يخفق بالفعل على إيقاع أصابعها.

- أحبِك.

- أعرف.

Twitter: @ketab_n

- ولماذا لا يمكننا الشعور بالسعادة معًا؟

- أتعتقد أنه بإمكاننا تحقيقها؟

- وكيف يحققها أي شخص آخر؟

- ربما يجب أن نحاول، أن نعطي لحبنا الفرصة.

- بالطبع.

أظلمت الغرفة، وتركز كل الضوء على وجهها، خفضت رأسها قليلاً، ونظرت إلى قدميها ثم إليَّ بشكل متقطع، كانت ترتدي روبًا ورديًا، جعلها تبدو كطفلة تحتاج إلى الحماية، وكنت جاهزًا لحمايتها، حيث أعددت نفسي للشهادة في حادث مروري، أو التدخل في شجار أطفال الشوارع.

- أشعر بأنني سأحبِك طوال حياتي.

- لا تعد لمنزلَك بعد الآن، ابقَ هنا.

نفضت كتفيَّ عند شعوري بالثقل، ولاحظت أن أحدًا ما أيقظني، وضعت "عائشة" لحافًا رقيقًا عليَّ يحمل عطرها الجميل، فنظرت إليها فوجدتها تزيح الكرسي الذي وضعته بجانب الأريكة.

- جعلتني أصنع لكَ القهوة بدون داع.

عاد الضوء إلى الغرفة بشدته الأصلية، شعرت بالضيق فجأة، ولم أتذكر شيئًا عن محادثتنا الأخيرة.

- عن ماذا كنا نتحدث الآن؟

- عن المكان الذي يتربح فيه السيد "أورهان" أموالًا من نشاط المتاجرة في العنب.

لم أفكر في كل هذا، فقلت:

- ربما يؤجر حديقة لا أكثر.

Twitter: @ketab_n

- فكرت في هذا منذ أول مرة سمعت فيها عن نشاطه في "بوزجادة"، وما أعرفه هو أنه لم يكن يملك مليمًا، فإذا كان قد خبأ أموالًا دون علمي، فالحال سيتغير، حيث لا يمكن للمرء أن يخبئ كل تلك الأموال في ثلاثة أيام، خصوصًا إن كان عاطلًا، وإذا ما كان قد فعل هذا حقًّا، فهذا يعني أنه خطط لكل شيء، ويعني ذلك أنه قرر بالفعل أن يتخلص مني، ألا تعتقد هذا؟

بدا ما قالته منطقيًّا جدًا؛ فقلت لها:

- لم أعرف، لم أكن لأعرف.

أطفأت سيجارتها في الطفاية وقالت:

- على أي حال، هل تستيقظ مبكرًا غدًا؟

- نعم.

- هل أنتَ مشغول؟

- كنت أفكر في زيارة أمي.

جلست على حافة الأريكة وداعبت شعري بنعومة قائلة:

- يا لكَ من ابن بار.

Twitter: @ketab_n

33

بحلول الظهيرة، كنت في المقابر، كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا، والتصقت الأوراق المتساقطة ببعضها مُكوِّنة سجادة رطبة على الأرض، تلفتُ حولي أثناء مروري بالحائط المغطى تمامًا بالطحالب الخضراء، والذي يقسم الجبانة إلى قسمين، كنت لا أزال أخشى التيه في تلك الجبانة التي اعتدت على زيارتها منذ خمسة وعشرين عامًا.

لم أشعر بإحساس الموت هنا، وأعتقد أن ذلك بسبب أن زيارة الجبانة أصبحت أمرًا معتادًا لي، ففقدت وقارها في عيني بسبب كثرة القبور وشواهدها المحيطة بي، شعرت بالوحدة، شعرت بالبلل والرطوبة، وشعرت بإحساس أناني لم أفهم مصدره، ولكنه خفف من أحزاني.

أعتقد أننا غالبًا ما نواجه أنانيتنا عندما نزور المقابر، حزنت على وجود أمي تحت الثرى بستة أقدام، ولكن ما يجرحني أكثر هو غيابها عن عالمنا.

كان بالجبّانة زوار قلائل، مجموعة من المشيعين معهم أطفال مجتمعون حول شاهد قبر جميل بجوار الحائط يستمعون إلى الصلاة التي يرتلها الفقيه الشاب، يمسك الرجال منهم مظلات تتطاير مع الرياح فوق رؤوس النساء.

تركت الزهور على قبر أمي، واخترت قرنفلتين لأبي، وهي العادة التي ورثتها من أمي، حيث اعتدنا زيارة قبر أبي لعدة سنوات لنضع الزهور تحت الرخامة

Twitter: @ketab_n

في الحال، حيث كانت صورة أبي على شاهد القبر تنظر إليَّ نظرة جادة جدًا.

ثم نظرت إلى صورة أمي وهي تبتسم فوق الحجر، لم أَرَها تبتسم مثل ذلك أثناء حياتها، وبدت في الأربعينات من عمرها لا أكثر ولا أقل.

وفي ظل إحساس البرودة عند سفح قبرها، لاحظت أنني أدندن مرةً أخرى، حيث أتاني ذلك اللحن المتسكع ووجدني مرةً أخرى، ولكن في هذه المرة بدا وكأنه يعرف طريقه، وكانت له انزلاقة غريبة، ولكنها مبهجة في نهاية المقطوعة الأولى، ثم انتقل إلى المقطوعة التالية، وأثناء دندنتي خرج بخار ماء كثير من فمي، وتكثف في الهواء، وكان أبي بِعُبُوس وجهه ينظر إلى جراج السيارات خلف الجبَّانة.

لم يرني أبدًا أعزف الجيتار، وشعرت بأنه لم يكن ليحب هذا، مع الوقت اكتسبت الخبرة اللازمة لإرضاء آذان معظم الجمهور، ربما في ليلة واحدة، كنت سأعزف "مرت حياتي بالحب" لأرضيه.

كان اللحن الخارج مع بخار الماء من فمي يتفرق في الهواء، ويتوقف فجأة ولكنني كنت غاضبًا؛ حيث لم أستطع بعد أن أتعرف على أغنية اللحن، ومِمَنْ سرقتها، رأيت المجموعة المتجمعة حول شاهد القبر الكبير وهي تنفض ببطء، حيث ترك الأطفال أيادي أمهاتهم وبدأوا في الجري نحو قمة التل، وتبادل الرجلان السائران خلف المجموعة حديثًا وإيماءات كريهة، وبدت السيدات الثلاث متشابهات، ونظرن إلى الرجلين من ظهورهن، باستطاعة المرء أن يقول إن الذي يزورونه مات منذ وقت طويل؛ حيث كانت المجموعة منخرطة تمامًا في شئون حياتها.

ما زلت أدندن، حاولت أن أنتزع الأعشاب من على شاهد قبر أمي، وشعرت بالمرح عقب انتقاء رأس أعشاب صفراء اللون، وتأكدت من أنني احتجت لأن أفعل ذلك الشيء، ولكنني ما زلت أشعر بأنني أخذت شيئًا من أمي، وهذا ما أزعجني.

وحتى تلك اللحظة، لم أكتب أي لحن، فالتلحين يعني أن أخلق شيئًا من لا شيء، وخلق الأشياء أمر مزعج لكيمياء جسد المرء، فلن يؤدي الإبداع لشيء عظيم، بينما يجري المرء على أكل عيشه اليومي.

Twitter: @ketab_n

34

عند حلول منتصف الليل، وبينما أحاول أن أحشر الملابس المتسخة في الغسالة، رن جرس التليفون، فحاولت غلق الغسالة وهرعت إلى الحجرة الكبيرة، التقطت سماعة التليفون بتسرع، فوقع صندوق العدة والمفكات التي كانت على السلك وتدحرجت على الأرض.

قلت بصوت مضطرب:

- ألو.

كنت أحاول تجميع العدة داخل الصندوق، وكانت السماعة تنزلق من على وجهي كلما انحنيت، وهذا أزعجني أكثر.

- ألو "محمد"، كيف حالك؟

- "أورهان"؟

- هل اتصلت في وقت غير مناسب؟

ألتقطت صندوق العدة وألقيته على المنضدة.

- "أورهان"، أهذا أنت؟

Twitter: @ketab_n

- سأتصل بك فيما بعد إذا كنت لا تسمعني.

- أين أنت؟

- الآن، أنا في محطة العبَّارات في "بشكتاش".

- وماذا تفعل هناك؟

أجابني ضاحكًا:

- في هذه اللحظة، أتحدث في التليفون، هل لديك وقت؟

- أتريد زيارتي؟

- لا، هذا لن يحدث، إذا ما سمعت "عائشة" هذا، ستنفعل كثيرًا، هل لديك وقت؟

عند وصولي إلى محطة العبَّارات بعد ساعة ونصف وجدته جالسًا على المقعد مع شرطيي الدورية، كانا شابين، وكانا ينحنيان ضحكًا على شئ ما يقوله لهما "أورهان".

وعندما رآني قال لهما:

- بعد إذنكما يا شباب، وصل صديقي.

فسألني الشرطي أسمر اللون:

- هل معك بطاقة؟

بدأت أبحث داخل محفظتي، فأمسك الشرطي الآخر ذراعي وقال:

- حسنًا، لا مشكلة إذا لم يكن لديه بطاقة، مساء سعيد "أورهان بيك"، وحظ سعيد للوليد.

وأجابه "أورهان":

- ليلة سعيدة، ليساعدكما الله في عملكما تلك الساعة من الليل.

Twitter: @ketab_n

كان يرتدي معطفه الأزرق الغامق الواقي من المطر، وكان يتلألأ وجهه في ضوء مصابيح الشارع كما لو كان خارجًا حالاً من الحلاقة، كانت التجاعيد في بنطلونه بارزة، بينما كان حذاؤه يلمع، وقام بتوجيه الإشارة إليَّ بأن نجلس على المقعد.

- بماذا كنت تخبرهما؟

أجابني وهو لا يزال يضحك:

- آه، لا تسأل!

واستطرد قائلًا:

- كانا ينظران إليَّ بريبة عندما رآياني أتسكع هنا، فاختلقت لهما قصة بأن زوجتي تلد في المستشفى، وأنني لا أحتمل هذا الوضع، وخرجت أشم بعض الهواء العليل، فلا تنخدع بمظهرهما الجاد، هما لا يزالان طفلين، ولا يعرفان أي شيء عن العالم.

- تبدو جيدًا.

- إنني بخير والحمد لله.

- ولكن "عائشة" ليست كذلك!

- إنك غاضب مني، أليس كذلك؟

- لا تكترث بي، فالمسكينة فقدت عقلها غالبًا، تنتظر أخبارك يومًا بعد يوم.

- إنها ليست مريضة، أليس كذلك؟

- لا، ليس بعد، لماذا اتصلت بي؟

- مررت بحانة "الجمهورية" هذا المساء، وأخبرني "عليّ" بأنك سألت عني، ففكرت في أن أطلعك على مجريات الأمور على أقل تقدير.

- ليس أنا الذي يجب أن تطلعه على مجريات الأمور.

Twitter: @ketab_n

- إنك محق، ولكنني لا أعتقد أنه بإمكاني شرح كل تفاصيل الموقف لـ"عائشة".

بدأ يتكلم كـ"أورهان" القديم، وعندما رأيت ذلك ارتحت قليلًا، وعندما ارتحت وجدتني قادرًا على الغضب منه.

فركزت نظري في عينيه وقلت له:

- اسمع يا رجل، لديك زوجة، وليس لديك أي حق في أن تفعل هذا بها.

- ما أفعله الآن سوف يسعدها.

- حسنًا، ستكون أكثر سعادة الآن إذا ما عدت إلى البيت.

- لا أستطيع.

- ولِمَ لا؟

- هناك امرأة أخرى بالموضوع.

ظهر فتى قادمًا باتجاهنا من بعيد. كان ممسكًا بزجاجة مغلفة بخرق القماش، وطلب مني سيجارة، فأعطيته، وبمجرد أن تحرك الطفل إلى محطة العبَّارات، حتى ناداه "أورهان":

- يا فتى، لا تسلك هذا الطريق، هناك وردية شرطة.

تحرك الفتى خطوتين ثم توقف، ثم عاد ومَرَّ من أمامنا ماشيًّا حتى اختفى في ظلام رصيف الميناء.

- كانوا سيأخذونه ويضربونه طوال الليل، يا له من شقاء.

- ومَنْ هي تلك المرأة؟

أجابني ببطء:

- امرأة ثرية، كبيرة في السن، عانت دائمًا من خيانة زوجها لها، امرأة غير سعيدة.

- وكيف قابلتها؟

- إنها أم أحد تلامذتي، حاولت لعدة شهور أن تخطب ودي، وافتعلت فرصة لتعطيني رقم تليفونها، وعندما ضجرت من البطالة، سعيت في طلبها، اعتقدت أنه بإمكاني أن أحصل على شيء منها.

- وكيف ذلك؟

- لها ممتلكات في "بوزجادة"، اشتراها زوجها منذ زمن، والآن ستنقل ملكية بعضها إليَّ، ثم بعد وقت معين، سأختلق عذرًا وأتركها، وسيكون القرار لـ"عائشة" بأن ندير حقول العنب أو نبيعها، ولدينا نقطتان رئيسيتان هنا، أولًا أن تعتقد المرأة أنني تركت زوجتي، وثانيًا يجب ألا يشعر زوجها بأي شيء إطلاقًا، لأنه كما يقولون داهية، ولا أعلم كيف أصفه، ولكنه قد يسبب مشاكل كثيرة لنا.

ثم أخرج علبة سجائره وعرض عليَّ واحدة، أشعلنا سجائرنا. أصبح الهواء أكثر برودة، ولم تكن بالسماء نجمة واحدة، وكانت النوارس الضعيفة تهبط في الماء وترتفع.

- " أورهان" إن تلك هي أغبى خطة في العالم.

- ماذا تقصد؟

- إنها ليست غبية وحسب، بل طفولية، أتعتقد أنهم سيتركونك تهرب بذلك العنب؟

- لن يفعلوا؟

- لن يفعلوا عزيزي "أورهان"، تلك النوعية من النساء دائمًا ما تعود إلى زوجها المثير للمشاكل مهما تقدم بها العمر.

- ولكنه يخونها.

- ليست مشكلة، سيجدان لها حلاً.

Twitter: @ketab_n

- أهذا رأيك؟

- هذا رأيي.

لم أرد أن أنظر إلى وجهه، لأنه قد يتضايق المرء بشدة إذا ما نظر له أحد في وجهه في مثل تلك المواقف، ولكنني ظللت أنظر إليه بطرف عيني، أرخى كتفيه، كان يهز قدميه بتشنج، وفجأة شعرت بأنني أحب "أورهان"، فرغم كل ما حدث، لا تزال هناك عدة حسابات في هذا العالم تؤكد أنه لن يقدر أبدًا على أن يفهم كل شيء.

- قضيت عمري أعمل مثل الحمار.

قالها ثم ألقى عقب سيجارته في البحر، وأضاف:

- حدثت تلك الأزمات اللعينة وتم رفدي من العمل، أتعلم أنه يوم أن استدعاني المدير الحقير ليجتمع بي في غرفته كان يوم عيد ميلادي؟

- لم أعلم.

- أثناء جلوسي عاطلاً، ظللت أفكر، إن لم أسوي الأمر جديًّا، فيجب أن يكون هناك طريقة أخرى، لأنه في هذا العالم هناك أشخاص يقومون بأداء الخدع ببراعة.

- ولكنك لست من هذه النوعية، أليس كذلك؟

- ثم تذكرت رقم التليفون الذي أعطته "بلما" لي، وقلت إنني سوف أُمارس نزواتي معها لمدة ستة أشهر، ثم سأحصل على تمويل جيد.

- ومن الرجل الذي كان معك في حانة "الجمهورية"؟

- إنه محاميها.

- هل يعلم بما تخطط؟

- لقد أقنعته بفكرتي، لدرجة أنه يظن نفسه الآن معلم رياضيات مثلي.

Twitter: @ketab_n

35

تمشينا إلى "بارباروس بولفارد"، وتخطينا الشباب المنتظمين في طابور لحضور مباريات الغد في الاستاد، وكانت هناك لوحة مضيئة على أحد المباني المطلة على الميدان، تنطفئ وتضيء وتتعب أعيننا.

- تعالَ وابقَ معي إذا كنت تريد.

- لا، يجب أن أكمل ما بدأت.

- وكيف تشعر؟

- أشعر وكأنني ملعون.

- تريد "عائشة" الذهاب إلى "بوزجادة" في عطلة نهاية هذا الأسبوع، أعتقد أنني لن أقدر على منعها، هل ستكون هناك حينها؟

- من الأفضل ألا أكون موجودًا حينها، أليس كذلك؟

- لا أعرف.

- هذا النوع من العمل ليس من أجلي.

وأكمل وهو مضطرب:

Twitter: @ketab_n

- امرأتان في الوقت نفسه، تمنيت ألا أتورط في مثل هذا المأزق.

- آمل هذا.

ولم أكن متأكدًا ما الذي كان يأمل أن يحدث.

وظهرت على شفتيه ما يشبه البسمة، ولكن لم يكن بعينيه ما يثبت هذا، أردت أن أقول شيئًا ولكن لم يرد شيء على بالي، مددت ذراعيّ، ومد ذراعيه هو أيضًا، وتعانقنا.

- أطلعني على التطورات، اتفقنا؟

- أعلم أن كل الأمر يبدو لك ضربًا من الحماقة، ولكن صدقني إنه ليس بعيد المنال، أقصد أنه ليس مستحيلًا.

- هل أخبر "عائشة" بأي شيء؟

- لا.

كانت الساعة الواحدة تقريبًا عندما عدت إلى المنزل، وكان بالنافذة العليا ضوء خافت، ضوء الأباجورة المكسوة بالريش والتي اشتراها "أورهان" الصيف الماضي، حيث تترك "عائشة" الضوء مفتوحًا منذ أن أصبحت وحدها في المنزل.

أعددت الفوتيه، وجهزت طفاية السجائر وكل شيء حتى أجلس، ثم رن جرس الباب، لم أكن أريده أن يرن، لم أرد أن تنزل "عائشة" إليَّ، لم أكن في مزاج يمكنني من نسج الأكاذيب.

وقفت على عتبة الباب كالقطة وسألت:

- ممكن أدخل؟

- ماذا بكِ؟ ألم تنامي؟

Twitter: @ketab_n

- سأذهب بعد خمس دقائق، لا تقلق.

شغلت أقدم ألبومات "أورتاشجيل"، وفي هذه الساعة، حسَّن صوت الرجل من مزاجي، كانت "عائشة" ترتدي سترتها الصوفية البيج ذات القطعة الجلدية على الكوع، بدت وكأنها استيقظت من نوم عميق وتجد مشقة في العودة إلى الواقع، دفعت بظهرها إلى الوسادات الموجودة على الأريكة ونظرت إلى السقف، بينما قمت أنا بتجميع المفكات المبعثرة على السجادة لأعيدها إلى صندوق العدة.

- هل تعتقد أنني أتصرف بشكل معقول؟

- آسف، لا أعرف ماذا تقصدين.

- أنا من يجب أن يشعر بالأسف وليس أنت.

ورفعت نفسها من على الأريكة، ومررت يديها على جبهتها وأخذت نفسًا عميقًا ثم قالت:

- أعرف أنني أصبح غير محتملة أحيانًا.

- هل أنتِ بخير؟

- لا أعرف... رأيتك عائدًا، إلى أين ذهبت في منتصف الليل؟

- كنت أتمشى.

جهزت هذا الرد في حالة سؤالها:

- شعرت بالجوع فجأة، فاعتقدت أنه بإمكاني التمشي لبرهة.

- ولماذا لم تنادني؟

- لم أرد أن أوقظكِ.

- إنكَ مهذب جدًا سيدي.

Twitter: @ketab_n

- نحن كذلك.

سحبت ساقيها ومددتهما على الأريكة. قدماها أصغر من حجمها، وأظافر أصابعها قصيرة دائمًا وغير مطلية.

- أعتقد أنكَ محق، فأنا أخدع نفسي هنا، أتجنب رؤية ما يحدث، لست متأكدة إن كنت أحتمل رؤية ما يحدث حقًا، وهذا سبب تصرفاتي بهذا الشكل، الهزيمة بهذا الشكل إحساس سيئ جدًا.

- ولكنكِ لست مهزومة.

- أتعلم، في الواقع لم يجب أن أغضب من "أورهان"، فعندما أعيد التفكير الآن، أرى أن ما فعله كان صائبًا. حاول الرجل البائس أن يخبرني لمدة طويلة، حاول أن يوضح لي بأن حبنا انتهى، ولكنني لم أفهم ذلك، لأنه لم يقل هذا بشكل واضح وصريح.

- أعتقد أن "أورهان" ما زال يحبكِ.

- وكيف تتأكد هكذا؟

كان سؤالًا جيدًا، فأجبت من دون أن أعرف إلى أين سيأخذنا الحديث:

- للرجال حدس أيضًا، بإمكاننا أيضًا أن نخمن كيف يشعر الآخر، إذا ما كنتِ رأيتِ الطريقة التي نظر بها لكِ من وجهة نظري، لكنتِ تأكدتِ من هذا أيضًا.

- شكرًا لكَ "محمد" يا عزيزي.

- لماذا تشكرينني؟

- لأنكَ تحاول تهدئتي.

- لا، أنا لم أفعل.

- نعم، إنك تفعل.

Twitter: @ketab_n

ضحكت وشهقت في الوقت نفسه وأكملت:

- ألفت كل هذا فقط لتريحني، من الواضح جدًا أنكَ اخترعت كل هذا...

شعرت بالخجل فأجبت:

- لم أؤلف أي شيء.

- أعتقد أنني سأبكي.

وضعت كوعها على الوسادة ووضعت يدها على جبهتها وبدأت في النحيب، لديها طريقة بكاء جميلة وصامتة، على الرغم من أن تعبير الألم على وجهها كان شديد القسوة، لو كانت تلك التعابير على وجه شخص آخر لكان صاح وصرخ حتى يتلاءم مع تعبير وجهه.

وضعت يدي على كتفها، فمالت فجأة ناحيتي ووضعت رأسها على صدري، فرأيت مؤخرة عنقها التي كشف عنها شعرها أمامي.

انحنيتُ وقَبَّلتُ شَعرها، فدفست رأسها أكثر في صدري، وشعرتُ بدموعها تبلل قميصي، بينما خفق قلبي بشدة.

- إن لم تكن هنا...

- كنتِ ستتدبرين أمورِك بنفسك.

- لم أكن لأقدر، من المهم جدًا أنكَ هنا.

- أحضر لكِ فنجان قهوة؟

- لا، فقط احضنّي.

حضنتها بذراعيَّ اللتين لم تعرفا ماذا تفعلان لفترة قصيرة، ثم تطور كل شيء ببساطة مفزعة.

Twitter: @ketab_n

همست إليَّ قائلة:

- "محمد"، ممكن أبقى هنا؟

فأجبتها وأنا أتشمم عطرها:

- لا...

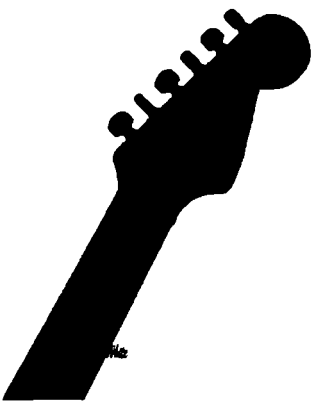

36

عند دخولي للنوم، شعرت بوحدة شديدة. كان هناك شيء دافئ ولزج ينزلق تجاه فخذي، تعلمت كلمات كثيرة من الشارع والمدرسة والجيش لتصف ذلك الموقف.

باختصار، كمثل أي رجل طبيعي، أحتاج إلى امرأة.

لهذا كانت أفكاري بخصوص "عائشة"، فجوعي هو سبب تلهفي عليها، حيث دفعني الحيوان بداخلي إليها، من دون وجود أدنى مشاعر من أي نوع.

حتى وإن كانت هناك مشاعر، لم يكن الموقف ليتغير كثيرًا، لأنني كنت أعاني من حرمان عاطفي، ولكن كلما اقتربت من امرأة، شعرت بانسحاق تحت وطأة الهجران، وتشعر النساء بهذا أيضًا، ولا تحببن هذا الشعور، وينظرن إليَّ كما لو كنَّ في مقابلة عمل مع شخص مرفود من عمله الأخير.

ثم أُجبرت على تغيير أسلوبي، أقلعت عن السعي خلف المشاعر الجليلة، وبما أن الجنس هو الشيء الذي يحتاج إليه الطرفان، فلا بد من وجود امرأة في الجوار تبحث عن الاحتياج نفسه كذلك.

أصبحت الآن ضحية عجزي، حيث أفسدت سنوات الزواج تلك أدائي، فلم أعد أعرف كيف أتودد إلى النساء، لم أعد أعرفَ ما المفترض أن أقوله لهن، كنت

Twitter: @ketab_n

أجهل تمامًا قواعد اللعبة التي يجب أن تُلعب قبل الاقتياد إلى الفراش، لأنني كنت دائمًا ما أعزف الجيتار على المسرح، بينما يلعب الناس تلك الألعاب.

ولذلك كنت أستمني، ولأكن صريحًا، كنت أجد لذة في ذلك، وبدا الأمر وكأنني وجدت لعبة مفقودة بعد عدة سنوات. أصبح خيالي الأن متحررًا ويعمل على خلق الخيالات من أجلي. أسوأ ما في الاستمناء هو أنه يجعل الوحدة ممتعة، وإن كانت شخصيتك تميل إلى جني متع الوحدة، سوف تظل معتقدًا أنه بإمكانك تدبير أمور متعة حياتك كلها بمساعدة يدك.

لم أكن أدري بماذا أخبر الناس عند سؤالهم لي بأسباب انفصالي عن "نازلي"، فرسميًا تطلقنا بسبب "خلافات شديدة"، ولكن لم تكن هناك أي شدة على الإطلاق، فلم يرفع أحد يدَه على الآخر أبدًا، ولم تتطاير أطباق الغداء أبدًا، لم تكن هناك أي شجارات تتذكرها "نازلي" بمرارة بعد عدة سنوات في المستقبل، بدا الأمر وكأن مسؤول البلدية الذي أجرى مراسم الزواج قد ضبط ساعة الوقت على أن يفسد زواجنا بعد أربعة عشر عامًا، وعند اقتراب ذلك التوقيت تلاشت علاقتنا.

أتساءل كثيرًا عما كان ليحدث لو لم يُوجد "جميل"، فغياب أسباب معينة يجعلك تبني الآمال والأمنيات، وهذا ما يجعلك بحالة أسوأ، حيث تنبش ماضيك باحثًا عن شق يلقي بالضوء على أفعال مضت، لم أعرف ماذا قالت "نازلي" عن أسباب انفصالنا، حيث كنا متحضرين جدًا ومؤدبين جدًا تجاه بعضنا الآخر خلال العامين الماضيين، لدرجة أن من يرانا قد يظن أننا مجرد غريبين يتقابلان وليس رجلًا وزوجته السابقة.

ربما لا أفهم الأمر، فأنا لست متأكدًا تمامًا من مدى معرفتي بروح ونفسية النساء، وإذا ما جاءتني فرصة لاسترجاع الشريط، فأنا متأكد من أنني سأرتكب الأخطاء البشعة نفسها مرةً أخرى، على أي حال إذا ما ظهر مندوب تأمينات في مكتب امرأة متزوجة وخطف قلبها، فلا بد أن هناك سببًا منطقيًّا وراء هذا، أليس كذلك؟

قلت لـ"إزجي":

Twitter: @ketab_n

- اسمعي، لن تعيش أمكِ معي بعد الآن، حسنًا؟

- هل تطلقتما؟

- نعم، هل سيحزنِك هذا؟

- لا أعرف، هناك أطفال كثيرة بالمدرسة انفصل آباؤهم عن أمهاتهم أيضًا.

- جيد، وبالتالي نُسَاير نحن موضة العصر.

لم تقل "وماذا سيحدث لي؟"، لم تسأل "أين ستبقى ألعابي؟"، تقبلت الأمر باعتيادية، فابنتي لديها تلك الموهبة الفطرية، وقد أحبت "جميل" بشكل أو بآخر، وهذا من حُسن حظه، وإلا كنت ذهبت إلى مكتبه في شركة التأمين وحطمت رأسه.

ما زالت لديَّ قناعة راسخة بأنه من الممكن أن أجلس أنا و"نازلي" سويًّا ونُعيد مناقشة ما جرى، ولو أنني لم أقابل حتى الآن من لديه القدرة على فعل مثل هذا، فالزوجان يتغيران بشدة بعد طلاقهما، وخاصةً النساء القادرات على التحول إلى شخصيات غريبة بالكامل في وقت قصير، حيث لا تُصدق أن المرأة التي اعتدت أن تراها نائمة بجوارك منذ عدة أشهر قليلة هي نفسها المرأة التي تراها الآن.

أخرجت إحدى المجلات من الدرج وذهبت إلى الحمَّام، خلعت سروالي وجلست على قاعدة التواليت، وكان الإحساس بالبرد في أردافي ممتعًا بشكل غريب، وأعجبتني الموديل جدًا، كان اسمها "إما"، ولكنها لا تبدو أجنبية الهيئة على الإطلاق، فهي من النوع الذي يصادفك في الشارع في أي يوم. كانت تتمتع بجمال جسماني هادئ ملفوف بغطاء سرير مكشكش. ظهرت في البداية مرتدية قميص نوم أحمر، وجوارب سوداء، وأحزمة ربط جوارب، وحمَّالة صدر، ثم أصبحت عارية تمامًا في نهاية الصفحات السبع، حيث كانت ترتدي حذاءها الرياضي فقط في الصورة الأخيرة، وكانت قدماها جميلتين، وزادها ذلك إثارة، نظرت إلى صورها كثيرًا حتى أصبحت مألوفة إليَّ الآن، وكأنها فتاة تسكن في الحي نفسه الذي أسكنه.

Twitter: @ketab_n

عند عودتي إلى السرير، غيَّر الألم مكانه من فخذي إلى قلبي، حيث امتلأ قلبي بالقلق على ابنتي و"نازلي"، و"عائشة" ونفسي، حاولت أن أصلي بلغتي الخاصة كما علمتني أمي، ولكنني استحييت بسبب ما كنت أفعله الآن في الحمَّام، فتخليت عن فكرة الصلاة، وأخذ عقلي صور "إما" معه وغرق في النوم.

37

عندما وصلت إلى الاستوديو هذه المرة، كان الجميع قد وصلوا قبلي، وكان "ألتان" يُلَوِّح للطبال المولي ظهره إلى الباب ويقول له شيئًا ما، أتت "إلفان بيرين" إليَّ بسرعة غير متوقعة وحضنتني.

- مرحبًا، لم تخذلنا، شكرًا لكَ.

كانت تتمتع بأخلاقيات فنان "راقية جدًا"، وإن لم تكن تتلاءم مع عمرها تمامًا، حيث يحدث كثيرًا أن يقوم الفنان بالتظاهر بالتواضع عندما يصبح مشهورًا، كانت ترتدي سترة سوداء ذات عنق وتنورة ذات فتحة تصل إلى كاحليها، ومرة أخرى كانت ابتسامتها جميلة.

صرخ "ألتان" من مكانه:

- هاه، الجناح الأيمن.

حيث لم تسمح له الأسلاك الملفوفة حوله بأن يتحرك، وأومأت بأدب إلى الأطفال من أعضاء فرقتنا.

قالت "إلفان":

- كنا نمر على أغاني الحفلة.

Twitter: @ketab_n

- حسنًا، آمل ألا ينكسروا.

- ماذا؟!

- قصدت بالمرور، أننا نتمشى عليهم.

وشاورت لها على الأرضية وأكملت:

- آمل ألا ندوس عليهم ونكسرهم.

فتدخل "ألتان":

- آه، لا يا رجل، هل اعتدت على مثل تلك الخفة هنا، ها؟

وضحكت "إلفان":

- آه، "محمد" بيك.

أشرت إليها بذقني وقلت:

- ولكنها ضحكت منها، أليس كذلك؟

قال "ألتان" لـ"إلفان":

- أنتِ أول مَنْ يضحك على هذه الدعابة منذ عشرين عامًا.

- لا أعرف، ولكنها مضحكة.

كنت سوف أذهب في اليوم التالي إلى "بوزجادة" مع "عائشة"، فاتصلت "إلفان" بي في الصباح وأخبرتني بأن عازف الجيتار السابق قد رحل للأبد، فإذا كان من الممكن لي، فإنهم يودون أن أكمل معهم كعازف جيتار، واختارت بالضبط تلك الكلمات في التليفون، فكيف لي أن أرفض؟

Twitter: @ketab_n

عزفنا كل ما لدينا خلال ساعة من الألف إلى الياء؛ حيث انطلقت يدي وعزفت بدون خطأ واحد، وكانت "إلفان" تغني الأغاني بطريقة جيدة مرةً أخرى، وخيم علينا سكون كعلامة على جودتنا كفريق موسيقي، حيث لم نتكلم إلى بعضنا أبدًا حتى في الفواصل بين الأغاني.

أعتقد أنني أحتاج للعمل لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم حتى أداوي روحي، حيث خرج كل ألم بداخلي وتبدد في الهواء مع كل لحن عزفته، واستمر الطبال في زخرفة الأغاني الشرقية بإيقاعات متمايلة، وتقدم البيانو وتراجع في الوقت المناسب، وكانت لـ"ألتان" نظرة مثبتة على نقطة في الفراغ أثناء عزفه، تمامًا كما كان يفعل أيام شبابه.

أخذنا راحة بعد ساعة، حيث لم يعمل مكيف الهواء بشكل جيد، وسخن الجو جدًا بالداخل، وخرج الجميع مسرعين، وعندما أصبحت وحدي بالاستوديو، خفضت صوت مكبر الصوت وارتجلت بعض ألحان البلوز، ثم وجدت نفسي أعزف لحن التسكع الذي طاردني لمدة أسبوعين.

لم أكن عزفته على الجيتار من قبل، وأعطى جيتار "نهاد آبي" اللحن طعمًا، حيث أصدر هذا الوغد صدى داخل الاستوديو وكأنه شيء مختلف فعلاً.

قالت "إلفان":

- جميل جدًا! ما هذا؟

كانت تقف عند عتبة الباب الذي تركناه مفتوحًا للتهوية، وكانت تمسك بكوب شاي بلاستيكي يخرج منه البخار.

أجبتها وأنا محرج قليلاً:

- لا أعرف، إنه شيء ما فقط.

- أتعني أنه من تأليفك؟

Twitter: @ketab_n

- لا أعرف، لا أعتقد أنه من تأليف شخص آخر بعد، فحتى الآن لم يعلن عنه أحد.

- هل ستعزفه مرة أخرى، إن طلبت منك هذا؟

عزفته، ولكنه لم يكن بجودة أول مرة لأن وجودها أرهبني.

- إنه لحن أصيل.

- لست متأكدًا، لا بد أنني انتحلته من مكان ما.

- لا، إنه أصيل، لا داعي للتواضع الزائف.

- حسنًا، فليكن كذلك.

- هل تعلم ما الذي سنفعله؟

- ماذا؟

- سنسجل لحنَك.

- متى؟

- اليوم.

- أوه، لا تفعلي هذا!

- لقد فعلت بالفعل. ننهي البروفة مبكرًا، ثم نعتني بلحنَك.

فعلت كما قالت، وفي نهاية البروفة، تخلينا عن الأغاني الكلاسيكية التي كان من المفترض أن نريح بها أنفسنا في النهاية، وبدأنا في تجريب أغنيتي التسكعية، والأسوأ من هذا هو أن الصبية جاءوا في صفها، ووضعنا اللحن في نصابه الصحيح خلال ساعة، عزفناه مرة أخرى وسجلناه، وكانت آخر مرة هي أفضل مرة، وأخذت "إلفان" الشريط معها أثناء رحيلها.

قال "ألتان":

Twitter: @ketab_n

- أعتقد أن تلك الفتاة فعلت هذا من أجلك.

كنا نجلس داخل حديقة الشاي الموجودة على شاطئ البحر، حيث كان المطر يضرب سطح المياه وكأنه إبر كثيرة تهبط من السماء. كانت لا تزال هناك عدة قوارب قليلة، لم أرَ الفتيات اللاتي كن موجودات في المرة السابقة، حيث جلس صيادان مكانهن.

- من أين أتيت بهذا اللحن يا رجل؟ لقد ذابت الفتاة أمامَك.

- إن استمررت في الكلام هكذا، سينتهي بي الحال وأنا أتلقى رصاصة من صديقها في مؤخرتي.

- ستكون محظوظًا بأن تأخذ رصاصة في المؤخرة.

- ما مدى إعجابك بما سجلنا؟

- أترى؟ إنك تغير الموضوع.

- لا، إنني جاد، ألم يذكِّرك بشيء ما؟

- كل الأغاني تذكِّرني ببعضها هذه الأيام.

- بمعنى؟

عقد أصابعه خلف رأسه وقال:

- حسنًا، اعتقدت الشيء نفسه عندما كنا نعزفه، فلا تقلق! لكان من دواعي سروري أن أخبرك عن صاحب اللحن الأصلي إذا كنت اكتشفت من أين سرقته.

- إنني متأكد من ذلك.

- كنت سأقول لك أتعرف لماذا؟

- لماذا؟

Twitter: @ketab_n

- لأنه جيد جدًا.

- هل هو جيد؟

- نعم، جيد، وجيد جدًا جدًا.

Twitter: @ketab_n

38

قابلت "إزجي" في اليوم السابق لذهابنا إلى "بوزجادة"، وكان يومًا باردًا، ولكن السماء فوقنا كانت زرقاء بعض الشيء، وكانت الشمس تحاول أن تفعل أفضل ما بوسعها لإثبات نيتها الطيبة وكأنها أُستبدلت بدوبلير.

كانت "إزجي" قد عادت لتوها من المدرسة، وكانت تجري في البيت بتنورتها المهلهلة، فنادتها "نازلي":

- هيا، لتخرجي، غَيّري ملابسِك، لا تجعلي أباكِ ينتظر.

عادت "نازلي" مبكرًا إلى المنزل بسببي، لم أرها متعبة هكذا من قبل، لم يكن هناك ما يعيب مظهرها الخارجي، فكالمعتاد كانت أنيقة، وتتزين بشكل لائق، وكانت تلف شعرها كعكة كما تفعل سيدات الأعمال، وترتدي ملابس العمل التي تصف جسدها، ولكن كان يشوب نظراتها شيء لم أعهده فيها من قبل، شيء منهك ومقلق، شيء يصعب وصفه.

سألتني بشيء من الغيرة:

- تذهب في رحلات كثيرة بعض الشيء هذه الأيام، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- سامحيني على الإزعاج أرجوكِ.

- لا عليك، فالأمور هادئة بالمكتب على أي حال.

- وكيف حال "جميل"؟

- وكيف تتوقع أن يكون؟ مطحون المسكين.

- وأنتِ؟

- إنني بخير.

تجنبت عيني، ثم استدارت ونادت على "إزجي" مرةً أخرى، فأجابتها من غرفتها:

- حسنًا أمي.

- تصيبينني بالجنون إذا ما بقيتِ بالداخل.

ثم سألتني:

- إلى أين تذهب هذه المرة؟

- إلى "بوزجادة" لمدة يومين.

- أتذهب وحدك؟

لم أجبها في الحال، لم أستطع أن أخبرها عن "عائشة"؛ حيث لم أخبرها عن "أورهان" أيضًا، وظهر على وجهها تعبير متفهم جدًا، ولاحظت في الحال ما الذي فكرت فيه، وهذا دغدغ كبرياء ذكورتي، فظللت صامتًا.

- سأعود يوم الاثنين.

- اذهب واستمتع بحياتك، سنعتني نحن بالوحش الصغير يوم الأحد.

- أين أسورتِك؟

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟

- أسورتِك...

وأشرت إلى معصمها، فمنذ أن رأيتها أول مرة، كانت ترتدي دائمًا أسورة أمها الذهبية في معصمها، ولم أرها أبدًا تخلعها.

- لا عليك.

ثم تنهدت، اعتقدت أنها ستقول شيئًا آخر، ولكنها لم تفعل، ورأيت صدرها يرتجف كلما زفرت.

عرضت على "نازلي" أن أوصلها إلى مكان عملها، وجلست في المقعد الأمامي للتاكسي، وجلست هي و"إزجي" في الكنبة الخلفية، وكان المرور سلسًا في تلك الساعة، ووصلنا إلى مكتبها من دون الوقوف في أي زحام مروري، ولم نتكلم في أي شيء طوال الطريق.

قالت "نازلي":

- لا تكوني شقية، حسنًا؟

فأجابتها "إزجي":

- سنذهب إلى مسجد "السلطان أحمد".

قاطعتهما:

- حسنًا حسنًا، هل نحن جاهزون؟

أجابتني وهي تضرب على جفنيها:

- نعم، يجب أن أرى المسلة.

Twitter: @ketab_n

- ولماذا؟

- لأن كل زملائي بالفصل رأوها.

ثم نظرتُ إلى "نازلي" وهي تتضاءل بسرعة من النافذة الخلفية، "نازلي" التي دائمًا ما كانت الأقوى بيننا في الأوقات الصعبة، "المرأة الحديدية" لعالمنا الصغير، "نازلي" المكافحة المقاومة، التي تعرف متى تكون قاسية وعنيدة، التي وقفت شامخة بالرغم من كل شيء، وعند وصولنا إلى الميدان الرئيسي، كانت قد اختفت بالفعل بين البنايات رمادية اللون.

سألني سائقنا العجوز:

- أتود أن تجلس مكان زوجتك؟

- ماذا تقصد؟

- قد لا تحب الفتاة أن تجلس وحدها.

نظرت إلى ابنتي، فأقرت بصحة كلام السائق. رَكَنَا، ونزلت لأركب في المقعد الخلفي، واستمعنا بقية الطريق إلى مصائب حفيد سائقنا العجوز الذي يماثل "إزجي" في العمر.

وكما توقعت، ضجرت "إزجي" بالمسلة وبمسجد "السلطان أحمد" بعد خمس دقائق، فذهبنا إلى "صهريج البازيليك" لننجز أي شيء، ولكنه كان مغلقًا للصيانة، ملأت فمها بالهواء وبدأت تحركه من جانب لآخر، وكنت أبًا خبيرًا بالقدر الكافي لأعرف أن هذه إشارة سيئة، وتوجب عليَّ أن أكون واسع الحيلة وأن أجد بسرعة شيئًا ما لنفعله، حتى أنقذ اليوم، وكانت مدرسة "كافيراج" أول ما جاء على بالي.

أحبت "إزجي" المدرسة من لحظة دخولنا إليها، وتنفست أنا الصعداء، وأثناء مرورنا خلال الفناء القديم - حيث تحولت فصول المدرسة القديمة إلى

Twitter: @ketab_n

فصول لتعليم دورات فن الرسم على الماء والعزف على الناي - وصلنا إلى المقاهي في الجانب الآخر، وكانت هناك امرأتان من المحتمل أنهما جاءتا لتسجيل اسميهما في الدورات التعليمية، وزوج من السياح اليابانيين يبدو عليهما أنهما ضلا طريقهما. فتحت "إزجي" عينيها محدقة في أسوار المدرسة، حيث لم ترَ في حياتها أي أماكن قديمة من قبل.

وفي الحال بدأتُ أنا بتدخين الشيشة، وبدأت هى بمراقبة الفقاقيع التى تتحرك بداخلها، ورحل السائحان اليابانيان بعد أن فرغا من الشاي، ولَوَّحَت "إزجي" لهما، وبعد لحظة سمعنا صوت الناي آتيًا من الفناء، كان الصوت ينتشر بهدوء في المكان كله حتى ملأ المقهى الصغير الذي كنا نجلس فيه.

وأثناء مراقبتها للفقاقيع سألتني:

- كيف حال "عائشة"؟

- جيدة، إنها تفتقدك.

- هل ما زال شعرها قصيرًا؟

- نعم.

- أريد أن أقص شعري مثلها، ولكن أمي لن تسمح بذلك.

بدأت بنوبة سعال قبل أن أسألها، وبدا سعالها كصوت القطة وهي تتشاجر، فلقد قامت باستنشاق دخان الشيشة، ودمعت عيناها، واندفع الجرسون إليها مُحضرًا بعض الماء من أجلها، هدأت بعد شرب الماء وسكبت بعضًا منه.

- هذا ما يحدث لمن يشرب الشيشة، أصبح لديكِ فكرة عنها الآن.

- إنه شيء مقرف.

- اعتاد القدماء أن يدخنوها طوال اليوم.

Twitter: @ketab_n

- القدماء بلهاء.

- سأشتري لكِ "كوكاكولا".

- هل يقدمون "كوكاكولا" هنا؟

راقبتها أثناء تناولها لـ"الكوكاكولا" بسعادة، تأخذ شكل "نازلي" يومًا بعد يوم، حيث بدأت عيناها تضيقان مثل عيون "نازلي"، بينما تشابه أنفها المقدوني - الذي يضفي على وجهها جمالًا - وشعرها الأشقر الداكن مع أنفي وشعري، ولديها جبهة كبيرة اعتبرتها أمها علامة على ذكائها، ودائمًا ما تكون جبهتها مبقعة بعلامات الحبر الأزرق؛ حيث تستخدم أقلام الـ"بول بوينت" كعصي العزف على الطبال وتلمس جبهتها بها.

- فقد "جميل آبي" صوابه بالفعل، أتعلم هذا؟

- ماذا تقصدين؟

- رأيته يبكي في يومٍ ما.

- ثم؟

- ثم لا شيء، كان يجلس على ترابيزة المطبخ يبكي، حاول أن يُغَيِّر من هيئته عندما رآني، ولكنني رأيته، سألت أمي، ولكنها لم تجبني بشيء.

- أحيانًا ما يبكي الكبار أيضًا.

- وأنت؟

- أجل، وأنا أيضًا.

- ولكنني لم أرك تبكي أبدًا.

- شيء سيئ.

Twitter: @ketab_n

ثم لعبنا ثلاثة أدوار طاولة، فزت في الدور الأول، وفازت هي بالدورين الآخرين، فاقترحت عليها مباراة أخرى، ولكنها لم تقبل، وقررت حينها أن أشتري لها لعبتين من ألعاب الفيديو.

- اشترِ واحدة اليوم، وستشتري الأخرى فيما بعد.

- معي المال الكافي لشراء الاثنين اليوم.

- الأمر ليس هكذا، أود أن أكون مدينة لك بشيء ما.

عندما خرجنا إلى الفناء مرة أخرى، كان الظلام قد حلّ. بدا سور المدرسة بالضوء الخارج من شباك ذي قضبان حديد مطاوع، وسمعنا صوت ناي آتيًا من الشباك نفسه، أمسكتُ يديها واقتربنا منه، فرأينا أحد السائحين اليابانيين اللذين رأيناهما في المقهى يعزف على الناي ومعه اثنان من أصدقائه. لم يكن عزفه بالرديء.

Twitter: @ketab_n

39

سألني "فيلي" قبل أن أُنهي الدرس:

- وماذا عن الدرس يا أستاذ؟

- أخبرتك بأنني سأعود يوم الاثنين، أليس كذلك؟

- لو كنت مكانك لذهبت لزيارة أمي.

- لماذا؟

- كيف أصف لكَ؟ إنها اجتماعية وودودة جدًا، وقد لا تتركك ترحل بسهولة.

دائمًا ما يُفَاجئني السفر إلى "تراقيا"، فبسبب وهم الخريطة، يبدو الطريق قصيرًا جدًا، ولكن عندما تسلكه تجده لا نهاية له، ولعلمي بهذا جهزت حقيبة السفر لنفسي غير عابئ بتهكمات "عائشة"، وأخذت سماعات أذني الجديدة وشريطين اشتريتهما حديثًا وأدويتي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي نسافر فيها لـ"بوزجادة" معًا، وحتى إن لم نصل لشيء، كنت آمل على الأقل أن يُحَسِّن تغيير الجو من حال "عائشة"، وتولت هي تنظيم الرحلة، وطبقًا لتنظيمها، من المفترض أن نركب الأتوبيس في التاسعة إلا الربع مساءً لنصل إلى "إيجابات" حوالي الثالثة صباحًا؛ حيث

Twitter: @ketab_n

حجزت لنا حجرتين في فندق على رصيف الميناء، وفي التاسعة من صباح اليوم التالي سنركب العبَّارة لتأخذنا إلى "بوزجادة".

ولكن منذ البداية لم تُنفذ الخطة كما تصورتها تمامًا، فمثلًا لم أسمع أبدًا عن اسم شركة الأتوبيسات التي اختارتها، وجلسنا قرابة الساعة في مكتب الشركة ننتظر الأتوبيس في "بشكتاش"، وظللنا نشاهد برنامجًا على جهاز تليفزيوني سيئ الألوان، حيث تعطل الأتوبيس عند المحطة الرئيسية خارج المدينة، وبما إننا لسنا في موسم السفر الآن، لم يبد أحد قلقًا بشأن تعطله.

دائمًا ما توترني احتمالية وقوع الحوادث. كنت عصبيًا للغاية، فدائمًا ما أعتقد أن الحوادث حتمًا ستحدث لي، وكان الأتوبيس ممتلئًا بالكراسي التي لا تنحني، وصواني الطعام التي لا تُفتح بشكل ملائم، والأزرار التي لا تعمل، وكان مساعد السائق في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، ويبدو عليه أن أباه أخرجه من المدرسة بسبب سلوكه صعب المراس، حيث كان يجاهد ليبدو مهذبًا.

وعندما أيقظتني "عائشة"، رأيت من الشباك الذي كنت أسند رأسي عليه رجلًا يغسل جانبي الأتوبيس بالخرطوم، ومن بين القطرات المتساقطة رأيت العلامة المضيئة لمنطقة الاستراحة التي توقفنا عندها.

قالت "عائشة" وهي ترتشف الشاي:

- أعتقد أننا قرب "تكير داج".

وعلى الرغم من برد "تراقيا" القارس، اخترنا أن نجلس في الخارج وأمامنا طابور من الأتوبيسات تتلقى غسيل جوانبها ونوافذها، وتم فتح أغطية محركاتها وغلقها، حيث تمت تهوية المحركات، ورأينا من خلفها الطريق السريع الواصل إلى "البلقان".

- إنها لمعجزة أن نجد مثل هذا الشاي الجيد في تلك الساعة.

- أهذا رأيك؟

Twitter: @ketab_n

وعَبَسَتْ بنظرة منتقدة إلى كوبها، وأردت أن أبدو متفائلًا فوضحت:

- طبقًا لمعايير الرحلة، لم يكن بمقدورك توقع أن يكون بجودة الشاي الذي تصنعينه بالمنزل، أليس كذلك؟

ابتسمت متعاطفة، ثم استدارت ونظرت إلى مساعد السائق وهو يتسكع بجانب الأتوبيسات، ثم قالت:

- ما زلت تذكر، أليس كذلك؟

- أليس كذلك؟...

في إحدى إجازاتنا نحن الأربعة، والتي أصبحنا فيها خمسة، كانت "إزجي" تبكي بغير توقف، وساعد هذا البكاء على إخفاء الأمر المريب الذي تدخل بين "نازلي" وبيني؛ حيث ظلت تبكي لمدة ساعة ونصف لأول مرة وصدمتنا جميعًا أثناء توقفنا في استراحة على الطريق إلى "أيفاليك"، ثم تعاملت بشكل طبيعي جدًا، حيث تقيأت على قميص "نازلي" الأبيض، وكانت المفاجأة أن "أورهان" وأنا لم نمنع أنفسنا من الضحك، فاستهجنتنا زوجاتنا، والتحقت "إزجي" بأمها عن طريق البكاء من قلبها.

أشارت "عائشة" بكوب الشاي وقالت:

- لقد كنتما حقيرين.

- كنا بالفعل، أليس كذلك؟

أجبتها وأنا أفتقد الغائبين الثلاثة.

وصلنا إلى "إيجابات" قرابة الفجر، وصفعنا نسيم البحر القوي على وجوهنا، وأشار المساعد البدين إلينا بمكان الفندق. كان علينا أن نمشي حتى الطرف الآخر من رصيف الميناء.

Twitter: @ketab_n

اعتقدت أنني رأيت جميع الفنادق السيئة في البلد بفضل جولات الفرقة التي قمت بها في شبابي، ولكني كنت مخطئًا؛ فعندما دخلنا فندق "فرست" وهو مبنى طويل غالبًا كان مبنيًا لغرض آخر، وتم استخدامه كفندق بطريقة أو بأخرى. يصادفك سلم ضيق بمجرد دخولك، وتشتم منه رائحة زيت محروق بداخله، وفي منتصف السلم يوجد باب صلب تمر من خلاله إلى منطقة تُستخدم كمطعم وصالة استقبال. نظرت إلى "عائشة" فقابلت نظراتي بعينين ناعستين؛ حيث تغلب تعبها على المفاجأة.

وأثناء تفكيري حول ما الذي نفعله في هذا المكان في الخامسة صباحًا، دخل شخص من الباب، وكان رجلًا قصيرًا في الأربعينات من عمره. عيناه متيقظتان حتى في مثل هذه الساعة، وكان يرتدي قميصًا أبيض على الرغم من برودة الجو.

- "عائشة" هانم؟

- "رؤوف" بيك؟

- مرحبًا، غرفتكما جاهزة.

- غرفة؟

أجابها وهو ينظر إلى كل منا:

- نعم.

- لقد حجزت غرفتين.

- أهذا صحيح؟

- لا بد أن زميلك بشركة الأتوبيسات قد أخبرك.

- لم يخبرني.

Twitter: @ketab_n

ونظر إلى السقف في صمت وكأنه يحاول أن يرى إن كانت هناك أي غرف شاغرة بالأعلى، ثم قال:

- لا توجد مشكلة، لدينا حجرات شاغرة، لن تمانعا إن لم يكونا في الطابق نفسه، أليس كذلك؟

أجابت "عائشة":

- لا توجد مشكلة، سنقيم لساعات قليلة على أي حال.

وسألته أنا:

- عذرًا، متى ترحل العبَّارة إلى "بوزجادة"؟

- ماذا تعني بـ"بوزجادة"؟

- إنه حيث نحن ذاهبان، إلى "بوزجادة".

- لن تستطيعا الذهاب إلى "بوزجادة" من هنا، بإمكانكما فقط الذهاب إلى "جوكجادة"، بما إنكما ذاهبان إلى "بوزجادة"، لماذا أتيتما إلى "إيجابات"؟

أردت أن أصرخ، بينما حدقت "عائشة" صامتة في نقطة في السقف، فقال الرجل في حرج واضح:

- ولكنني لم أعلم، أخبروني في شركة الأتوبيسات أنها "جوكجادة"، وعلى أساس هذا رتبت الأمور.

فأجبته وقلبي مليء بالتعاطف معه:

- لقد فعلت ما عليك.

كانت الغرفة ضيقة تسع سريرًا وبالكاد تسع لدولاب متوسط الحجم، وجعلها مصباح الفلورسنت المتدلي من السقف أكثر مللاً، وكانت أرضية الحمَّام أعلى من مستوى أرضية الغرفة بشبر، وسمعت الصنبور ينقط.

Twitter: @ketab_n

نحتاج إلى أن نذهب في الصباح إلى "جاناكالي" لنلحق بأتوبيس الساعة التاسعة، ونذهب إلى "إزنه" ثم إلى "جيكليه"؛ حيث تبحر العبَّارات إلى "بوزجادة" من هناك، وتبقى أمامنا ساعتان للنوم.

وبمجرد ذهابي في النوم، سمعت دقًّا على الباب، انتظرت حتى أتبين إن كان هذا الدق حلمًا أم واقعًا، ولكنه أصبح أعلى في المرة الثانية، فتحتُ الباب لأرى "عائشة" أمامي مرتدية بيجامتها.

هناك رجلان يتشاجران في الغرفة المجاورة لغرفتي بالأعلى، وكلاهما سكران، إنهما يئنان كالخنازير.

- ولماذا لا تدخلي؟

دخلتْ وأغلقتْ الباب، ثم نظرتْ إلى الغرفة وقالتْ:

- غرفتك أسوأ من غرفتي.

- حسنًا، ارجعي إلى غرفتِك، إن كنتِ تريدين هذا.

- لا، الرجلان ثملان.

وضعتُ ذراعي على كتفيها كما لو كانت رفيقي في الجيش:

- عزيزتي "عائشة"، لا أريد أن أعلق على موهبتِك التنظيمية، ولكننا في المكان الخاطئ الآن، أليس كذلك؟

- بسبب البلهاء في شركة الأتوبيسات.

- أمتأكدة من أنكِ قُلتِ لهم "بوزجادة" في التليفون؟

- ماذا تقصد بكوني متأكدة؟

- ربما قلتِ "جوكجادة" بالخطأ.

- ماذا؟ أتعتقد أنني خرفت؟

Twitter: @ketab_n

- أحيانًا ما أخلط بينهما أنا أيضًا.

- لا تقل أشياء غبية.

تنهدت ثم أشارت إلى السرير بذقنها وقالت:

- إنني ميتة من التعب، في أي جانب ستنام؟

Twitter: @ketab_n

40

وصلنا إلى "بوزجادة" عند حلول الليل، كنا نعاني دوارًا نتيجة تنقلنا من عدة أتوبيسات وعبَّارات، وكانت "بوزجادة" التي لمحتها من شباك العبَّارة مكانًا جميلًا، ولكنها أصغر مما اعتقدت، وكانت الشمس أثناء غروبها تضيء واجهات المنازل المطلة على البحر.

عاشت "وسيلة هانم" في مزرعة عنب صغيرة تملكها على الجانب الآخر من الجزيرة، رحبت بنا بشكل مثير، وهي امرأة جذابة في أوائل الستينات، لها عينان تشعر بأنهما سيلتهمانك، تصبغ شعرها القصير المقصوص بالأصفر، لولا أنفها الأفطس لاستحال تصديق أنها أم "فيلي".

وأثناء تقديمها سمك "الدنيس" لنا، قالت:

- أتعلم، لديَّ شريطَك، أعطانيه "فيلي"، وأستمع إليه مع السيد "يانس" أحيانًا، أغانيك جميلة جدًا.

كان السيد "يانس" جالسًا أمامنا، وهو رجل في الخمسينات من عمره ذا خد أحمر، وهو كاهن كنيسة الجزيرة، يرتدي نظارة معدنية، وله لحية رقيقة، ووجه ضئيل، وأصابع طويلة.

وبابتسامة رقيقة قال:

Twitter: @ketab_n

- نعم، ألست في فرقة موسيقية؟

- في الحقيقة كنت في فرقة لبعض الوقت، ولكننا حَلناها.

- لست على دراية تامة بموسيقى الروك، ولكنَّ هناك شيئًا ما في أغانيك يلمس الفرد من الداخل.. شيء ما جميل، شيء ما حساس، أعتقد أننا جميعًا نتوق إلى نفس الشيء المتعمق في قلوبنا، نبحث عن شيء ننتزعه من قلوبنا، نبحث عن إقصاء لوحدتنا، والأغنية الجيدة تفعل هذا أحيانًا، حسنًا.. يجب أن أخبرك بأنني حصلت على شريطك من "وسيلة هانم" وسجلت منه نسخة في بيتي، أعتقد أن هذا غير قانوني، أليس كذلك؟

- أرجوك.

- آمل ألا تكون مللت من حديثي.

فتدخلت "عائشة":

- أرجوك تحدث، فهو لا يصدقنا عندما نخبره بمثل تلك الأشياء.

لم أذق في حياتي مثل هذا السمك اللذيذ من قبل، وأزال نبيذ الجزيرة الشهير إعياءنا، ثم أحضرت "وسيلة هانم" بعضًا من حلوى التين، أنا متأكد من أنّها صنعته بنفسها أيضًا.

وعندما حان وقت القهوة، شَغَّلتْ الراديو، ووجدت محطة تذيع أغاني يونانية، ثم أشعلت عود بخور أخرجته من الدولاب، فغطت رائحة خشب الصندل الخفيفة الغرفة في الحال، وكان لديها سجائر رفيعة في حافظة سجائرها الجلدية، أشعلت واحدة منها وجلست أمامنا.

- كم المدة التي تنويان قضاءها هنا؟

أجبتها:

Twitter: @ketab_n

- ثلاثة أو أربعة أيام.

- لا، إنها فترة قصيرة جدًا، غير كافية للتمتع بـ"بوزجادة".

قالت "عائشة":

- نأمل أن نأتي ثانية.

فقالت وهي تلقي بنظرة مغازلة إلينا:

- هناك مطعم سمك جيد جدًا على شاطيء البحر، ويكون أكثر رومانسية في هذا الموسم.

لم يكن لأحد منا طاقة للاستمرار في محادثتها المتدفقة، حيث نام السيد "يانس" على الفوتيه المجاور للشباك، وكان يحرك رأسه من وقت لآخر، مُحدثًا صوت أزيز مثل الذي تحدثه الموبايلات عندما تهتز، بدا على وجه "عائشة" نعاس هادئ، وما زالت "وسيلة هانم" تتحدث بحماس ظل مكبوتًا لأيام لا أعلم عددها.

- إنها مهنة جميلة، أن تكون موسيقيًّا.

- ليست سيئة تمامًا.

- أردتُ بشدة أن أعزف آلة عندما كنت صغيرة، كانت هناك مدرسة بيانو مجرية استأجروها لي عندما كنت في المرحلة الإعدادية، كانت ذات وجه عظمي، وأصابع نحيفة جدًا، كرهتها من النظرة الأولى، ولكن بما أنني فتاة يافعة لعائلة كبيرة، يجب أن أتعلم البيانو، أليس كذلك؟ ثم، بعد مدة - ولن تصدق هذا - بدأت تتحرش بي جسديًّا، تحملتها لمدة أسبوع آخر ثم أخبرت أمي، فجعلوها تذهب في اليوم نفسه، وبديهيًّا فقدت حماسي، وعندما أرى أي بيانو الآن أشعر بالقرف؛ حيث أتذكر تلك الأصابع النحيفة.

أحدث السيد "يانس" أزيزًا جديدًا وتقلب على الجانب الآخر من الفوتيه، وبدت عليه الراحة، لا بد أنه معتاد على النوم هنا.

Twitter: @ketab_n

أطلقت نفخة من سيجارتها بكياسة ثم استطردت:

- ثم جربتُ آلة الماندولين وأنا في المرحلة الثانوية، لم أكن سيئة جدًا فيها، ولكنني أعترف بأنني كنت كسولة، ولم أواظب على دروسها، ولذلك أنا مسرورة بدراسة "فيلي" معك، كيف حاله؟ هل هو جيد العزف؟

- نعم، ليس سيئًا على الإطلاق.

فأجابت بسرور أكثر مما توقعته:

- حقًّا؟ كان يجب أن أتوقع هذا! فموهبة الموسيقى تجري في دماء عائلتنا، اعتاد أعمامي الذهاب إلى تجمع "إسكدار" للسمر الموسيقي، وكانت أصواتهم عذبة، ربما يصبح "فيلي" موسيقيًّا مشهورًا يومًا ما، مثلك تمامًا.

- ربما، لا أرى مانعًا لذلك.

Twitter: @ketab_n

41

في اليوم التالي خرجنا لاستكشاف الجزيرة، وساد الصمت بين "عائشة" وبيني، لم نتحدث كثيرًا منذ بداية تلك الرحلة.. صمت ذو طبيعة غامضة، لا أعرف كيف أفسره.

أَطَلَّتْ تقلبات الحياة علينا بطرق مختلفة جدًا، فقد تُنعش التجربة نفسها أحدنا وتجعله أكثر انبساطًا، بينما تُسكت الآخر تمامًا، وتلعب شخصياتنا دورًا في هذا بالطبع؛ حيث نصل إلى أماكن مختلفة تمامًا، بينما انطلقنا من نفس الألم، وبناء على ذلك قد ينتج الإحباط الذي نعيشه في مرحلة المراهقة إما الشاعر الذي بداخلنا أو القاتل الذي بداخلنا.

وكانت شخصية "عائشة" تتقبل الأمرين معًا، فهي تكتب القصائد للقاتل بداخلها، ثم تشحذ فأسها وتأخذه وتقطع كل الروابط التي تقيد حياتها رابطة تلو الأخرى، وتنضج بهدوء شديد في مثل تلك الأوقات، وإذا كنت معها حينها فكلماتك ستصطدم بحائط غير مرئي وترتد إليك.

بدأنا من رصيف الميناء، ظلت تُحَدِّق في البيوت؛ حيث كانت تبحث عن خيط تتمسك به، فمن المحتمل أن توضح لها تفصيلة صغيرة الطريق الصحيح وتقود

Twitter: @ketab_n

قدمها الصغيرة إلى حيث "أورهان"، كنت أتخيل وجهها مستطيلاً كحيوان مفترس يقف مثل النمر المتربص.

بينما كنت أنكمش بجوارها، فأولاً كنت متأكدًا من أن السيد "أورهان" ليس بالجزيرة، ثانيًا لم أكن متأكدًا من وجوب إخبار "عائشة" بما أعرفه، حيث أكره أن أكون في مثل تلك المواقف، فكل يوم تتضاعف الأشياء غير المعلنة ويزداد وزنها ثقلاً على ضميري.

تجولنا في شوارع المدينة طوال اليوم، وسعدت برؤيتها تتمشى؛ حيث أصبحت بشعرها البني الآخذ في الطول نسخة من "جين سيبرج" تحت الضوء الناعم المتسرب من السحب التي غطت السماء، وجعلتنا السترات التي ارتديناها لتحمينا من نسيم الجزيرة نبدو وكأننا في فيلم "نفس لاهث"، وتمنيت أن يكون فيَّ شيء من "بلموندو".

وبحلول الليل وأثناء عودتنا للمنزل من دون إيجاد أي دليل، مررنا بالسيد "يانس"، ولم يكن ممكنًا أن نرفض دعوته، ولذلك جلسنا معه على المقهى، أشار إلى نقطة خلف التلال وقال:

- هنا توجد كنيستنا، مُرَّا في أي وقت، إنها جميلة جدًا.

قالت "عائشة":

- والجزيرة بأكملها جميلة جدًا كذلك.

- آمل أن تكونا قد قضيتما وقتًا ممتعًا.

- نعم، على الرغم من أننا تُهنا مرتين.

فضحك السيد "يانس" وقال:

- لا يمكن أن يتوه المرء في الجزيرة، أسوأ ما يمكن حدوثه هو قضاء وقت أطول في الطريق.

Twitter: @ketab_n

وكان راديو المقهى يذيع أغنية شعبية من إقليم "أورفة"، ويجعلك هذا تشعر بالتحسن أثناء سماعك للأغنية ومشاهدتك لشوارع الجزيرة؛ حيث الأشجار بلا أوراق، لم أعرف نوعها، وكان نسيم البحر يهز أجزاء النافذة المدهونة حديثًا.

قالت "عائشة":

- في الحقيقة نبحث عن شخص ما.

- أتقصدين هنا؟

- نعم، جاء مؤخرًا إلى الجزيرة، قد يكون لفت نظرك.

- من السهل جدًا تذكر الوجوه في هذا الموسم، لماذا تبحثان عنه؟

- إنه صديقنا، اسمه "أورهان".

تمتم الرجل المسكين:

- "أورهان"...

لا بد أنه ارتبك، حيث كان ينظر إليَّ بانتباه، وأعادت عليه "عائشة":

- إنه صديقنا، نحن أعز أصدقائه.

نكس السيد "يانس" رأسه، ولكنه لا بد كان يفكر في شيء ما آخر، ثم قال ببطء:

- لقد قرر الانفصال عن زوجته، ثم رحل فجأة، نحن قلقون جدًا، هناك العديد من الذين يأتون ويرحلون ويحملون اسم "أورهان"، هل مَنْ تقصدينه مهتم بالشعر؟

- نعم، متى رأيته آخر مرة؟

- أتى إلى الكنيسة يوم الأحد، وقال إنه مدرس رياضيات، ثم تمشيت قليلاً معه، وتحدثنا عن الكتب المقدسة، والرياضيات، والشعر، وأصر على أن الثلاثة شديدو الصلة ببعضهم البعض، وهي فكرة شائقة للغاية بالطبع، فكرة حديثة جدًا.

Twitter: @ketab_n

- أموجود هنا الآن؟

- لا أعرف، لم أره ثانية.

- أين يقيم؟

- أعتقد أنه يقيم عند عائلة "أكمورات".

واحمر خجلًا لسبب ما، ثم قال:

- أعتقد أن "وسيلة هانم" تعرف كل شيء، فلا يحدث شيء هنا وإلا وتسمع عنه.

- وأين هذا البيت؟

- هل ستذهبان إليه؟

- هل هو بعيد جدًا؟

كان السيد "يانس" مترددًا، وتأكدت الآن من كونه على علم بعلاقة "أورهان"؛ حيث كان واضحًا أنه يريد المساعدة، ولكنه أراد أن يكون بعيدًا عن أي قيل وقال في الوقت نفسه.

وأخبرنا:

- انتهيا من قهوتكما، وسأريكما الطريق.

Twitter: @ketab_n

42

اتسعت عينا "وسيلة هانم" وقالت:

- لا لوم عليها، فقد أتت بحبيبها إلى هنا، في الحقيقة إنني مهتمة جدًا وحزينة لأمر صديقكما، لأنه ليس أول مَنْ تحضرهم إلى هنا على أي حال.

كانت أمامنا وجبة مكتملة، قوامها الأساسي المأكولات البحرية، ومع ذلك لم أكن في حال يمكنني من التمتع بها، فصوتها في كل أرجاء الغرفة، ولم أستطع أن أحمل نفسي على تغيير اتجاه الحديث، ولم أستطع أيضًا النظر إلى وجه "عائشة".

ذهبنا مع السيد "يانس" إلى منزل عائلة "أكمورات" عقب تناول القهوة، ومن منظره الخارجي لم يكن مميزًا عن بقية منازل العنب الأخرى، ورأينا من خلال الحائط الذي أمامنا أن الشرفتين مغلقتان كإشارة على أن سكان المنزل ليسوا في الجزيرة الآن. حدقت "عائشة" وهي تنظر إلى المنزل، كما لو كانت ترى ما وراء الجدران، فربما رأت شيئًا ما بحدس النساء.

وأثناء جلوسنا لتناول العشاء، بدأت في إطلاق نيران أسئلتها واستفزاز "وسيلة هانم"، ولم تفوت المرأة العجوز تلك الفرصة، حيث رفعت حاجبيها وقالت:

- تريدان إذن معرفة أنباء سارة عن صديقكما؟ لا تلوماني على ما سأقوله لكما.

Twitter: @ketab_n

ولم يقع اللوم بالتحديد عليها، ولكنه لم يكن واضحًا على مَنْ يقع، ورأيت نفسي أفضل المرشحين لوقوع اللوم عليه بسبب مخزون مشاعر اللوم التي حملتها منذ طفولتي؛ حيث لم يكن تقبل هذا إلا ضربًا من لعب الأطفال بالنسبة لشخص اعتقد حتى بلوغه الثلاثين من العمر أن موت أبيه كان خطأه.

فمن النظرة الأولى، كنت متأكدًا من أنني الشخص الذي يجب أن يُلام لأنني لم أتنبأ بكل ما يحدث الآن، لقد جلبت "عائشة" إلى هنا وجعلتها تواجه الواقع، وهذه إساءة مقبولة نسبيًّا، ولكن ما أزعج ضميري حقًّا كان احتمالية تنبؤي بكل هذا، فربما أردت أن أجلب "عائشة" هنا، وأردتها أن تقابل الكاهن، وتذهب لرؤية المنزل، لقد دفعتها لمواجهة "وسيلة هانم" بيدي، وبذلك أردتها أن تكتشف، ولا تسامح أبدًا، وتصبح لي.

رأيت يدي "عائشة" على الترابيزة بطرف عيني، حيث كانت أصابعها الطويلة ذات الأظافر المشذبة تقطع السمكة بالشوكة والسكينة، كانت يداها هادئتين جدًا، هادئتين لدرجة ترهبك، وتخيلت الشوكة وهي تطير مخترقة جبهتي.

سمعتها تقول:

- وأنتَ؟

ولاحظت من جلسة السيد "يانس" على كرسيه أنها كانت تكلمه، وكان صوتها هادئًا كهدوء يديها، وسألته:

- ما رأيَك بخصوص هذا؟ ما الذي يقوله الإنجيل؟

فأجابها مُتمتمًا:

- جاءت الكتب السماوية لإسعاد البشرية جمعاء، أتتذكرين سورة "الإسراء"؟

ولم ينطق أحد منا، ولم أكن حتى متأكدًا عن ماذا كانت تتحدث سورة "الإسراء"، فاستمر السيد "يانس" بصوته الناعم يردد:

Twitter: @ketab_n

- {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

كنت أراقب يدي "عائشة"، يديها الصغيرتين ذات الأظافر غير المطلية الشبيهتين بأيدي الأطفال، وكانت يداها مراوغتين وحذرتين مثل العصفورين اللذين رسيا على حافة نافذة غرفة "نهاد آبي"، وكأنهما يبحثان عن شيء ما ينعش جسديهما المجهدين.

- {أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

سألت "وسيلة هانم":

- أليس هذا من القرآن؟

وأضافت "عائشة":

- إنه جميل جدًا.

نظر لهما القس العجوز مبتسمًا وقال:

- الكتب المقدسة ليست بالسيئة أبدًا، ومع ذلك لا تبيع نسخًا كثيرة، أليس كذلك؟

لم أستطع النوم في الليل، أردتُ معرفة الوقت فحاولت معرفته من ساعتي على الضوء القادم من النافذة. كانت الثالثة صباحًا تقريبًا، فخرجت من غرفتي على أطراف أصابعي، وكانت غرفة "عائشة" بجواري في الطابق العلوي، رأيت ضوءًا من عقب بابها، فطرقت الباب بخجل، سمعت في البداية صريرًا وطقطقة، ثم سمعت خطوات قدميها، رأتني، وابتسمتْ.

- لم تستطع النوم، هاه؟

- هذه الليلة لن تنتهي، أليس كذلك؟

- ادخل، سأفاجئك.

Twitter: @ketab_n

وكانت الغرفة التي أعطتها لها "وسيلة هانم" أصغر من غرفتي، ولكن بها أمتعة أكثر مما في غرفتي، حيث كان هناك دولاب كبير قديم بجوار الباب وفوقه حقائب كبيرة وثقيلة واقية من المطر، وعلى الحائط المقابل للسرير، كانت هناك صور لأفراد العائلة، تعرفت على "فيلي" وهو صبي في إحداها؛ حيث كان يحاول أن يتسلق إلى داخل زورق، واختلطت رائحة ملاءات السرير النظيفة برائحة النفتالين.

أشارت "عائشة" إلى زجاجة النبيذ الواقفة على "الكومود" وقالت:

- هيا يا رفيق، أتأخذ رشفة؟

لم أرغب في هذا بشكل أو بآخر، ولكنني نظرت إلى الزجاجة، وإلى الابتسامة التي ما زالت على شفتي "عائشة" رغم كل شيء، ثم قلت:

- انتظري، دعيني أجلب كأسًا.

Twitter: @ketab_n

43

قالت لي:

- إنه أمر واضح جدًا، لا يمكن أن تكون لم تلاحظه.

- عادةً ما لا أستطيع الحكم على تلك الأشياء بسرعة.

- طريقة نظر كل منهما للآخر... ولمعان عينيهما أثناء ذلك، ولم تفكر حتى في الأعمال الأخرى التي يقوم بها كل ليلة؟

- كيف لي أن أعرف؟ إنهما عجوزان ووحيدان.

- بالضبط.

- أتعنين أنهما في علاقة غرامية.

- بالتأكيد!

- أتمنى لهما السعادة.

- لا تقلق، فهما سعيدان بالفعل.

كانت "عائشة" تجلس على السرير واضعة ساقًا فوق ساق، تتحدث وهي تهتز للخلف وللأمام، كان وجهها محمرًا، لا أعرف هل هذا الاحمرار بسبب

Twitter: @ketab_n

مشاعرها أم بفعل النبيذ، كنت أجلس أنا على الكرسي الوحيد بالغرفة مسندًا ظهري للخلف وكأنني أمتطي فرسًا، وآلمتني القاعدة الخشبية في أردافي وشعرت بضغط شديد بسبب الحوار الذي لم يصل بعد إلى ما يجب أن يتناوله.

أحنت رأسها وأخذت تكرر:

- إنهما سعيدان، حسنًا، "وسيلة" و"يانس"، "يانس" و"وسيلة"، سيظلان سعيدين طالما بقيا هنا، ربما يجب أن نفعل الشيء نفسه.

- ماذا تقصدين؟ أيجب أن نبقى هنا أيضًا؟

ألقت بضحكة ثملة وقالت:

- آه، طبعًا! وبالتالي سنزعج زوج الحبيبين الآخرين، أليس كذلك؟

فأجبتها وأنا أعلم جيدًا أن ما أقوله سيبدو أحمقَ لها:

- ربما الأمر ليس كما نعتقد.

- نعم، أنت محق، ربما يعطي الأستاذ "أورهان" درس رياضة خصوصيًّا للسيدة، ولمَ لا؟ قد يكون هكذا فعلاً.

قلت وأنا أنظر إلى الساعة المعلقة على الحائط:

- من الأفضل أن أذهب، وإلا نالت منا النميمة أيضًا.

- لا بد أنهما يتحدثان عنَّا بالفعل.

- نعم، يعتقدان أننا حبيبان.

- أهذه مشكلة لكَ؟

- لا.

- لا ليست كذلك.

Twitter: @ketab_n

شعرتُ بالخجل، نهضتُ واهتزت الأشياء من حولي، ثم ملتُ عليها وداعبتُ شعرها...

- لا تُضيِّعي نفسِك، بإمكانِك التغلب على هذا الأمر.

- كيف فَعَلَ هذا بي؟

ثم توقفت عن الكلام.

قررنا أن نترك الجزيرة في اليوم التالي، على الرغم من أن "وسيلة هانم" لم تكن لتتركنا بسهولة؛ حيث كان ما زال هناك حدائق أعناب، ومطاعم سمك، وخلجان عظيمة لم تصحبنا إليها بعد.

وهي تلعب بآخر كروتها قالت:

- أم أنكما غاضبان مني؟

- اهدئي "وسيلة هانم"، من أين أتيت بذلك؟

- إننا عجوزان، أحيانًا ما نثرثر كثيرًا، ولكننا لا ننوي التدخل في حياة أي شخص آخر، لم أرد أن تفكرا في الأمر هكذا.

كانت الشمس في اتجاهها للغروب، وكان رصيف الميناء مزدحمًا بقليل من الناس ينتظرون العبَّارة، لابد أن لديهم عائلات قادمة لقضاء عطلة الأسبوع. ابتسمت "عائشة" وعانقت المرأة.

تنهدت "عائشة" وقالت:

- شكرًا، شكرًا على كل شيء.

وبمجرد رسو العبَّارة، ظهر السيد "يانس" في نهاية الطريق المؤدي إلى القلعة، اقترب بخطوات واثبة يسحب جسده المتعب، أشار إلينا بحقيبة التسوق

Twitter: @ketab_n

التي في يده، وعندما وصل إلينا أخيرًا، كان وجهه أحمر تمامًا ويتنفس بصعوبة كعدَّاء مسافات طويلة في نهاية سباقه.

- أحتاج بالتأكيد إلى بعض التمارين، فأنا لست رشيقًا بالمرة.

فقالت "وسيلة هانم":

- اشتريتَ نبيذًا للأطفال، جيد أنَك فكرت في هذا.

44

سمعنا صوت صفارة حاد للغاية، ثم بدأت محطة عبَّارات الجزيرة تبتعد، الجزيرة التي تعتبر وعدًا لحياة جديدة؛ حيث بدا أنه من الممكن بدء أي شيء من الخدش فيها، بينما تنتظرني أشياء قليلة جدًا في "إسطنبول"، حيث ستكبر "إزجي" يومًا ما، وستتوقف عن الضحك على النكات التي سيلقيها أبوها العجوز، فما الذي سيبقى حينها؟

- فيمَا تفكر؟

كانت الدنيا مظلمة بعض الشيء، ونظر انعكاس "عائشة" في الشباك إليَّ، تراجعت أضواء الجزيرة واندمجت معالمها فجأة، فقلت:

- ربما كنتِ محقة، فنحن أيضًا نحتاج لجزيرة.

- وماذا ستأخذ معكَ؟

- لا أعرف، أعتقد لا شيء، ربما جيتارًا ولكن هذا ليس أكيدًا.

- أهذا كل شيء؟

- لا يحضرني شيء آخر.

- وماذا عن "إزجي"؟

Twitter: @ketab_n

- علينا أن نبني "مول" من أجلها أولاً، حتى تأتي.

ابتسمت من دون أن تتوقف عن التحديق فيَّ، وذابت الأضواء القليلة التي ما زالت تتلألأ في الأفق في عينيها على انعكاس صورتها في زجاج النافذة.

- في الحقيقة كان من الجيد حضورنا.

- هل أنتِ متأكدة من هذا؟

- على الأقل جهزنا التساؤلات، سيكون الأمر أهدأ من الآن فصاعدًا.

- وماذا تقصدين بأهدأ؟

- حسنًا، ليس لديَّ الآن أي سبب لأنتظره، وهذه نتيجة في حد ذاتها سواء أكانت جيدة أم سيئة، أليس كذلك؟

كنت سأجيبها، ولكنني لم أجد ما أقوله، دائمًا ما أقف عاجزًا عن الكلام في مثل تلك المواقف، بدت ابتسامة "عائشة" الآن جامدة، ومع اختفاء آخر أضواء الجزيرة، اختفى الضوء من عينيها أيضًا.

- الأمر الذي لن أتقبله، هو خيانته لي، وبما أن علاقتهما متطورة الآن، فلا بد أنه كان يراها من قبل أن يتركني، أليس كذلك؟

- لم أكن لأعرف.

- لم أكن أفهم لماذا يدعون الأمر "خيانة".. الشخص الذى تزوجته يذهب للنوم مع شخص آخر، هل هذه ما يدعونها بالخيانة؟ لماذا يدعونها هكذا؟ فالأمر لا يعنيك مطلقًا. كل ما في الأمر أن الرجل شعر بأنه يريد النوم مع شخص آخر. إذًا لماذا يدعونها خيانة؟ هذه هى الطريقة التي اعتدت التفكير بها، كلمة الخيانة كانت ذات وقع سخيف على أذنيّ.

- والآن؟

Twitter: @ketab_n

- أشعر بالخيانة، إنه لأمر مقزز.

مددت يدي ليديها وأمسكتهما، لم يكن لهذا الفعل أن يخفف من العلامات الحزينة التي رسمتها على وجهها، ولكن فتاة تتكلم بمثل ما تقول تستحق أن تُمسك يديها، ولذلك بقينا هكذا يدًا بيد كحبيبين في المدرسة الثانوية، حتى وصلنا إلى رصيف ميناء "جيكليه"، حيث احمرت أنوفنا من البرد.

لم تكن رحلة عودتنا حافلة جدًا بالأحداث، ووصلنا بحلول الفجر إلى جسر "البوسفور"، حيث كانت تغطي مجموعة من السحب المتفرقة سماء إسطنبول كعلامة على احتمالية سقوط المطر على رؤوسنا في أي وقت، كانت "عائشة" نائمة مسندة رأسها على كتفي، وكان "بول سيمون" يغني في سماعات أذني "ما زلت مجنونًا...". "بول" من المغنين الذين ساعدنا "نهاد آبي" في اكتشافهم والتعرف على أعمالهم.

وكانت الأمانة هي الشيء الآخر الذي علمنا إياه "نهاد آبي"، فقد كانت المنافسة بين الموسيقيين على أيامه شديدة. لقد كافح طوال عمره ضد مَنْ سببوا له المشاكل بسبب شعره الطويل، أو مَنْ حاولوا تشريده، أو الذين ألغوا تصريح الحفلات في الدقيقة الأخيرة، والآن يحاول تجنب الموت الذي يجهل الموسيقى تمامًا، ولا أستبعد أن يكون في هذه اللحظة يُعَلِّم ملك الموت كيفية مسك منجله بالطريقة نفسها التي يحمل بها المرء الجيتار.

فكرت في أشياء كثيرة أثناء النظر إلى المصابيح الأمامية للسيارات القادمة، بينما تباطأ عقلي بعد فترة، فطلبت قهوة من المساعد الذي كان يتمشى ويتثاءب في الممر، فأشار إليَّ بيده بأنه "حاضر" ثم تحرك.

يحتاج المرء للطاقة كي يتصرف بأمانة، لأن الأمانة تعني إما أن تفعل شيئًا، أو تحجم نفسك عن فعل شيء، فهي تعني مواجهة أشياء عديدة، الامتناع عن

Twitter: @ketab_n

الغطرسة أو غيرها، الكفاح مع المشاكل التي قد نواجهها فقط لأننا أمناء، وبعد مغامرة الثلاثة أيام في الجزيرة تلك، أشعر وكأنني سوبرمان بعد ابتلاعه للـ"كربتونيت" الذي يمتص كل طاقته.

علاوة على ذلك، لديّ شق في قلبي لم أستطع التخلص منه بسهولة، وكلما شعرت بالحزن من أجل "عائشة" كلما شعرت بوجود هذا الشق، كانت تنام لأنها متسامحة مع نفسها، حيث اعتقدت أنها حلت جميع مشاكلها، وأن كل ما تبقى من هذه الحلقة هو ندبة قد تنزف من وقت لآخر، وسيعالج الزمن تلك الندبة أيضًا، وبالتالي بإمكانها النوم الآن.

ومع ذلك، فإن جرعة الأمانة التي سأعطيها لها لن تترك أي طمأنينة بداخلها، حيث نبدأ الخدش منذ اللحظة التي تعلم فيها "عائشة" عن خطة "أورهان" الطائشة، وستنفتح صفحة جديدة لها مليئة بالشكوك والآلام. نحتاج إلى الطاقة لكي نملأ تلك الصفحة، وبسبب ابتلاعي للـ"كربتونيت" هذا، لم يعد لديَّ ثقة كبيرة في نفسي.

حسنًا، ربما أصبح أمينًا مع نفسي على الأقل.

وقد تتفاجأ "عائشة" عند سماعها بخطة "أورهان"، ثم تضحك وتسامحه في النهاية، وربما هذا ما يخيفني، في الواقع لا يتناسب معي إطلاقًا.

وكما اعتاد "نهاد آبي" أن يقول:

- إذا لم يناسبك الواقع، فهناك شيء غير سوي بحياتك.

يتحدث المساعد الآن مع السائق، لقد نسي أمر قهوتي.

Twitter: @ketab_n

45

بحلول الظهيرة، استيقظتُ على صوت جرس الباب، وكانت السماء تبرق، أخبرتني "عائشة" بأنها ستذهب للمطعم فقد أخذت كفايتها من النوم في الأتوبيس. كانت متحمسة جدًا لاستعادة حياتها مرةً أخرى، ولذلك استغربتُ أن تأتي للمنزل في مثل تلك الساعة، كان ظهري يؤلمني من الجلوس على مقعد الأتوبيس الضيق، فكنت أشعر بألم حاد كلما خطوت خطوة باتجاه الباب.

قال "ألتان":

- أهلاً، لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

أجبته وأنا متفاجئ فعلاً:

- مرحبًا، ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟

هذه هي زيارته الثالثة لهذا الحي، وزيارته الأولى لهذا المنزل؛ حيث لم نتشارك في شقة لعدة سنوات، وقف في منتصف الغرفة تتساقط المياه من كل شبر فيه. جال بنظره وتوقف عندما رأى ترابيزة الصيانة المؤقتة، والأثاث المرقع، والترابيزة القديمة. ظهرت نصف ابتسامة على شفتيه، فلا بد أن ما رآه قد ذكره بأشياء مضت.

Twitter: @ketab_n

- ألديك شاي؟

أجبته وأنا أشير إلى التكييف:

- اخلع معطفك فقط هناك، سأعمل لك شايًا.

- ما الذي حدث لظهرك؟

- قَوَّسه الأتوبيس قليلًا.

- لقد عَجَّزت يا رجل...

عندما عدت بعد وضع الشاي على النار، وجدته ممسكًا بجيتار "نهاد آبي" وينظر إليه، تذكرت أنه كان يحبه جدًا، واعتدنا أن نتخطفه من بعضنا الآخر أثناء زيارتنا لمنزل "نهاد آبي" عندما كنّا صغار. وضعه الآن في حضنه، وأخذ ينظر إليه كما لو كان الجيتار قطعة أثرية قديمة.

ومن دون أن يُبعد نظره عن الجيتار قال:

- مررتُ بالمستشفى أمس.

- ثم؟

- يجب أن نتكلم.

- أخبار سيئة؟

رفع رأسه وحدقنا إلى بعضنا البعض، ثم قال:

- "نهاد آبي" يموت يا "محمد".. مات أغلب جسده الآن.

شعرت وكأن شيئًا انكسر داخلي.

قلت من دون أن أعلم إلى مَنْ أوجه كلامي:

- ولاد الكلب! بإمكانهم معالجته.

Twitter: @ketab_n

- تحدثت مع الطبيب المسؤول، وأخبرني أخيرًا، أنه من المستحيل أن يتحسن بعد أن وصل إلى تلك المرحلة.

- وكم لدينا من الوقت؟

- يومان على الأغلب، قالوا إنه لن يتألم.

- اللعنة عليهم، كيف لهم أن يعرفوا؟

- لا أعلم.

تذكرت مذكرة التليفون التي أخذتها من منزل "نهاد آبي"، لقد كنت مغفلًا عندما ألقيتها في سلة القمامة.

- فلنتصل ببلجيكا.

- لماذا؟

- إنه أخوه بعد كل شيء، ربما أراد أن يعرف.

- ألم تخبرني بأنه لم يُظهر له أقل قدر من الاهتمام؟

- ومع ذلك فالأمر مختلف الآن.

نهض وعيناه مسلطتان عليَّ، ثم أمسكني من كتفي بيد، وفي اليد الأخري كان لا يزال ممسكًا بالجيتار، وقال:

- نحن إخوته، ونحن من سوف نشيعه إلى رحلته الأخيرة.

- هيا نخرج، أشعر بالاختناق.

ركبنا سيارة "ألتان" وتمشينا بالسيارة في أنحاء المدينة من دون هدف، وكأن السماء انطبقت على الأرض، وكان المطر يضرب سقف السيارة محدثًا صخبًا. كنا ننظر إلى الزجاج الأمامي للسيارة التي كانت المسَّاحات تحاول تنظيفها بشكل ميئوس منه. لم نُحدث أي صوت، لم نشغل الراديو خشية أن

Twitter: @ketab_n

نسمع أغنية مألوفة لدينا. وصلنا إلى شارع "باربروس بولفارد" على شاطئ البحر، وكان الطريق المؤدي إلى "أورتاكوي" مسدودًا ويتحرك ببطء، ولم يزل المطر يضرب سقف السيارة بشدة، ففي مثل تلك اللحظات يشعر المرء بأنه عاجز أمام القوى العليا، لا نَفَس ولا كلمة.

- أسمعت "إلفان" مقطوعتك لآخرين.

- أهذا حقيقي؟

- أعجب المنتجون بها، ربما يجدون كلمات ليؤلفونها عليها، تلك الفتاة تعمل لأجلك بجدية، هاه؟

- ما زلت لم أصل إلى مِنْ أين سرقتها.

- وصلت أنا، لا تقلق.

- جيد، من أين هي؟

أجابني وهو يعزف اللحن على عجلة القيادة بأصابعه:

- استمعت للحن مرة أخرى بعد عودتي من المستشفى أمس، أعتقد أنه ليس مسروقًا من مصدر واحد، لقد سرقتها من عدة أغانٍ.

- حسنًا.. اخبرني، أي أغانٍ هي؟

- لو كان الأمر متعلقًا فقط بالأغاني لكان الموضوع جيدًا، أما مقطوعتك فمقتبسة من أرواح متعددة أيضًا، فعند استماعك إليها، تسمع صوت فريق "كريمسون كينج"، و"إركن كوراي" أيضًا، وعند لحظة معينة يصبح كأنه مقطوعة موسيقية من تأليف "إلهان إريم" وتقترب من أن تمسك به وبمصدره فيتغير فجأة، فتبدأ بالتفكير في أغاني "بيلي جويل" القديمة؛ حيث مقطوعات العزف المنفرد لـ"جليمور"، وكأن كل هؤلاء ساعدوك على أن تنشئ هذا اللحن، لقد جلبته للعالم بمساعدتهم جميعًا.

Twitter: @ketab_n

- وهل هذا شيء جيد؟

- إنه شيء من أيام شبابنا.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع "ألتان" وهو يتكلم هكذا، فهو ليس بالرجل الذي ينظر للماضي على الإطلاق، أعتقد أن الزمن نال منه.

- ألديك أي شيء لتفعله الليلة؟

ابتسم ابتسامة خبيثة وقال:

- لماذا؟ ألديك أطفال ترعاهم؟

- كنت سأقترح أن نزور أباك، إن كان بمقدوره استضافتنا الليلة.

- أتقصد أنه بدلاً من أن نذهب إلى البار لنسكر، نذهب إلى "لانجا" ونقضي الليلة مع رجل عجوز غاضب؟

-ربما لديه بعض "الراكي".

فأجابني متنهدًا:

- ومَنْ يعلم، يجب أن نشتري زجاجة كبيرة احتياطيًّا.

لا يزال "حسن أمجا" يعيش في المنزل نفسه، وهو بيت حجري مزنوق بين عمارتين سكنيتين، ويقف بمكانه وكأنه سيسقط للأمام في أي لحظة، ويستند التجويف بالدور الثاني على عوارض صلبة تمت إضافتها فيما بعد للتدعيم، وبدا كل هذا أصغر في الحجم كمثل كل الأشياء التي اعتدت رؤيتها في طفولتي.

وبدأ شعره الأبيض منذ أن عرفته تتحول نهاياته إلى اللون الأصفر، وامتلأ وجهه بالخطوط المنتشرة في كل الاتجاهات. كانت خطوط وجهه عميقة جدًا لدرجة أن أقل أضواء الأباجورة ينتج ظلًا عند مروره بها، ومع ذلك ظلت عيناه كما هي؛ حيث بقيت تنظر إلينا وكأنه طالب ثانوي في حين كان يطقطق بطقم أسنانه.

Twitter: @ketab_n

كان يرتدي فانيلا بيضاء، وسروال بيج كبيرًا عليه، ولم تغيِّر السنوات التي مرت الغرفة كثيرًا؛ حيث اختلطت صواني الطعام النحاسية المستديرة، والدواليب ذات المرايات، والسلطانيات البورسلين متعددة الألوان التي تملأ الغرفة.

ولم يكن بالشخصية التي تنزعج باضطراب نظامها بسبب زيارتنا، فهذا ليس بـ"حسن أمجا". قطع لقمة خبز من الرغيف، وأخذ ملعقة من شوربته.

- أتساءل عما حدث لتزورانني فجأة.

فقلت:

- إنكَ محق.

- أنا محق، ماذا؟

- لم أزرك منذ زمن، أليس كذلك؟

كانت جنازة أمي هي آخر مرة أراه فيها، ويبدو الآن أنحف وأقل صحة، استعنت بذكرياتي حتى أتذكر أنه هو نفس الرجل الذي كان يطاردنا على الأسطح.

حدق فيَّ وفمه ممتلىء باللقمة التي كان يمضغها، وحواجبه كثيفة ومجدولة، وكانت ورقة النتيجة التي خلفه تعلن عن تاريخ يوم فات منذ عدة أشهر، كان تحديقه يحمل شيئًا طالما أعجبني.. شيء ما ينفذ مباشرة إلى القلب.

- سمعت أنك طلقت، أهذا صحيح؟

- نعم.

- وكيف حال الصغيرة؟

- إنها بخير، تكبر يومًا بعد يوم.

- ما زلت تعمل بالموسيقى؟

خطفت نظرة على "ألتان"، كان يقلب تمثال بورسلين صغيرًا في يده.

Twitter: @ketab_n

- أعمل الآن مع "ألتان".

- أتعني أنكما تعملان معًا كالمطرقة والسندان مرةً أخرى.

سأله "ألتان":

- ألدينا شيء نأكله، كنا نفكر في أن نشرب قليلًا معك.

- لا أشرب مع موسيقيين.

- لسنا بموسيقيين، إننا رجال أعمال.

فسأله بنغمة متعالية:

- أهذا حقيقي؟ ما نوع الأعمال التي تعملون بها؟

- نُسَوِّق الأغاني والمؤلفات الموسيقية للشركات العالمية.

- دعوني أراكما تفعلان هذا.

أجابه "ألتان" وهو ينظر إليَّ من طرف عينه:

- أجل، سنشهر أغنية محمد، مش كده يا "ميمو"؟

لم يبدُ "حسن أمجا" مهتمًا، حيث نهض بعد أن شرب آخر ملعقة، وترك الغرفة حاملًا صينيته.

سألت "ألتان":

- ما الذي تحدثت عنه هذا؟

- ألم أقل الحقيقة؟

- نعم، ولكن ليس لدينا أي شيء ملموس بعد.

- سيكون لدينا، لا تقلق.

Twitter: @ketab_n

ظهر ظل العجوز فجأة عند باب الشقة، وأخذ الظل سترة من الشماعة وارتداها.

قال" ألتان":

- هيا سأريك الطيور، بإمكاننا الاعتناء بالباقي فيما بعد.

46

لم يؤدِ الباب فقط إلى الشرفة، ولكنه أفضى إلى الماضي أيضًا، حيث رأينا أضواء حي "بوابة الرمال" من بين العمارات المحيطة بنا، وبالكاد رأينا الزوارق الراسية على الشاطئ على ضوء كشافات السيارات السائرة بمحاذاة البحر، فهذا هو المكان الذي قضينا فيه أيام طفولتنا ثم ودعناه. المكان الذي خبأنا فيه المجلات الإباحية، وهو المكان نفسه الذي ضَبَطَنا فيه "حسن أمجا" ونحن ندخن، وقررنا فيه ماذا سنرتدي في الحفل الذي أحييناه في "سنترال بارك".

كانت الطيور هي الشيء الوحيد الذي ظل يربطنا بتلك الأيام، واستقبلتنا حمامات "حسن أمجا" مرحبة بمد أعناقها على الرغم من تناقص عددها.

أحدث المطر بركًا من المياه في الشرفة، ورحلت السحب مخلفة وراءها سماء ليلية بنجوم متلألئة. جلسنا على الأريكة الخشبية بجانب قفص الدجاج مرتدين معاطفنا، وأسعدني الشعور بالبرد.

بعينين مغشيتين بفعل "الراكي"، بحث "حسن أمجا" عن الحمامات، وبعد ذلك وضع زجاجته على الترابيزة، ثم قال:

- الله يعلم أنني غضبت من "نيهو" يومًا ما لأنه أغراكما، فهذا الصبي كانت له سمات الحكمة، ما الذي أقوله لكما، لقد أزعجني.

Twitter: @ketab_n

فقال "ألتان":

- نعلم هذا.

- ولكنه علمكما حرفة، أليس كذلك؟

أجبته:

- نعم.

- حسنًا، هل ندمتما على ذلك؟

- لا، لم نندم.

- حسنًا، إن سماعكما للعني وشتيمتي له لشيء جدير بالاهتمام إذن.

فأومأت أنا و"ألتان" بالموافقة.

تنهد وقال:

- وبما أن اللعنة على أخيه الدميم، وبما أنه ليس له أي أحد، فواجبكما أن تعتنيا به.

حاول "ألتان" أن يفتح فمه وكأنه جاءته فكرة ما، ثم أغلق فمه مرةً أخرى من دون أن يقوى على قول أي شيء، بينما حدق "حسن أمجا" في الجبن الأبيض، وفي هذه اللحظة لمست ظهري رياح آتية من حي "بوابة الرمال".

ودون أن يرفع رأسه قال الرجل العجوز:

- في الحقيقة، يحتاج العالم إلى رجال مثل "نيهو"، رجال ذوي خيال، رجال ذوي أفكار تجري تسبقهم إلى النجاح، رجال لا يستمعون إلى النصائح.. لأن الحياة لا تُعاش إلا بوجود مثل هؤلاء الرجال، وإلا ما الذي سيميزنا عن تلك الحمامات هنا.

Twitter: @ketab_n

47

في اليوم التالي، اتصلنا بمعارف "نهاد آبي" وسألناهم إن كان لديهم شيء ما يودون إخباره به، وكنت أتبادل الاتصال أنا و"ألتان"، وقد تلقينا تنهيدات حزينة وكلمات تعاطف صريحة.

مثل تلك الإجابات تحطم الأعصاب، حتى "ألتان" صاحب الطلعة المبتسمة، عقب إحدى المكالمات، وبعد أن أغلق التليفون دمعت عيناه؛ حيث كان يكلم أحد أعضاء جمعية موسيقية أو ما شابه، وبدأ في القهقهة قبل أن يُنهي كلامه، ثم قال:

- الأبله يسألني إن كنا قد أخبرنا الناس الذين يعرفون "نهاد".

استمرت تلك المكالمات غير المفيدة حتى الظهر، وشعرنا بالجوع. كانت الساعة حوالي الثانية ظهرًا كما تشير الساعة المعلقة فوق ترابيزة الصيانة وحينها بدأت السحب تغطي السماء بالكامل كتأكيد على هطول أمطار. حتى وإن عجزت عن الاعتراف بذلك لنفسي، فإن ما عايشته خلال اليومين الماضيين جعلني في حال جيد؛ حيث منعني رحيل "نهاد آبي" الوشيك من التفكير بشأن "عائشة".

- ألديك أي شيء نأكله هنا؟

- نعم، لديَّ بعض الأوتار وشوكة رنانة، أتريد بعضًا منها؟

Twitter: @ketab_n

بعد ساعة ونصف كنا نجلس في مطعم نأكل خبزًا محمصًا بالجبن ونشاهد المطر، وفي محطة الأتوبيس المقابلة كان الناس ينتظرون قدوم الأتوبيس ويحاولون حماية أنفسهم من المطر، وكان الصبي الواقف خلف نَصبة المطعم يستمع إلى أخبار حلبة سباق، ملصقًا أذنيه بالراديو. وكان "ألتان" يحاول النظر إلى ساعته من دون أن ألاحظه، فسألته:

- ألديك ميعاد؟

- خذ وقتك، أحتاج فقط أن أكون في "كادي كوي" بحلول المساء.

- افعل ما تحب، فلم يعد هناك الكثير لنتصل بهم.

- وماذا ستفعل بقية اليوم؟

- سأذهب إلى المستشفى.

- هل أنت جاد؟

- أتريد أن تأتي أيضًا؟

- لا أعتقد هذا.

أنزلني "ألتان" عند المستشفى، وتابعت سيارته بعيني حتى وصل إلى الإشارة بآخر الشارع.

وعند دخولي المستشفى شعرت بشيء مختلف عند بابه كإحساس الفرد العالم بأن هذه هي آخر مرة يأتي فيها إلى ذلك المكان، ولسبب ما بدت ممرضة الاستقبال أجمل من المعتاد، وكانت الطرقات أفضل حالًا، وبدت رائحة المطهر المنتشرة أحلى وأعذب، وكان أكثر الأمور غرابة هي أنني كنت هادئًا كما لم أكن من قبل.

خرجت من المصعد واتجهت ناحية الغرفة الموجودة بوسط الرواق. تعرفت عليَّ بخجل الممرضات اللاتي أعرفهن جيدًا الآن. توقفت للحظة أمام الباب، وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر إلى لون الحوائط اللبني، ثم دخلت، كانت هناك

Twitter: @ketab_n

ابتسامة على شفاه "نهاد آبي"، وانعكست على وجهه خيال قطرات المطر السائلة على زجاج الشرفة، بدا وكأن الرجل يبتسم ويضحك في الوقت نفسه.

Twitter: @ketab_n

48

في المَساء سحبت الفوتيه وجلست أمام شباك المطبخ أنتظر "عائشة"، رأيت الدنيا تظلم ببطء، ثم رأيت بقعة زرقاء على إصبعي، ربما كانت الأوراق التي وقعتها في المستشفى هي السبب، وانزعجت من النظر إليها؛ حيث بدت وكأنها علامة للمرض، أو كأنها دماء "نهاد آبي"... دم لونه أزرق، سيناسبه هذا أكثر.

وبحلول السابعة، توقف تاكسي بالشارع، وخرجت منه "عائشة" حاملة حقائب بيدها، بدت جميلة في ضوء مصابيح الشارع. كانت قد قصت شعرها مجددًا، وكانت ترتدي المعطف نفسه الذي كانت ترتديه في "برج العذراء"، وعندما فتحت الباب كانت على السلالم بالفعل، فعرضت عليها:

- دعيني أساعِدك.

- آه، أيها الرجل الشهم...

وبالداخل، عانقتني وقبلتني على خدي بعد أن تخلصت من الحقائب، ثم خلعت حذاءها وألقت به في وسط الحجرة، وبخفة الفراشة ضغطت على زر مُشَغِّل التسجيل، فملأت موسيقى أغاني "سيزين أكسو" البيت.

- كنت هناك منتظرًا أي إشارة عنكِ.

Twitter: @ketab_n

- ولماذا يجب أن تكون أنت الوحيد الذي من حقه التسكع؟

- بالطبع لا!

- تمشيت قليلاً مع "صفية" بعد أن أغلقنا المطعم، اشترينا بعض الملابس، ثم تناولنا القهوة في كافتيريا ما، أفتقد تلك الفتاة حتى وإن لم أرها ليومين فقط.

- أي أخبار عن ابنها؟

أجابتني وهي تجلس على الفوتيه:

- نعم، إنه يتحسن بشكل أفضل مما كان متوقعًا، إن الطب رائع!.

أجبتها مبتسمًا:

- جيد، لا بد أن روحها المعنوية مرتفعة.

فالأخبار الجيدة جيدة حتى ولو كانت عن "صفية"، وأضافت "عائشة":

- رأيت ابتسامتها المسكينة لأول مرة منذ عدة أشهر.

رفعت صوت التسجيل قليلاً وذهبت إلى المطبخ، وسمعت دولاب المطبخ وهو ينفتح وينغلق مع موسيقى "سيزين".

- على أي حال، تعرف "صفية" محاميًا... سأشرب خمرًا، أتريد أيضًا؟

- بيرة.

- لا تكن هادم اللذات، على الأقل اشرب بعض الويسكي معي.

- حسنًا، ليكن ويسكي.

أتت بجانبي ومعها كأسان بهما مكعبات الثلج، فجلست على الأريكة أشاهد توهجها، ولم أستطع رفع عيني من عليها.

دفعت الكأس أمامي وقالت:

Twitter: @ketab_n

- المحامي زوج صديقة "صفية"، ومن المفترض أنه ماهر في حالات الطلاق، وفي القضايا المماثلة لحالتي، فوجود ثلاثة أطراف لا يحتاج إلى محامٍ ماهر، من العار أن أقول هذا، ولكن ما فعله السيد "أورهان" يتم تصنيفه رسميًّا كزنا.

- أمتأكدة أنتِ؟

- بشأن ماذا؟

- أنه يريد طلاقِك فعلًا؟

فتحت عينيها أوسع ونظرت إليَّ:

- "محمد" إن لم تتأكد المرأة من رغبتها في الطلاق في مثل تلك الحالة، فما الذي يجعلها متأكدة برأيك؟

- أتريدين أن أخبرِك بشيء؟

- عن ماذا؟

- عن "أورهان" مثلًا.

عَبَسَتْ ونظرت إليَّ، وبدا على وجهها نظرة تشير إلى إنها تريد معرفة ما يجري، فسألتني:

- أتعرف شيئًا لا أعرفه؟

- نعم.

- ولماذا لم تخبرني؟

- لم أعرف كيف أخبرك.

- إن كنت تعلم شيئًا ما عن "أورهان" فإن حقي أن أعلمه أيضًا.. "محمد"، لماذا تخبيء عني الأشياء؟

Twitter: @ketab_n

أمسكت يديها وقلت:

- عزيزتي "عائشة"، لماذا لا تستمعي إليَّ أولًا؟

اختفت لمعة عينيها، وبدأتْ في عض شفتيها ناظرة إلى عينيَّ، ثم ذهبت وأخرجت سيجارة من حقيبتها وأشعلتها، وجلست أمامي.

- تفضل، كُلي آذان صاغية.

أعطيت نغمة صوتي أكثر نغمة حيادية استطعتها وقلت:

- "أورهان" مع تلك المرأة لسبب آخر، المرأة ثرية، ورأيتِ هذا بعينِك، عنب، ومنازل، ويعتقد أن بإمكانه الحصول على شيء من ذلك إذا ما أسعدها لفترة.

- انتظر لحظة، كيف عرفت هذا كله؟

- أجريت تحرياتي، المرأة أم أحد طلبة "أورهان" في الدروس الخصوصية، وحاولت التودد إلى "أورهان" كذا مرة، وصدها "أورهان" في كل المرات، ولكن المرأة استمرت في محاولاتها، ونحن نعرف "أورهان"، أليس كذلك؟

لم تجبني "عائشة"، لم أستطع معرفة فيما كانت تفكر بعد أن رأيت ذلك التعبير على وجهها.

فاستجمعت شجاعتي وقلت:

- على الأقل أنتِ تعرفينه، هل في إمكانه أن يساير تلك المرأة إذا ما كان يسعى إلى غير الأموال؟

- وبماذا سيفعل بالأموال؟

- بإمكانه مدك بالمساعدة المالية.

- أتعني أنه سيأخذ أموالها، ويعود إلى زوجته العزيزة؟

فأجبتها منفعلًا:

Twitter: @ketab_n

- نعم، حسنًا، أقصد، أعتقد هذا، أخمن هذا...

ظلت "عائشة" صامتة للحظة، وحدقت عيناها في السقف كما لو كانت تريد حساب وزن المبنى كله، ثم بدأت في الضحك، وقالت:

- "ميمو"... آه يا "ميمو"، يا لَك من شخص لطيف.

- ولماذا؟

- أقصد أنه ليس هناك شيء تفعله لصديقَك.

لم أستطع أجابتها. نهضت ضاحكةً، وأخذت قطعة من الورق مطوية إلى أربعة من الزهرية الموضوعة على الترابيزة، وعندما وضعتها أمامي، رأيتُ خط "أورهان"؛ حيث كانت الورقة هي خطابه بتاريخ يومين ماضيين.

ابتسمتْ وقالت:

- إنك كاذب مروع، ولكنك صديق جيد.

Twitter: @ketab_n

49

لنكن أمناء، لم أرد أن أذكر ما ورد بخطاب "أورهان" هنا كلمة بكلمة، وعلى أي حال، فقد قرأته بسرعة شديدة ولهذا لم أتذكره بالكامل، ولكنني أتذكر أنني كنت أفكر في الآتي، لابد أن تكون حبيبة "أورهان" الجديدة امرأة قوية، لأنها كانت تتصور تخليها عن زوجها من أجل "أورهان"، ولا بد أن "أورهان" نفسه كان يعلم شيئًا ما يمكنه من اتخاذ قرار ترك "عائشة" وكل حياته الماضية في الوقت نفسه.

فربما تطورت مشاعره تجاهها إلى حب، ربما انتهى حبه لـ"عائشة"، ربما كان السبب هو جاذبية امتلاك الأرض والعنب وتحقيق الراحة المالية، لم أستطع التحديد.

ومع ذلك، فكل هذه الفروض المنطقية لم تستطع تهدئة غضبي من "أورهان"؛ حيث لم يخدعني أنا و"عائشة" فقط، لقد خدع "كاموران تايز" أيضًا، و(علي)[3] بحانة "الجمهورية"، و"وسيلة" و"يانس" في "بوزجادة"، باختصار، لقد خدع كل شخص وكل شيء في عالمنا الصغير، ويستطيع فعل كل هذا بضمير مرتاح، لا بد أنه خدع نفسه أيضًا في لحظة ما.

- وصل الخطاب أمس، أرسله إلى المطعم عندما كنا بالجزيرة، لم تكن هنا خلال اليومين الماضيين.

Twitter: @ketab_n

- وماذا ستفعلين؟

- مهما أراد أن يفعل، ليست لديَّ نية للبكاء عليه.

أضاءت أباجورة الغرفة وجهها، وكان عليه تعبير أرعبني.

أتذكر هذا التعبير الذي ظهر على وجه "نازلي". عندما يغلقن الباب للأبد ولا يفتحنه ثانيةً أبدًا، عندما يقررن ألا يشاركن ما بداخلهن مع رجل ما، عندما يجلسن في غرفة ويُردن بالفعل أن يبتعدن لمسافة أميال، هذا هو التعبير الذي ظهر على وجه المرأة.

وبعد عشاء صامت، جلس كل منا على طرف الأريكة، أردت أن أخبرها بما جرى لـ"نهاد آبي"، وكلما فتحت فمي، صاحت الذكريات ببعضها، ولاحقت الجمل بعضها، وبدا لي أنني أسدي له الخدمة الأخيرة إذا ما قمت طوال الليلة بالتحدث مع "عائشة" عن "نيهو". استمعت "عائشة" واضعة خدها على يدها ساندة رأسها، وزار الغرفة ضيوف من حي "لانجا" القديم؛ حيث كانت طيور "حسن أمجا" موجودة، وكانت زوجة المراقب مع زوجها في قفص الاتهام أيضًا، والأغاني التي اعتدنا أن نعزفها في شبابنا، وذراع "نهاد آبي" المكسورة أثناء هروبه من قطاع الطرق ذات ليلة، وشجاراتنا، ومصالحاتنا.

كان المطر يختبر زجاج النافذة بقطرات صغيرة قليلة، وبدا سُكر لطيف على وجه "عائشة"، كانت تنظر إليَّ من عينيها نصف المغلقتين، لاحظت مدى قلة المعلومات التي أخبرتها بها عن "نهاد آبي" حتى اليوم، وكلما لاحظت ذلك كلما أردت التحدث عنه، أردت أن أتصالح مع الأشياء التي أغفلناها، ولذلك يجب ألا أغفل ذكر أي شيء حول أشجع عازف جيتار في "لانجا".

أغلقت "عائشة" عينيها، ورأيت نصف ابتسامة مخمورة على شفتيها، وظلت تجيبني لفترة معينة بإجابات مقتضبة أو بالإيماء، ثم توقفت عن ذلك

Twitter: @ketab_n

أيضًا؛ حيث تجمدت ابتسامتها، وارتفع صدرها وهبط بفعل التنفس العميق، سقطت رأسها للأمام، واستيقظت.

تحسستْ رأسها للتأكد من أنها ما زالت بمكانها وقالت:

- إي، إنني آسفة.

- إنكِ مجهدة.

- من الأفضل أن أذهب.

ولكنني لم أصل بعد إلى نقطة مرض "نهاد آبي".

عند دخولي لغرفتي، شعرت بألم في معدتي، وكان هذا بفعل الويسكي الذي شربته، فتوجهت إلى الحمَّام وتقيأتُ مرتين. دائمًا ما يصيبني ثقل غريب يستقر في رأسي كلما شربت، أخذت جيتار "نهاد آبي" وجلست على الفوتيه، وأثناء نظري من الشباك إلى الأضواء التي تنير السماء عند نقطة اختفاء اللون الأخضر في الظلام، غنيت لنفسي إحدى الأغاني التي أحب "نهاد آبي" أن يعزفها:

"ربما تبحث يومًا ما

عمَّا يُسَرِّي عن حياتك

من الأيام الخوالي

انظر إلى صورتي حينها..."

Twitter: @ketab_n

50

بحلول الظهيرة، ضربت جرس الباب لقصر "بكلربكي" على شاطئ البحر، وكانت السيدة "ريلا" بانتظاري في غرفة المعيشة، ولاحظت في الحال نقصان شيء ما، من خلال الأدب الزائد الذي أظهرته السيدة؛ حيث لم أرَ "ليندا" بالمكان.

قالت بإحراج:

- "ليندا" غاضبة منك جدًا الآن، حيث تعتقد أنك تجاهلتها كثيرًا.

- إنها محقة، انقلبت حياتي رأسًا على عقب خلال الأيام الماضية.

- أتفهم ذلك.

وكان هناك شيء ما يخنقك في طريقتها المؤدبة، فسألتها:

- أين هي الآن؟

فأجابتني بابتسامة:

- في غرفتها، تقول إنها لا تريد أن تراك بعد الآن.

- وماذا إن حاولت؟

- أتمنى لكَ حظًا سعيدًا.

Twitter: @ketab_n

وكان باب غرفة "ليندا" هو أول باب يصادفك بعد انتهاء السلالم، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيه مغلقًا بإحكام، حيث كانت تتم مواربته حتى أثناء قيامنا بتمرينات العزف.

سمعت موسيقى خافتة آتية من الغرفة، لا بد أنها كانت موسيقى لـ"جاك بريل" أو "جورج موستاكي" أو ما شابه، طرقت على الباب برفق، فلم أتلقَّ أي إجابة، وعلا صوت الموسيقى، فطرقت على الباب بشدة أكبر، وقلت:

- "ليندا"، ألن نتدرب اليوم؟

علا صوت الموسيقى أكثر، وبدت لي أنها لـ"موستاكي"، ولكنها كانت أغنية غير مألوفة لي، سمعت صوتًا ما على السلالم، فاستدرت لأرى السيدة "ريلا" أسفل السلم، ابتسمنا لبعضنا البعض بخجل، وطرقت الباب مرة أخرى، ولكن هباءً.

وعندما اقتربت الأغنية على الانتهاء وبدأ صوت الموسيقى يخفت، خفتت آمالي كذلك، وفي هذه اللحظة، خرج شيء ما من تحت عقب الباب، انحنيت والتقطت الورقة المسطرة، وكانت مكتوبة بخط بسيط يشبه خط تلميذة بالصف الابتدائي.

" محمد بيك".

لك مدة حتى الآن لم تحضر الدروس بانتظام، وأتفهم أنك تجبر نفسك على الحضور، وهذا يحزنني بشدة، وبالطبع ليس لزامًا عليك أن تقضي وقتك مع فتاة عمياء مراهقة، ومن الآن فصاعدًا، لن نتمرن سويًّا، أتمنى لك السعادة، شكرًا لكَ.

ليندا..

Twitter: @ketab_n

عرضت الورقة على السيدة "ريلا" من على بُعد، نفضت يداها في يأس وقالت:

- لا بد أنها طلبت من "جوليزار أبلة" أن تكتبه لها، هذا ما تفعله عندما تغضب منّا أيضًا.

- ومَنْ هي "جوليزار أبلة"؟

- خادمتنا، لقد رأيتها بالأسفل.

- أعتقد أنه من الأفضل أن أنصرف.

- ماذا كتبت لكَ؟

- ليس مهمًا، أقصد أنه مهم، ولكن لا عليكِ.

أصرّت السيدة "ريلا" على دفع ثمن الحصة، وأصررت أنا على الرفض، ولكنها فازت في النهاية؛ حيث لم أستطع لعب دور البطولة هكذا منذ حدوث الأزمة المالية.

كانت الشمس بالسماء ومعها سحابتان بليدتان.

رحلت من "بكلربكي" إلى "سالاجاك" أفكر في خطاب "ليندا"، اعتقدت فعلاً أنني أشفق عليها، اعتقدت أنني أعطيها الدروس من باب الشفقة، لم يكن لديها أي فكرة عن الشيء المدعو بالمال.

طلبتُ شايًا في "سالاجاك"، حيث كان هناك الصبي ملمع الأحذية، وأتى إليَّ عندما رآني مُكشرًا وسألني:

- أين كنت يا عمي؟

- يجب أن يلاحقكَ عمَك! أتذكر بماذا تدين لي؟

نظر إليَّ ثم إلى الجيتار وقال:

Twitter: @ketab_n

- بالطبع أتذكر، أليس كذلك؟ هيا، أعطني قدمَك.

- أتريد أن تعزف مرةً أخرى؟

أجابني بوجه ساخر:

- لا، لا أريد، أقلعت عن تلك الأشياء.

Twitter: @ketab_n

51

كان من الطبيعي أن تدفع ظهيرة يوم السبت الفرد إلى الغرق في التفكير العميق حول معنى الحياة، وكنا نقف حول ساحة مسجد "شيشلي"، كان "ألتان" يركز تحديقه على بقعة وحل على الأرض ويدخن سيجارة، وأصبح الطقس سيئًا جدًا الآن؛ حيث تمطر السماء ثلجًا، وليس مطرًا عاديًّا. نظرت إلى النعش وإلى بوابتي الساحة، لم يأتِ أناس كثير.

كان "نهاد آبي" راقدًا في النعش، لقد جاءه الموت في النهاية.

- لم أعد أحتمل أكثر من هذا، لا أستطيع التحكم بأعصابي، أريد الذهاب.

فأجبته:

- ليس بإمكانك الذهاب إلى أي مكان، سنبقى هنا حتى النهاية.

- على الأقل لا تدعني أذهب إلى القبر.

- يبحث الآخرون عن أعذار للرحيل مبكرًا أيضًا، إذا ما اختفى أحدنا، لن يبقوا لخمس دقائق.

- وهل سنصلي أيضًا؟

- أجل.

Twitter: @ketab_n

وفي الواقع لم أود إجباره كثيرًا، كان مرتبكًا جدًا بعد خروجه من المستشفى، "ألتان" مفجوع حقًّا، وعندما يحزن بشدة، لا يستطيع حتى البكاء بشكل لائق، حيث تتعطل قنواته الدمعية عن العمل وتتجمد عيناه، وبسبب ذلك تعرض للقيل والقال بعد جنازة أمه.

وباقتراب موعد أذان الظهر، أصبح عددنا صغيرًا، وقفت "نازلي" بجانبي، واحمرَّ أنفها من البرد. وشاهدت "جولومساشر" زوجة المراقب المشهدَ بذهولٍ محميةً بحجابها الأخضر البترولي، ووقف القليل من أصدقاء "نهاد آبي" من مقهى "فلفلة" يتحدثون مع "ألتان" وأبيه، ولم تكن هناك أكاليل، لأن أحدًا لم يكتب تأبينًا له في الصحف كالمشهورين الذين يموتون، على الرغم من أنه ظل يعزف لفترة كبيرة.

وفي هذه اللحظة، رأيت "عائشة" في الطرف الآخر من الساحة، لم تخبرني بمجيئها، وكانت تقف منتصبة تحت مظلتها بالطريقة نفسها التي تقف بها طالبات المدرسة الثانوية أثناء تحية العلم، وكانت تلف وشاحًا أزرقَ داكنًا على رأسها وترتدي معطفًا بنفس اللون، ثم لاحظت أنني أُلوِّح إليها، فأدارت مظلتها في اتجاهي.

وعندما بدأت في الاقتراب منا بخطوات واسعة، كانت تنظر إلى "نازلي" وليس إليَّ. توقفت "عائشة" تمامًا بجانبي، وابتسمت إلى "نازلي" التي تولينا ظهرها، ثم وضعت يدها على كتف "نازلي"، وقالت:

- مرحبًا!

وكانت "نازلي" في تلك اللحظة تنظر إلى الإمام الخارج من صلاة الظهر بالمسجد، ولم تجب في البداية، ثم قالت بصوت خافت:

- "عائشة"... كيف حالِك؟

أخذ الإمام مكانه لبدء الشعائر الجنائزية، كان رجلاً ذا وجه ناعس ويعادلني في العمر. ابتعد "ألتان" بنفسه عن الآخرين واقترب من النعش، لاحظت أنه لم تكن لديَّ أي فكرة عمَّا يجب أن أفعله، حيث بدأ يتسلل الألم

Twitter: @ketab_n

الذي بدأ في أحلك نقطة داخلي إلى بقية جسدي، شعرت بيد تلمس ذراعي؛ حيث كانت تنظر "نازلي" إليَّ بابتسامة تشبه ابتسامة أمي، وقالت:

- اذهب، قف مع "ألتان" هناك، سأنتظرك هنا مع "عائشة".

وأثناء صلاة الجنازة، جالت الأفكار وتداعيات المعاني بعقلي، وأثناء استمرار الشعائر، لا تستطيع حقًا أن تتفهم جدية الموت، فالموت يبدو مترددًا، وربما كان هذا سبب الصعوبة التي واجهتها أثناء تركيزي على ما الذي يجب أن أفعله، نظرت قليلًا إلى الحمام الواقف على سور الساحة، كان منخرطًا في نشاط مختلف تمامًا غير مدرك لسجودنا، لم يخاف الموت، ولم يدركه أصلًا، ولهذا تنتمي أجنحته للسماء واللانهائية.

Twitter: @ketab_n

52

كنا خمسة أشخاص بمنزل "نهاد آبي" في "كورتولوش" حتى ساعة متأخرة من المساء؛ كنت هناك، و"ألتان"، و"حسن أمجا" جالس على فوتيه المكتب في آخر الشقة يدخن حتى اغمقَّ لون البقع الصفراء بشاربه، وجلست "نازلي" و"عائشة" على الأريكة بجانب الشباك تنظران إلى الأسطوانة طراز الـ 45 لفة في الدقيقة، التي أخرجتاها من الرف. قالت "نازلي":

- شَغِّل هذه، لقد كان "نهاد" يحبها.

وأعطتني اسطوانة "رقص أندلسي" لـ"نسرين سباهي". نظرت بعفوية إلى "حسن أمجا" والأسطوانة بيدي، فسألني باقتضاب:

- لماذا تنظر إليَّ؟

- هل ممكن أن أشغلها؟

- أتسألني؟

- ألا يجب أن نفعل؟

فأشار بسيجارته:

- افعل كما أخبرتك المرأة، فإن لم تشغلها هنا، أين ستشغلها؟

Twitter: @ketab_n

عندما لمست الإبرة سطح الأسطوانة، بدأ صوت "نسرين سباهي" الجميل في الانتشار في أرجاء المنزل، وسرح كل منا في عالمه الحالم، حيث حلمت بجزيرة صغيرة وهادئة، تشبه "بوزجادة" قليلاً، بها بيت وسط كرمة عنب على شاطئ البحر، و"عائشة" و"محمد" بالمنزل، وكان جيتار "نهاد آبي" بجوار المدفأة، ولا يتم استخدامه إلا بزيارة "نهاد" لنا؛ حيث لا يزال "نهاد" حيًّا، ثم هبط الليل، ورفعت حشرات لا أعلم أسماءها من أصواتها، واحمرَّت وجناتنا بالحب بعد أن تلامسنا، واصطحبنا صوت "نسرين سباهي" إلى الفراش، حيث يبدأ عالم مختلف تمامًا، به ساعات لا نهائية تظهر فيها "عائشة" ملفوفة بملاءات جميلة.

غضب "حسن أمجا" من جديد وقال:

- شباب.. بدأت بالنعاس، بعد إذنكم أريد الذهاب الآن.

فأجاب "ألتان" أباه:

- سأوصلك أنا.

ثم نظر إليَّ من طرف عينيه وقال:

- اتصل بي إن حدث أي شيء يا "محمد"، اتفقنا؟

- وماذا يمكن أن يحدث؟

- لا أعلم.

وأثناء ارتدائهما المعطفين، رأيت "نازلي" تنهض أيضًا، وسألتهما:

- هل من الممكن أن توصلاني، إن لم يكن منزلي بعيدًا جدًا عن طريقكما؟

في تلك اللحظة تقابلت نظراتي مع نظرات "عائشة"، ولكننا تجنبنا نظرات بعضنا البعض.

Twitter: @ketab_n

اصطحبت ثلاثتهم إلى سيارة "ألتان"، وأصر "حسن أمجا" أن يجلس في المقعد الخلفي، وكان "ألتان" يلعن سيارته المعطلة، وأخبرتني "نازلي" بشيء ما ولكنه ضاع وسط ضوضاء المحرك؛ حيث دارت السيارة الجولف القديمة أخيرًا، واختفت أسفل المنحدر.

وعندما عدت إلى المنزل، وجدت الموسيقى قد تغيَّرت؛ حيث سمعت "هذا حال الدنيا" لفريق "موجولار" المليئة بالمشاكل، ورأيت "عائشة" بجوار قفص "بيبر" تريد أن يعضها الطائر في إصبعها، فسألتني:

- هل يضايقك إن غيَّرت الموسيقى؟

- كما تودين.

- حتى وإن لم نشغل أي شيء؟

- حسنًا، أحيانًا ما يكون الصمت موسيقى أيضًا.

رفعت إبرة التسجيل، ووقفنا بجانب بعض لفترة ما من دون أن نتكلم ناظرين إلى طائر "نهاد"، وكان مثل أقاربه الموجودين بالمساجد. كان يقفز بهياج زائف داخل القفص.

- هل تعلم "نازلي" بانفصالي عن "أورهان"؟

- علمت اليوم.

- وماذا قالت؟

- قالت إن "أورهان" الذي تعرفه سيعود آجلًا أم عاجلًا، وتعتقد أن مَسًا كهربائيًّا قد حدث في مكان ما داخل عقله.

- دائمًا ما يكون لـ"نازلي" تفسير لكل شيء، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- ولكنها تبدو مختلفة، ماذا أصابها؟

- عمل "جميل"... الرجل لا يستطيع الاستمرار به على ما أظن، كيف عاملتك؟

- كما رأيت، بطريقة عادية جدًا.

- يعني هذا أنكما تصالحتما.

- لم أتشاجر معها قط.

انقض "بيبر" وأمسك بقضبان القفص القريبة منا بحيث رأينا بطنه؛ حيث تتقابل خطوط الألوان المنسابة على جسده الضئيل وتندمج مع بعضها، وسمح لـ"عائشة" أن تُربت على بطنه، فقلت لها:

- أتعلمين، لم أفهم أبدًا لماذا تشاجرت معكما.

- ليس معنا، بل معي.

- وماذا تقصدين؟

- كان يكلمها "أورهان" في التليفون من وقت لآخر، وسمعتهما مرتين، اعتقدت أنه لم يخبرني خشية أن يُغضبني.

- وما الذي يغضبها منكِ؟

- اعتقدت إنني شديدة التقرب إليك.

ازداد هياج "بيبر" وطار في انقضاضة كأنه لاعب كاراتيه من جانب القفص إلى الجانب الآخر.

- أعتقد أنه من الأفضل أن آخذه معي.

فأجبتها:

- نعم، لن يستطيع البقاء هنا بعد اليوم.

Twitter: @ketab_n

- ولكنه من الأفضل لكما أن تصطلحا، أعتقد أن هذا أفضل شيء ممكن حدوثه في الجنازات.

أخرجت "عائشة" إصبعها من القفص، ووضعته على ذقنها، وتنفست لتقول شيئًا ما، ولكنها تخلت عن تلك الفكرة، وزفرت، فسألتها:

- ماذا؟

- تعتقد أننا على علاقة.

- مَنْ؟ "نازلي"؟

- لم تقل شيئًا، ولكنني فهمت ذلك من الطريقة التي نظرت بها إلينا، تعتقد أننا حبيبان.

كان يجب أن أُبعد كل الأفكار عن عقلي، لأن أصغر فكرة قد تخطر على بالي كفيلة بأن تمنعني مما أنتوي فعله، وبدل التفكير، أمسكت يديها وسألتها:

- وهل نحن حبيبان فعلاً؟

لم تجبني، ولم أردها أن تجيب أيضًا.

Twitter: @ketab_n

53

قالت "إزجي":

- هذا السمك سيئ.

- لا تأكليه.

- ولكنني أريد أن آكل السمك.

فقمت وغيرت طبقي بطبقها؛ حيث أصبح أمامها الآن السمكة البوري، وأنا أمامي السمك المقلي الصغير، نظرت إلى السمك وبدأت أنا أمسك شوكتي، فقالت لي:

- لماذا تفعل هذا؟

- ما الذي أفعله؟

- لم أطلب منك سمكتك، أليس كذلك؟ أنا لا أحب هذا المكان على الإطلاق.

إنه ليس بيوم خروجة ناجحة، أخذتها إلى مطعم السمك كمفاجأة لأن الطقس سيئ، وكان مكانًا جميلًا ذا شِبَاك صيد معلقة، ولكن لم ترتسم أي ابتسامات على وجه" إزجي"، لم أذكر أنني مررت بيوم عصيب مثل هذا منذ أيام مرحلتي الإعدادية.

Twitter: @ketab_n

عند عودتنا إلى منزلهم ذلك المساء، كان الحزن يكسو وجهينا، وفتح "جميل" الباب لنا مرتديًا قميص فريق "فنار بخشة" أيضًا، حيث كان صوت مباراة كرة القدم مسموعًا من التليفزيون بالداخل.

وبابتسامة طبيعية حيَّانا:

- مرحبًا، تفضل لخمس دقائق، ذهبت "نازلي" لزيارة صديقتها، صنعت بعض الشاي، فلنشرب فنجانًا سويًّا.

بدا على وجهه صدق دعوته، ولهذا لم أود أن أكن وقحًا معه، فنظرت إلى ساعتي وقلت:

- في الواقع، لديَّ ساعة ونصف، يمكنني الدخول فعلاً.

وعندما توقفت بغرفة المعيشة، شممت رائحة أعرفها، رائحة أشعرتني ببهجة داخلية، رائحة تماثل منزلنا القديم، إنها المرأة التي تعطي رائحتها للمنزل.

قامت "إزجي" باستدارة حادة حول ترابيزة السفرة لتصل إلى الكمبيوتر بغرفتها في أقصر وقت ممكن، ولكنها لم تستطع تحقيق ذلك في الحال؛ حيث كان يقف "جميل" في طريقها بين ترابيزة السفرة وبين البوفيه، نظر "جميل" إلى ابنتي ثم إليَّ وابتسم سائلًا:

- كيف كان يوم الأميرة؟

فصاحت "إزجي":

- رهيب!

ثم دبدبت في الأرض وتخطت "جميل" واختفت في الطرقة، وسمعنا صوت باب غرفتها وهو ينغلق.

وأصبحنا نقف في منتصف غرفة المعيشة كالبلهاء، أشار إليَّ باتجاه الأريكة، وجلس معي، ثم سألني:

Twitter: @ketab_n

- أتحب كرة القدم.

- لا أعلم، أعتقد أنني فقدت اهتمامي بها عقب اعتزال "توغاي".

- "توغاي" لم يعتزل أبدًا.

- أهذا حقيقي؟

رأيت لحظة سريعة من الألم على وجهه، التقط الريموت من على ترابيزة القهوة وغيَّر المحطة، فقلت له:

- لو سمحت، لا تفسد بهجتك من أجلي.

- لا تقلق، كانت مباراة لعينة على أي حال.

ثم نهض وذهب إلى المطبخ ليحضر الشاي، وعندما عاد بالصينية بيده، لم يكن يرتدي قميص فريق "فناربخشة"، كان يسير محتارًا وتوقف أمامي مباشرةً، وقال:

- في الحقيقة، لديَّ بعض "الراكي".

نظرتُ إلى الرسم المنقوش على سترته، حيث يغطي الكاروهات الرمادي والأزرق مقدمة ومؤخرة السترة بلطف، جلستُ مسندًا ظهري على وسادة "نازلي" الحمراء، وابتسمت وسألته:

- لن يكون سيئًا إن تناولت كأسًا، أليس كذلك؟

وعندما عادت "نازلي" وجدت رجلين ثملين، لم أكن أحسب أن "جميل" سوف يسكر بهذه السرعة؛ حيث كان يقف أمام جهاز التليفزيون ويحاول تذكر الأغنية التي ألفها عندما كان في المرحلة الثانوية، ويتدلى قميصه من مقدمة بنطلونه.

بينما كنت ممددًا على الأريكة أحاول تجميع المكسرات التي سكبتها من السلطانية، وقشر الفستق الذي انحشر في الفواصل بين الوسائد جعل مهمتي صعبة.

Twitter: @ketab_n

بعدها بقليل جاءت "نازلي"، وعندما رأت حالنا سألتنا بعصبية:

- هل جُننتما؟

أجابها "جميل":

- لماذا؟ إننا نتسكَّع فقط كما ترين.

- أين "إزجي"؟

- في غرفتها.

ضَيَّقت "نازلي" من عينيها ونظرت بصرامة إلى "جميل"، ثم تركتنا وذهبت إلى الطرقة.. ربما لأنها لم تجد كلمات لاذعة بالقدر الكافي في عقلها، بينما بدأ "جميل" في التمتمة بلحن شبابه من دون أن يأبه لها، لم يكن مُدركًا أنه يلعب بالنار.

وأثناء تجميعي للمكسرات في السلطانية، سمعنا صريخ "نازلي"، فجريت أنا و"جميل" نهتز ونتخبط، وعندما وصلنا إلى غرفة "إزجي" كانت "نازلي" تغطي فمها بيدها وتنظر إلى الشباك المفتوح على مصراعيه، وكانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا بالخارج مع حلول الليل، وكان طرف السجادة مُبتلًا بالمياه.

قلت:

- لنهدأ، أين يمكن أن تذهب؟

أجابت "نازلي" وكأنها في حلم:

- الدنيا تمطر.

فقال "جميل" وكأنه فاق فجأة:

- "محمد" على صواب، لا بد أنها هنا في الجوار.

Twitter: @ketab_n

وعندما خرجنا إلى الشارع، لم نعرف إلى أين نذهب، وخطر على بالي أن ننقسم إلى فريقين، ولكنني خشيت أن أقع في فريق "نازلي" نفسه؛ حيث كانت مذعورة وقلقة جدًا وسيصيبك البحث عن "إزجي" معها بالأزمة القلبية، فقلت لهما:

- سأذهب أنا إلى الشارع الرئيسي، واذهبا أنتما إلى الأرض الشاغرة.

وعندما تركتهما، شعرت بخوفي، وضاق الشارع جدًا عند نهايته، وفي هذه اللحظة، كانت مصابيح الشارع مغلقة أيضًا، وخلف هذا كان الظلام الذي لم أستطع أن أرى من خلاله أي شيء.

لم يحسم المطر بعد أمره ولم يحدد إن كان سيتوقف أم يهطل أكثر. انعطفتُ عند الناصية لأجد شارعًا غير مستوٍ أمامي مليئًا بالمنازل الخشبية، وكانت هناك أضواء قليلة مضاءة على الرغم من الوقت المبكر نسبيًا الذي كنا فيه، ويقف مصباح الشارع الوحيد القادر على البقاء على بُعد خمسين مترًا، وخلف المصباح، استطعت أن أرى مساحة ما، اعتقدت أنها قطعة الأرض الشاغرة.

مشيت الأمتار الخمسين تلك، وتخطيت السور المنخفض المحيط بالأرض الشاغرة، وكانت منحشرة بين بيوت خشبية وعمارات سكنية ذات أربعة طوابق، وعلى واجهات المنازل المطلة على الأرض الشاغرة، رأيت رسومات جرافيتي، ورأيت سوقًا للإطارات منتشرًا في الاتجاهين، وعند الناصية خلف شجرة التوت كانت هناك شاحنة "سكودا" خردة وبداخلها رأس صغيرة تتحرك أستعد أن أضحي بكل ما أملك لأجلها.

وضعت قدمي على الإكصدام وقلت:

- كيف حالِك يا حبيبتي؟

فصرخت:

- ابتعد عن طريقي! نحن ذاهبان إلى "أنقرة".

Twitter: @ketab_n

- مَنْ أنتم؟

- أنا و"باجي".

وأشارت برأسها إلى صندوق الشاحنة، حيث كان يرقد بهدوء كلب شارع ضخم ربط أحدهم حقيبة تسوق بلاستيكية حول عنقه.

- هل يحميكِ؟

- لا، إنه زبوني، وأنا السائقة الخاصة به.

- ولماذا ابتعدتي هكذا؟

أجابتني وهي تأخذ منحنى متخيلًا:

- سئمت من كل شيء، أرهقتماني مللاً.

- إنني آسف، لنعد إلى البيت.

- هل يمكن لـ"باجي" أن يأتي معنا؟

- سنسأل أمِك.

عند خروجي من الشاحنة لاحظت أنني ابتللت بالكامل، وأعاقني هذا أن أحملها في حضني ولم تشتكِ هي، حيث ابتلت سترتها حتى أصبحت ثقيلة جدًا.

وعندما اقتربنا من المنزل، رأيت "جميل" و"نازلي" من على بُعد، وعندما رآنا انطلقا بالركض تجاهنا، أنزلت "إزجي" لأبدد مخاوفهم في أن يكون قد حدث شيء لها، بينما بدأ "باجي" في شم براعم الزهور بالحديقة الأمامية للبيت.

عانقت "نازلي" "إزجي" بقوة، ولم تستطع التكلم؛ حيث كانت تحاول أن تقول ثلاث أو أربع كلمات في الوقت نفسه، ثم ذهبتا إلى داخل البيت معًا وتبعها "جميل"، تأملت منظرهم.. بدوا لي كأسرة حقيقية.

Twitter: @ketab_n

54

كنت و"عائشة" نتجنب بعضنا البعض. كنا نحرص على ألا يظهر أحدنا أمام الآخر وهو يعبر بالحديقة الأمامية للمنزل. سمعتها تمر من أمام باب شقتي بخطوات سريعة، ولم أصر على أن أراها، حيث تغير موقفنا منذ الليلة التي قضيناها في منزل "نهاد آبي"، واحتجنا إلى وقت للاستعداد لشيء لم أستطع تحديد هويته.

وضعت قفص "بيبر" بجانب ترابيزة صيانة الجيتارات. وعندما بدأت العمل في الجيتار الكهربائي، بدأت "بيبر" تراقبني من ارتفاع وتزقزق من فترة لأخرى، وهدأني صوته، وكنت أحيانًا ما أتكلم إليه وأخبره بالأشياء التي اعتدت أن أقصها على "نهاد آبي".

وبفضل هذا الطائر الصغير تمتعتُ بمزايا التحدث إلى نفسي، فعندما تنطق مشاكلك بصوت عالٍ لن تخاف من أي شيء بعدها؛ حيث تتطاير مشاكلي مع تطاير صوتي أثناء خروجه من فمي، وتختفي في الفضاء. من المحتمل أن أسجل حديثي إلى نفسي أحيانًا؛ حيث تبدو مشاكلي غريبة وبعيدة عني عند سماعي لها من التسجيل لأن صوتي يبدو غريبًا عندما أسمعه من التسجيل.

Twitter: @ketab_n

عندما وضعت رأسي على الوسادة ليلاً، حدقت إلى السقف وأنصتُ إلى وقع أقدام "عائشة" بالطابق الأعلى، واستطعتُ تخمين ما الذي تفعله من صوت وقع أقدامها في تلك اللحظة، كما خَمَّنتُ ما الذي كانت ترتديه في هذا اليوم، فإذا كان الصوت ثقيلاً، فهذا يعني ارتداءها لحذائها ذو الكعب العالي، أما صوت الحفيف فينتمي إلى حذائها ذي النعل المطاطي، وإذا كان الصوت متقطعًا قليلاً، فلا بد أنه صوت صندلها الذي ترتديه عقب خروجها من الحمَّام.

وفي هذه اللحظة شعرت برغبة في القفز من السرير والذهاب إلى بابها وتقبيل قدميها حتى طلوع النهار، ثم نعست.

ولعب القدر لعبته، حيث تسمَّرنا في الزاوية يومًا ما. كان كل منا يخرج قمامته، حينما رأيت ظلاً مرتديًا لقبعة المطر عندما فتحت الباب حاملاً حقيبة القمامة، وبما أنها رأتني أيضًا كان مستحيلاً أن نهرب من ذلك الموقف من دون بعض التصنُّع، وكان بمقدور أحدنا أن يتجاهل الآخر متظاهرًا بأنه لم يرَه، ولكن لم يستحق أي منّا أن يُعامل بمثل تلك الطريقة بعد، فسألتها:

- كيف الأحوال؟

- مرَّت "كاموران تايز" عليَّ بالأمس.

- وما سبب مرورها؟

- تسأل إن كنا مستعدين للرحيل بحلول الربيع.

- يبدو أن زوج ابنتها مصممٌ.

أجابتني وهي تشير إلى قوالب الطوب المرصوصة أمام المنزل في الشارع:

- يخططون لبناء عمارة جديدة بدلًا من الحالية، وفي الواقع هذا ليس سيئًا جدًا.

- بماذا أخبرتها؟

- قبلت، لقد مللت هذا المكان على أي حال.

Twitter: @ketab_n

- اعتقدت أنكِ أحببتِ هذا المنزل.

- كنت أحبه، ولكنني لم أعد أحبه الآن.

أعطيتها ابتسامتي العريضة، وقلت:

- ألن تقولي إنك مللته بسببي؟

أجابتني مبتسمة:

- تمنيت هذا، تمنيت لو كان بسببَك.

ما قالته أتعبني داخليًا، فلو كنت أمينًا مع نفسي - أو كنت قادرًا على أن أكون أمينًا - لكان من السهل جدًا اكتشاف ما الذي يؤرقني، لأن المشاعر التي تأكل قلبي قديمة قِدَمِ التاريخ؛ حيث تخيلت دائمًا أن "عائشة" تفكر فيَّ أثناء قضائها الليل منفردة، وهذا شيء يحزنها، ولذلك تجاهد نفسها، وتظل طوال الليل تتمشى في غرفتها بالطابق الذي يعلوني.

55

ضغطت "إلفان بيرين" على زر التوقيف بجهاز التسجيل، وطوَّحت شعرها حول رأسها كما يفعلون بالفيديو كليب المذاع على التليفزيون وسألتني مبتسمة:

- ما رأيك؟

- جيدة، ولكن أعتقد أن نغمة الطبل ليست جيدة جدًا..

طلبت مني "إلفان" أن أتناول معها الغداء حتى أستمع إلى ما فعلوه باللحن الذي ألفته، فجلست معها بمفردنا في حجرة معيشتها البالغة مئة وخمسين مترًا مربعًا، والتي لم يكن بها سوى اثنين من كراسي الفوتيه البيضاء، وكان لها ثلاثة أبواب من النوع الذي ينزلق. أما الفيللا نفسها فقد كانت تحيط بها حديقة من جميع الجهات.

كانت ترتدي ثوبًا حريريًّا أزرقَ اللون يصل إلى كاحليها، وكان شعرها أقصر مما رأيته آخر مرة، فحتى في أجواء نوفمبر الشاحبة كان لون شعرها الأحمر لامعًا.

عبست وتمتمت:

- نغمة الطبول.

وكأنها تحدث نفسها:

- إنك محق، تبدو لي قديمة مثل موسيقى الثمانينيات، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- بلى، مثل الثمانينيات فعلاً.

- سأخبر "مراد" أن يُغيِّرها.

تم تعيين أحد الشعراء ذوي الأجر العالي لتأليف أغنية تلائم لحني، وسيوزعها أحد أفضل الموزعين، وبفضلهما أصبحت مختلفة عن الأغاني التي تُذاع على الراديو يوميًّا.

قام خادمان لمدة عشرين دقيقة بتحضير المائدة التي فاقت حدود خيالي؛ حيث كان عليها الكثير من أنواع الطعام، ولذلك ظللت أتوقع طوال الغداء حضور أُناس آخرين من الأبواب البرّاقة حولنا للانضمام إلينا.

سألتني مبتسمة:

- لم يعجبك، أليس كذلك؟

وكانت تضع الزبد على خبزها في اللحظة نفسها، فسألتها:

- لماذا؟ إنها مائدة رائعة.

- أرجوك، لا تهين ذكائي.

- من أين لكِ بهذه الفكرة؟

- من عينيك بالطبع، عندما عزفنا أغنيتك أول مرة في الاستوديو، كانت عيناك تتلألآن مثل عيني طفل، وانظر الآن كيف تبدوان.

- كيف أبدو؟

- نظرتك مختلفة، محترفة جدًا.

- إنني محترف لعشرين عامًا تقريبًا حتى الآن.

توقفت في منتصف قضمها لقطعة الخبز وأعادتها إلى طبقها، ثم أسندت ظهرها إلى المقعد واضعة يديها على المائدة وتنهدت. ظهرت في عينيها نظرة حزن لمراهق محبط.

Twitter: @ketab_n

- ألست حزينًا بسببه؟

- بسبب ماذا؟

- بسبب التعديل الزائد على أغنيتك.

- إنها أغنيتك الآن، فلتفعلي بها ما يحلو لكِ.

- لماذا تفعل هذا؟

- لماذا أفعل ماذا؟

أجابتني وهي منشغلة مرةً أخرى بخبزها:

- لا شيء... انسَ الأمر.

أتت خادمة بالشاي وصبَّته لنا، ذكرتني بـ"جلومساشر" ولكنها أصغر منها.

- بما أنك محترف لعشرين عامًا، فلتقل لي أي شيء على الأقل، هل ستنجح تلك الأغنية؟

- لا تشكي في هذا للحظة واحدة.

انتقلنا الآن إلى حجرة أصغر حجمًا من غرفة المعيشة ولكنها أكثر ثراءً في الأثاث؛ حيث يوجد التسجيل. كانت هناك ثلاثة أجهزة موضوعة داخل الأثاث باللون البني، والحوائط مغطاة بلوحات أُجزم بأصالتها، وأضفى الضوء المنتشر من النافذة الواسعة الجدية على اللوحات، وكان واضحًا أن هذا المنزل لم تقم بفرشه تلك الفتاة ذات العشرين عامًا الواقفة أمامي.

نظرتْ إلى إحدى اللوحات بحيرة وقالت:

- اعتاد أبي أن يرسم، قد يبدو غريبًا الآن التفكير في مؤذن رسّام، ولكنني لا أفكر في هذا الأمر بعيدًا عن المكان الذي نشأت فيه وأنا صغيرة. لم أعلم كيف اهتم بالرسم، ولكن كلما امتلك مجموعة قليلة من ألوان المياه قام برسم لوحة، وكان يعرض لوحاته عليَّ أنا فقط، ولم تكن تلك اللوحات في مثل جودة اللوحات

Twitter: @ketab_n

المعروضة هنا بالطبع، ولكنني أحببتها، واعتاد أن يأخذ ألوانه وفرشاته ونذهب سويًّا إلى ضفة نهر "سيحان"؛ حيث يرتدي قبعة من القش ويعمل لمدة ساعة تحت حرارة الشمس، أراد أن يكون مثل "فان جوخ".

- كان رجلًا ذا عقلية متفتحة.

فقالت وهي تلف شعرها حول إصبعها:

- لا بد أنه كان كذلك، ولكن أحيانًا لا يكفي أن يكون الفرد متفتحًا، فأحيانًا تكون هناك أولوية لما يقوله الأقارب والمعارف .

- أكيد.

- خصوصًا إذا ماكانت الابنة سترحل وتصبح مطربة.

- أفهم هذا.

- كنت أشعر بسعادة غامرة أثناء خروجي مع أبي ومشاهدتي له يرسم، كان شيءٌ ما يتلألأ في عينيه. كان لكَ البريق نفسه في عينيك عندما كنت تعزف في الاستوديو، وربما هذا ما جعلني أعجب بأغنيتك كثيرًا.

- ربما يعجب بها هو أيضًا.

- لا أعرف، لست متأكدة من أنه سوف يستمع إليها بالأساس.

- سيفعل، إنني متأكد، وأعتقد أنه استمع إلى كل أغنياتك السابقة أيضًا.

- أشكُّ؟

- إذا أردتِّ رأيي، لقد استمع إليهم، هذه هي سلوكيات الآباء.

Twitter: @ketab_n

56

زحف الظلام على شارعنا، فأخذ سكان الحي يغلقون ستائرهم، وكأنهم يحاولون حماية الحياة داخل بيوتهم من البرد، وكانت السيارات الفارهة تسرع من أمامي على فترات متفاوتة الطول بين ثانيتين لثلاث في طريقها لمنازل أصحابها، وبين عمودي إنارة ملصق انتخابي يقاتل رياح نوفمبر القاسية، كُتب اسم المرشح باللون الأسود، وكُتبت الدعاية التصويتية باللون الأحمر وكانت تقول:

"صوتوا لي من أجل حي مثالي".

وضعت يديّ في جيب معطفي، وسيجارة مبللة قليلًا في فمي. كنت أتمشى للمنزل وأطرطش البرك الموجودة على الرصيف، كانت هيئتي شبيهة بـ"جيمس دين" في صورته الشهيرة بفيلم "الرقص تحت المطر". حاولت رسم ابتسامة خجولة على شفتيّ كابتسامته في الصورة، فإذا ما التقط أحدهم صورةً لي الآن فلن أبدو سيئًا.

وبعد الظهر مررت بمنزل "فيلي" لإعطائه الحصة الأسبوعية. كان يرتدي قميصًا أبيض لفريق "البيتلز". عندما فتح لي الباب، بدا أكثر جدية من المعتاد. كان يستمع إلى أغانٍ يونانية غير مألوفة لي. أدخلني "فيلي" وهرع إلى المطبخ

Twitter: @ketab_n

ثم عاد ومعه فنجانيّ قهوة، أعطاني الفنجان وجلس على الفوتيه المقابل لي. شعرت بأنه على وشك إخباري بشيء ما، حيث قال:

- أستاذ...

ثم توقف، بدا وكأنه يشعر بأن هذه ليست البداية الملائمة، وأثناء انتظاري له كي يبدأ الكلام، نظرت حولي، فلم أجد جيتاره في مكانه المعتاد، ولم أجد جهاز التأثيرات الصوتية الذي اشتراه مؤخرًا.

أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- أستاذ، كنت أفكر وقررت أن أقلع عن هذا الشيء.

- أتعني عزف الجيتار؟

- لا، أعني الدروس.

هذا جيد، فها هو ثاني تلميذ أفقده في الأسبوع نفسه، وكان وجه "فيلي" جادًا جدًا لدرجة أنني لم أملك إلا أن أضحك، فقلت:

- اعذرني، فأنا متفاجئ، ولكن أخبرني، لماذا؟

- لا تعتقد أنه قرار مفاجئ. فكَّرت في هذا لمدة أسبوع كامل، وأعتقد أنني أواجه مشكلة أثناء تلقي الدروس، في حين أنني لا يكون لديَّ أي مشكلة أثناء عزفي وحدي. أثناء الدرس ينغلق عقلي تمامًا، فلا يدخل شيء، أرجوك لا تُسئ فهمي.

- هل هذا متعلق بأسلوب أخذنا للدرس؟

- حسنًا، سأحزن إن كنت ترى الأمر هكذا، لا، إنه متعلق بفكرة أخذ الدروس في حد ذاتها، كنت أمل من دروس المدرسة أيضًا، المشكلة فيّ أنا، أنت رائع.

- هذا قرارك، وأنت تعلم ما هو أفضل لك.

- أنت لست غاضبًا، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- ولماذا أغضب يا رجل، أنت وحدك مَنْ يملك الحق في تحديد ما هو في مصلحتك.

فقال:

- على أي حال.

وتوقف ثانيةً، ثم تلاشى تعبير الجدية من على وجهه قليلاً، ورأيت على شفتيه ابتسامة وهو يقول:

- على أي حال، سأنجح في هذا الأمر، أليس كذلك؟

- هذا كله يعتمد عليك.

- اسمع يا أستاذ، لم أعد تلميذك منذ الآن، أعني أنك لست بحاجة إلى تشجيعي، وإذا كنت تشفق على الأموال التي صرفتها على المعدات وجهاز الصوت، فليذهبوا جميعًا للجحيم، والآن أريد فعلاً أن تخبرني برأيك صراحة، هل باستطاعتي أن أكون عازف جيتار في هذه السن؟

كان ينظر إليَّ بشغف الأطفال، فحتى وإن لم أحقق معه تقدمًا كبيرًا، لقد عملت معه لسبعة أشهر، وحتى الآن، كنت أجيب عن أسئلته بإجابات ملتوية عن موهبته، والآن، ولأول مرة، يتوقع مني أن أعطيه رأيي الحقيقي.

وتحولت الموسيقى اليونانية قليلاً إلى إيقاع الموسيقى التركية، وكانت موسيقى بدائية، كأن قرويين يعزفون وأعطاهم أحد ميكرفونًا، فسألته:

- ما هذه المقطوعة؟

أجابني مبتسمًا:

- هذا شريط السيد "يانس".

- أتقصد "يانس" القس؟

- نعم، سجلها من إحدى الجزر اليونانية منذ زمن.

Twitter: @ketab_n

- لا بد أنه عرس أو شيء مماثل.

- حسنًا، لقد أخبرني عنها، ولكنني نسيت.

كان "فيلي" يتوقع مني أن أخبره بشيء صادق عنه، وكان قد مر زمن طويل منذ إخباري لشخص ما بشيء صادق، لم أكن متأكدًا من الطريقة التي أصارحه بها، وبمجرد أن فتحت فمي، سمعت "فيلي" يتكلم ثانية:

- لا عليك يا أستاذ، لا تحتاج إلى أن تجيب، فأنت صديقي الآن، وليس أستاذي، وأرجوك، بما أنك تعلم بأن لديَّ بعض الحشيش الذي أدَّخره لأصدقائي، أتريد بعضًا منه؟

فأجبته وأنا أتنفس الصعداء:

- بالطبع، أريد.

نهض "فيلي" مبتسمًا، وربَّت على ظهري، ثم خرج من الحجرة مسرعًا.

57

كنت أتمشى في شارعي كـ"جيمس دين" وهو متأخر عن شيء ما ممسكٌ بحقيبتي وقفص طيور.

سطلتني السيجارة التي لفها "فيلي" لأجلي هذه المرة، وشعرت بالماء يتسرب إلى حذائي من البرك التي كنت أخطو فيها، أصبحت جواربي أثقل، وابتعدت قدمي عني وتركتني لتلتحق بالرطوبة والبرودة. أصبحت الرؤية في عيني مُشوَّشة كما لو كنت أشاهد تليفزيونًا بإيريال غير مضبوط، وشعرت بقلق داخلي لم أستطع تفسيره، وكأنني أحتاج إلى أن أكون في مكان آخر الآن، أحتاج إلى التفكير في أشياء مختلفة، أحتاج إلى أن أركب سيارة تسير بسرعة مئة وخمسين كيلومترًا في الساعة وأرتكب حادثًا مروعًا عند أول تقاطع.

فأنا طفل متمرد لا يمتُّ للخير بصلة، كان المنزل الذي عشت فيه طويلًا يبتعد عني كلما خطوت بخطوة في اتجاهه.

وبمجرد انتهاء السيجارة التي أدخنها، ارتطمت القطرات الباردة بقلبي، حتى وإن لم أكن رأيت نفسي في حياتي في مثل تلك الحالة من قبل، إلا إنني كنت أشعر بألم الحب، وهو ما يعتبر فضيحة غير مقبولة لي.

Twitter: @ketab_n

لم يكن من الضروري أن أمرَّ بكل ما حدث لي في تلك الليلة، فلو كانت تلك الأمور قد حدثت بعد عدة أيام، لربما أعددت نفسي بشكل أفضل لها، ولو حدثت بعد أسابيع قليلة، لكنت استطعت أن أحفر نفقًا للهروب بروحي المسكينة، ولو حدثت بعد سنة، لكنت واجهت القدر بشجاعة وسخرية أيضًا.

أتساءل: كيف سيقضيان ليلتهما الأولى؟ وما دار برأس الرجل عندما رن جرس الباب؟ وكيف كان حال المرأة عندما رأته أمامها؟ هل سامحته في ساعتها؟ أم كان عليه أن يتوسل إليها؟ ثم كيف تعودا على بعضهما البعض؟ هل شربا كأسين وارتاحا؟ هل ضحكا؟ هل ضحكا مني؟

عندما فتحت "عائشة" الباب لي، كان "أورهان" جالسًا على الأريكة، أدار ظهره، ولكنني رأيته، فعلى الرغم من تراقص العفاريت في عقلي، فإنني لم أكن مسطولاً لدرجة ألا أتعرف عليه. كان يجلس على الأريكة نفسها التي جلست عليها من يومين ناظرًا إلى أشجار التوت، كانت على طرف لساني جُمل مكتملة أعددتها أثناء تمشيتي في الشارع مثل "جيمس دين"، وتلخبطت الجمل أولاً عن آخر وفقدت اتجاهاتها، ولكنها ما زالت جُملاً مكتملة، لديها معنى وتريد أن تقول شيئًا ما.

جلس "أورهان" على الأريكة. لم يشعلا الأنوار بعد، وبدا كالشبح في ضوء المساء الآتي من الشباك، وابتسمت "عائشة" عندما رأتني، وبحركات مرتبكة حاولت في البداية أن تستدير ناحية غرفة المعيشة، ثم استدارت ناحيتي، لم تكن متأكدة من تقديم مَنْ لِمَنْ، فقالت:

- عاد "أورهان"، كانت "نازلي" على حق، أعتقد أنه عاد بالخير.

تذكرت أن أسير في اتجاه باب الغرفة، ورآني "أورهان"، فنهض وترك أشجار التوت، وعندما اقتربت منه لاحظت أن وجهه صار أكثر نحافة، لا بد أنه

Twitter: @ketab_n

فقد وزنًا منذ أن رأيته عند مرسى العبَّارات، وكبرت لحيته أيضًا، لقد عاد الجندي الشجاع من ميدان المعركة.

وقفنا وجهًا لوجه، فقال:

- مرحبًا "محمد".

- مرحبًا.

قال وهو يمرر يده بين شاربه ولحيته الناميين:

- أعتقد أنني مررت بانهيار عصبي، من الممكن حدوث هذا لأي شخص، أليس كذلك؟

- بلى، خصوصًا في زمننا هذا.

- ولكنني بخير الآن، وعدت للمنزل، آسف على الموقف الذي وضعتكما فيه.

- هل أنت بخير؟

- إنني متعب قليلاً.

- تحتاج للراحة إذن.

- نعم.

- أتعلم لماذا يجب أن ترتاح؟

- لماذا؟

- لأنه ليس في استطاعتي أن ألكمك وأكسر أنفك وأنت متعب هكذا، سيكون هذا غير منصف، ولكن لا تقلق، سأدفعك ثمن فعلتك، عندما تستعيد عافيتك مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

ظهرت دمعة في عينيه، فأغلقهما وعانقني، بكى صامتًا لعدة دقائق، وعندما بدأ في إخراج صوت بائس، كان وجهه غارقًا في كتفي، تلاقت نظراتي مع "عائشة"، كان هناك حزن بعينيها، شيء حزين بشأن كل منا، ثم قال "أورهان":

- إنني آسف.

- حسنًا، كل شيء جيد الآن أيها الرجل الطيب.

أتت "عائشة" بجانبنا ووضعت يدها على كتفينا وقالت:

- يوجد القليل من "الراكي"، أتريدان بعضًا منه؟

فأجبتها:

- فيما بعد، لديَّ أشياء أقوم بها الآن.

- الآن؟

- لديَّ دعوات من "إلفان بيرين"، نعمل على تكوين فريق إنتاج شريط هذا الأسبوع، عليَّ أن أذهب للبيت وأعمل، كما يحتاج "أورهان" إلى الراحة أيضًا.

كانت الدنيا قد أظلمت تمامًا عندما وصلت شارع "نسباتيه"، وكان المطر قد توقف تقريبًا، وندمت على عدم الذهاب إلى المنزل لتغيير جواربي؛ حيث بدأت أصابعي تؤلمني من شدة البرودة، فبعد كل شيء، كانت "نازلي" على حق، كما كانت دائمًا.

58

في هذا الصباح، استيقظتُ على صوت زقزقة "بيبر" لأجد نفسي نائمًا على أريكة "نهاد آبي"؛ حيث عاد الطائر المسكين إلى بيته وسَعِدَ لذلك كثيرًا، وكانت برأسي همهمة لا نهائية، وكان لباسي لا يزال رطبًا، شعرت بالتعب، لا بد أن ملابسي كانت غارقة بالمياه عندما وصلت إلى هنا.

فتحت الستائر، فملأ النور الشقة كلها، كان يومًا مشمسًا وكأن الخريف يهادينا، حيث لم يكن الجو باردًا جدًا، ولكنني شعرت بالبرودة، سحبت كل البطاطين التي وجدتها في البيت وتغطيت بها إلى ذقني ورقدت أشاهد السقف، أتخيل أشياء بعد التمعن في النظر إلى البقع والأوساخ بالسقف تمامًا كما كنت أفعل وأنا طفل، وأخذتني أحلام اليقظة تلك إلى الطريق نفسه الذي دائمًا ما تأخذني إليه، إلى الماضي.

لاحظت أنني أفتقد أمي، شعرت بالوحدة. شعرت بأن أحدًا ما يدفعني بعيدًا عنها، يطردني من الحياة، ربما لهذا احتجت إلى التفكير في أمي. رثيت حالي.. رجل بلغ الأربعين وما زال يفتقد أمه. ارتفعت حرارتي، كنت أنعم بالرثاء لحالي.

وعندما وصلت الحرارة إلى درجة لا أتحملها، ناديت على "جلومساشر" من شباك المطبخ لكي تأتي إلى الشقة، فجاءت بخدودها الوردية في أقل من خمس دقائق.

Twitter: @ketab_n

- كيف حال زوجك يا "جلومساشر"؟

- تم رفض الاستئناف، سيسجن لثلاث سنوات ونصف.

- لا تفقدي الأمل، قد ينال عفوًا عامًا، أو إفراج بحُسن سير وسلوك، أشياء مثل هذه.

- نعم، يجب ألا نفقد الأمل.

وبعد أن أعطيت "جلومساشر" قائمة الدواء، رميت بنفسي تحت البطاطين، كنت أتفكك إلى أجزاء، عندما كنت طفلاً تعاملت مع الأحلام كأفلام تُعرض داخل الجفن، فأغلقت جفنيّ ونمت وأمسكت الأحلام يديَّ تمامًا كما اعتادت أن تفعل وأنا طفل.

وفي حلمي، رأيت أمي في قصر "إلفان بيرين"، كانت تكوي الملابس، كما هو حالها في الصورة الموضوعة على قبرها، لم تكن عجوزًا أو شابة، وكان شعرها شبيهًا بشعر "إلفان"، بني فاتح قريب من الأحمر، وكانت ترتدي ملابس غالية لم تمتلكها في حياتها قط، كانت الملابس تتبع آخر صيحات الموضة، جعلت أمي تبدو وكأنها عارضة أزياء تظهر في مجلات الموضة.

نظرت إليها وتأملت جمالها؛ حيث كانت من نوعية النساء التي تحب أن تقضي حياتك كلها تحت قدميها. كان الجمال والحيوية يشعان من جسدها، وأثناء تمريرها للمكواة على الملابس، كانت تردد لحن أغنيتي على شفاهها.

رن جرس الباب مرتين، ولم تسمعه أمي؛ حيث استمرت في دندنتها، لا بد أن أتأكد من أين كان يأتي صوت رنين الجرس، حاولت أن أجعل الحلم يستمر خائفًا أن أفتح عينيّ ولو قليلاً.

ثم تحسستُ معطفي حتى وجدته وأخرجت أموالاً لـ"جلومساشر"، وعندما نهضتُ شعرت برأسي يدور، مشيتُ بحذر إلى الباب، وعندما فتحته، وجدت "عائشة" أمامي.

Twitter: @ketab_n

وقفت "عائشة" أمامي وعلى وجهها ابتسامة، فقالت:

- مرحبًا، ألن تدعوني للدخول؟

وعندما دخلت، استدرت ونظرت إلى الغرفة، كانت في حالة مزرية؛ تبعثر معطفي وحقيبتي وحذائي في كل مكان، وكانت البطاطين غير مرتبة على السرير، ومناديل مستعملة على الكرسي المجاور للسرير، كنت ممتنًا لأن عيني "عائشة" الزرقاوين تنظران إليَّ وليس إلى الغرفة.

- ماذا أصابك؟

- أُصبت ببرد خفيف.

- خفيف؟ لا تبدو هكذا على الإطلاق.

وفي هذه اللحظة، رن جرس الباب مرة أخرى، وكانت "جلومساشر" هذه المرة؛ حيث أحضرت الأدوية والماء والخبز وشوربة سريعة التحضير. ابتسمت عندما رأت "عائشة".

- أُصيب "محمد بيك" بالبرد مؤخرًا، هل أذهب وأحضر بعض الشوربة له؟

فأجابت "عائشة":

- لا تزعجي نفسك، سأعتني بالأمر.

جلست "عائشة" على الفوتيه المقابل لي أثناء تناولي الشوربة الذي أعدته من أجلي. يبدو المنزل غريبًا عندما لا تُعزف الموسيقى فيه، رفعت ركبتيها لأعلى وأسندت ذقنها عليهما، ونظرت إلى "بيبر" بابتسامة منكسرة على شفتيها.

- أيعني ذلك أنك عزَّلتِ.

- ألديك فكرة أفضل؟

- لم أرد أن يصبح الأمر هكذا، حدث كل شيء بأغرب شكل ممكن.

Twitter: @ketab_n

- كيف حال "أورهان"؟

- جيد، أعتقد، يشعر بذنب كبير، يطلب غفراني طوال اليوم.

- إنه رجل قوي، سيتخطى الأمر.

- ألا تريد معرفة سبب رجوعه؟

- لا.

- هل ستصبح هكذا منذ الآن؟

- لا أعلم؟ كيف أبدو؟

أخفت وجهها بيديها، وخشيت أن تبدأ بالبكاء، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وأسندت ظهرها، وبقيت الدموع متكومة في عينيها، وقالت:

- ليس في مقدوري معاملته بالطريقة نفسها.

- عزيزتي "عائشة"، لا أتوقع أن تفعلي أي شيء لأي شخص.

- لم أكن أعرف كيف أتصرف من دونك خلال كل تلك الأيام الماضية، أعتقد أنني كنت لأجن من كثرة الحزن على نفسي.

- كنتِ ستتدبرين أمورِك بطريقة أو بأخرى.

- أعلم أنك غاضب مني.

قفزت بفرحة زائفة، وذهبت بجوار "بيبر"، ووضعت إصبعها مرة أخرى حتى يعضها بمنقاره، ولكنه لم يتزحزح، كان المسكين منهمكًا في عالمه ولم يكن في أي مزاج يسمح له بالتعامل معنا.

- من الأفضل أن أذهب.

- أريد أن أسألك شيئًا ما.

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟

- في الليلة السابقة لسفري إلى "أدنة"، عندما كنتِ ترتبين أغراضي في شقتي، كنتي تدندنين بلحن، ما هذا اللحن؟

- هل كنت بالشقة؟

- نعم، كنت مختبئًا بالمطبخ.

لم تتمالك نفسها من الضحك:

- "محمد"، إنك رجل مرح جدًا، ماذا كنت تفعل بالمطبخ؟

- من أين تعلمتِ هذا اللحن؟

- كيف لي أن أعرف؟ لا بد أنني سمعته منكَ!

ثم رحلت، وكأننا كنا سنتقابل بعد ساعتين، ولكنني اكتشفت فيما بعد أننا لن نرَ بعضنا البعض ثانية.

Twitter: @ketab_n

59

استدار "ألتان" أخيرًا إليَّ أثناء جلوسنا على البار؛ حيث ظللت أحدق في مؤخرة رأسه لمدة عشرين دقيقة، وأشار بذقنه إلى فتاة جالسة على ترابيزة وقال:

- ما رأيك؟

- جميلة، أنعم الله بها على مَنْ يستحقها.

- إنك تؤمن بالقضاء والقدر، هذا شيء في دمك.

أدار ظهره مرةً أخرى وقال:

- ولكن لو تدبرت الأمر بطريقة منظمة، ستجد أنها وحدها، أليس كذلك؟

وكانت الفتاة جميلة حقًا، في العشرين من عمرها على أقصى تقدير، وكانت تتوسط مجموعة من الصبية والفتيات، جميعهم في العمر نفسه، وكان لها وجه ملائكي، وخصلات شعر مجعدة عسلية اللون، وأعطتها نظارتها ذات الأذرع السوداء المعقودة مسحة من هيئة المثقفين.

- في الواقع، هي ليست من النوع الذي تحبه على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

- لقد رأينا ما الذي يأتي من وراء النوع الذي أحبه، أليس كذلك؟

- من الصعب التعامل مع امرأة في ذلك العمر.

- إنها ليست امرأة بعد يا "محمد"، إنها فتاة صغيرة، وإذا ما استمررت هكذا، ستجد نفسك يومًا ما وقد أصبح عمرك مائة ولن تجد أحدًا بجانبك.

- وما الذي يجب عليَّ فعله حينها؟

- افعل ما يحلو لك، شخصيًّا أفكر في الذهاب للتحدث معها عقب انتهاء العرض.

وكانت هذه هي أول ليلة لنا في "إتيلير" كأعضاء بفرقة "إلفين برين"، وكانت كل الترابيزات محجوزة تقريبًا، مما أسعد مالك المكان بشدة. استدرتُ لألقي نظرة على الزحام وجال بخاطري فكرة أن أختنا الصغيرة "إلفان" مشهورة أكثر مما تخيلنا بكثير.

كان "ألتان" مركزًا جدًا على هدفه لدرجة أنه لم يلحظ رحيلي عنه، وتَركُه. كان أعضاء الفريق الآخرين جالسين على ترابيزة بجانب المسرح يتضاحكون، وعندما اقتربت منهم أشعلوا شموعهم الرومانسية ولوَّحوا لي.

- كيف الأحوال؟

أجابني "حاقان":

- أعتقد أننا سنبدأ بحلول منتصف الليل.

وكان قصيرًا ممتلئ الجسم، وهو شاب خفيف الروح، ويعزف الجيتار الأساسي في فرقتنا.

- لم أقصد هذا، هناك فتيات كثيرات بالمكان، فلماذا لا تذهبون للتعرف إليهن.

- سيقوم "ألتان آبي" بعمل المطاردات الغرامية نيابة عنا.

Twitter: @ketab_n

- فلأقل لك شيئًا إذن.

وهمست في أذنه:

- إذا ما سمعتك تتحدث عن "ألتان" بهذه الطريقة غير المحترمة مرة أخرى، سألصق جيتارك بمؤخرتك، مفهوم؟

تفاجأ من كلامي وأجاب:

- حسنًا "محمد آبي"، إنني آسف.

- بدلًا من الاعتذار، اذهب وتعرف على تلك الفتيات، وأنتم يا شباب، من المفترض أنكم شباب صغار!

كانت "إلفان" تتكلم في تليفونها المحمول ممددة ساقيها عندما دخلت إلى غرفتها، كانت ترتدي فستان الحفل الذي يتلألأ من كثرة الترتر به، وملأ عطر قوي مرشوش حالًا أنفي، أمّا ترابيزة مكياجها فقد امتلأت بباقات ورود متعددة الألوان، وأمام المرآة كانت زجاجة ويسكي، وعندما بدأت في التحرك خارجًا من الغرفة، أشارت إليَّ بيدها بأن أبقى، وسألتني بلهجة رسمية:

- كيف حالك؟

- جيد، هل لاحظتِ عدد الجمهور؟

- ربما لأنها ليلة العرض الأولى.

- لن يقل عدد الجمهور حتى نهاية العروض، لا تقلقي.

فأمسكت يدي وقالت:

- أشعر بالراحة عندما أكون بجانبك، شكرًا لك.

Twitter: @ketab_n

خطفنا المشهد في تلك الليلة بجدارة عالية، جعلنا الناس تتراقص وهي جالسة على الترابيزات، جعلناهم يشعرون بالحيوية، أسكرناهم، جعلناهم يعرقون، جعلناهم يلمسون بعضهم البعض، جعلنا الرؤساء يتوددون إلى سكرتيراتهم، جعلنا رؤساء الأقسام يتعرفون على طلبة الجامعات، وأثناء فعل كل ذلك شعرنا بطاقتنا الحيوية أيضًا، سمونا بأنفسنا على خشبة المسرح مدفوعين بإحساس أن الوجود الحقيقي الوحيد لنا في هذا العالم محدود بالمساحة التي نشغلها على خشبة المسرح.

وعندما حان دور أغنيتي، أسكتت "إلفان" الجمهور، وأشارت إليَّ بيدها وقالت:

- والآن أريد أن أغني لكم أغنية من ألبومي الجديد، وهي من تلحين عضو فريقنا الكريم "محمد أولجاي"، لنرَ إلى أي مدى ستحبونه.

وأخذوا يسلطون أعينهم عليَّ أثناء مشاورة "إلفان" إليَّ. كنت أعتقد بأنني لست مرئيًا بالقدر الكافي، لأنني كنت أقف في منطقة نصف مظلمة، ثم سمعنا تصفيقًا خفيفًا، وبدأنا في الأغنية قبل أن يتلاشى التصفيق، وعند وصولنا إلى الكوبليه الأخير، بدأ الجمهور مشاركتنا الغناء بالفعل.

وانتهى عرضنا حوالي الثانية والنصف من صباح اليوم التالي، أردت أن تبقى "إلفان" وتشرب معنا، ولكن رفيقها أصرَّ على أن يذهبا في الحال، وطبقًا لما أخبرني به أعضاء الفريق، فإنه يمتلك عدة محطات بنزين، وأثناء انتظاره لـ"إلفان" عند الباب، بدا وكأنه كائن ليلي تمامًا، وواجهت صعوبة في تخيل كيف سيبدو في ضوء النهار.

بدأت عيناي تبحث عن "ألتان"، ثم وجدته؛ حيث كان يجب أن أبحث عنه أولاً، على ترابيزة الفتاة ذات الشعر العسلي، وقد خلع القميص الأسود الذي ارتديناه كفريق، وارتدى سترة بيج قصيرة. كان يجلس أمام الفتاة بالضبط،

Twitter: @ketab_n

وكان يخبر الجالسين على الترابيزة بشيء ما ويؤكده بإيماءات حادة، وكانت الفتيات يبتسمن بأدب، بينما ظهرت علامات الضجر على وجوه الصبية، ورأيت هذا واضحًا من المكان الذي أجلس فيه، وبالنظر إلى "ألتان" حزنت بشدة.

وشعرت بيد على كتفي، فوجدت "حاقان" يقول:

- "محمد بيك"، آمل ألا تكون أسأت فهمي.

- آسف، أحيانًا ما نكون حساسين بعض الشيء، أليس كذلك؟

- أنت صديق قديم لـ"ألتان"، أليس كذلك؟

- نعم، منذ زمن بعيد.

نهضت المجموعة الجالسة على الترابيزة، وذهب "ألتان" معهم إلى الباب، ومن طريقة مشيته، كان واضحًا أنه لم يفز بالكثير، حيث أخذوا معاطفهم من الأمانات، وأخذ "ألتان" معطفه أيضًا، وشعرت بوجود بعض التوتر من الطريقة التي نظرت بها الفتيات إلى بعضهن البعض، وعندما خرجت المجموعة من الباب، خرجت إثرهم.

وأمام الباب، وجدت" ألتان" يتشاجر مع فتيان، وكان الجرسون يحاول أن يفصل بينهم.

وقال الفتى طويل الشعر:

- خذ هذا الرجل بعيدًا عنا.

قال "ألتان":

- أتحاولان التأثير على الفتيات بالتحدث معي بهذه الطريقة؟

فأتى إلى "ألتان" شاب آخر كان يقف بجوار الفتاة عسلية الشعر وجذبه من ياقته وقال:

Twitter: @ketab_n

- هل تريد افتعال مشكلة معنا أم ماذا؟

أراد "ألتان" أن يدفع الصبي، ولأنه لم يقدر المسافة أو يتحكم في سرعته، فقد انتهى بصفع الفتى على وجهه، وعلاوة على ذلك، قام صديق الفتى بلكم أنف "ألتان"، وفي الثواني العشر التالية حدث الآتي: هويت بقبضة يدي بكل قوتي على خد الفتى، وبعدها في الحال، شعرت بألم حاد في أنفي، وفقدت توازني، وجلست على الرصيف، فأغلقت عينيَّ وانتظرت اللكمة الثانية، وعندما لم يحدث شيء، فتَّحْتُ عينيَّ، بالكاد رأيت الفتاة عسلية الشعر وهي ترحل باتجاه الميدان الرئيسي جالسة في المقعد الخلفي لسيارة جيب.

تحسست أنفي بيدي، والحمد لله لم يكن هناك دم، بينما جلس "ألتان" على السور المنخفض المجاور للباب، يدعك خده ويضحك، وكان الجرسونات ينظرون إذا ما كان قد رأى أي شخص آخر ما حدث.

هب نسيم رقيق ينبئ بهروب الصيف، شعرت به يتخللني ويخرج مني هاربًا إلى الطريق، بعدها شعرتُ ببرودة الرصيف في أردافي.

هكذا كان الأمر، في ليلة من ليالي نوفمبر، يتركونك وحيدًا على الرصيف.

Twitter: @ketab_n

#كتب_مختلفة #تركيا

" تم تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي عام 2013"

ما زالت لديَّ قناعة راسخة بأنه من الممكن أن أجلس أنا و"نازلي" سويًا ونُعيد مناقشة ما جرى، ولو أنني لم أقابل حتى الآن من لديه القدرة على فعل مثل هذا..فالزوجان يتغيران بشدة بعد طلاقهما، وخاصةً النساء القادرات على التحوُّل إلى شخصيات غريبة بالكامل في وقتٍ قصير؛ بحيث لا تُصدق أن المرأة التي اعتدت أن تراها نائمة بجوارك منذ أشهر قليلة هي نفسها المرأة التي تراها الآن.

وُلد في اسكشهير سنة 1973، ودرس السينما بكلية الفنون الجميلة في جامعة ميمار سينان. حصل كتابه الأول "مراقبو القمر" على جائزة "يازار نايير" في الشعر عام 1994، وتقاسم جائزة "أورجوفان بالاكان" مع شاعر بوسني عام 1997، ثم نشر روايته الأولى"ارحل قبل أن أنهار" عام 2002، وحظيت بتقدير القرَّاء؛ حيث اعتُبرت أحد أهم الأحداث الثقافية لذلك العام،وأصدرتها العربي للنشر والتوزيع عام 2015، وتلتها روايته الثانية وهي "طريق الوحدة" عام 2003، والتي نقدمها لكم هذا العام تحت عنوان "امرأة صديقي"، وقد تم تحويلها لفيلم سينمائي عام 2013، وفي 2007 صدرت روايته المميزة "الصلوات تبقى واحدة" والتي قدمتها أيضًا "العربي للنشر والتوزيع" عام 2011. كما يؤلف "تونا" الأغاني لفريق "روك أند رول" يُسمى "قلعة الرمال". ويكتب سيناريوهات للسينما، بالإضافة إلى كتابة عمود صحفي بانتظام في إحدى الصحف التركية المعروفة.
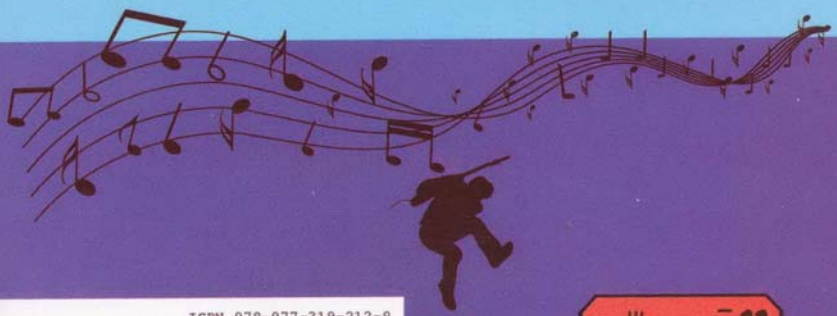
العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-212-9
9 789773 192129 >

تصميم الغلاف: مروة فتحي